

Sayf Hami Thawar

# سَيْفُ بَنِي مُرْوَانَ

الحجّاج للثقتي

تأليف

عبدلرزاق حميدة

المدرس بكلية دار العلوم بجامعة قواد الأول

Wahid al-Raziq Hamida

الناشر

دار الفكر العربي

2271

264

. 381

2271.264.381

Hamidali

Sayf bani Harwan al-Hajjaj  
al-Thaqafi

al-Thaqafī

✓

• • •

158120-20

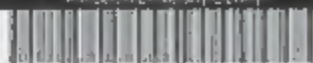
DATE ISSUED

DATE DUE

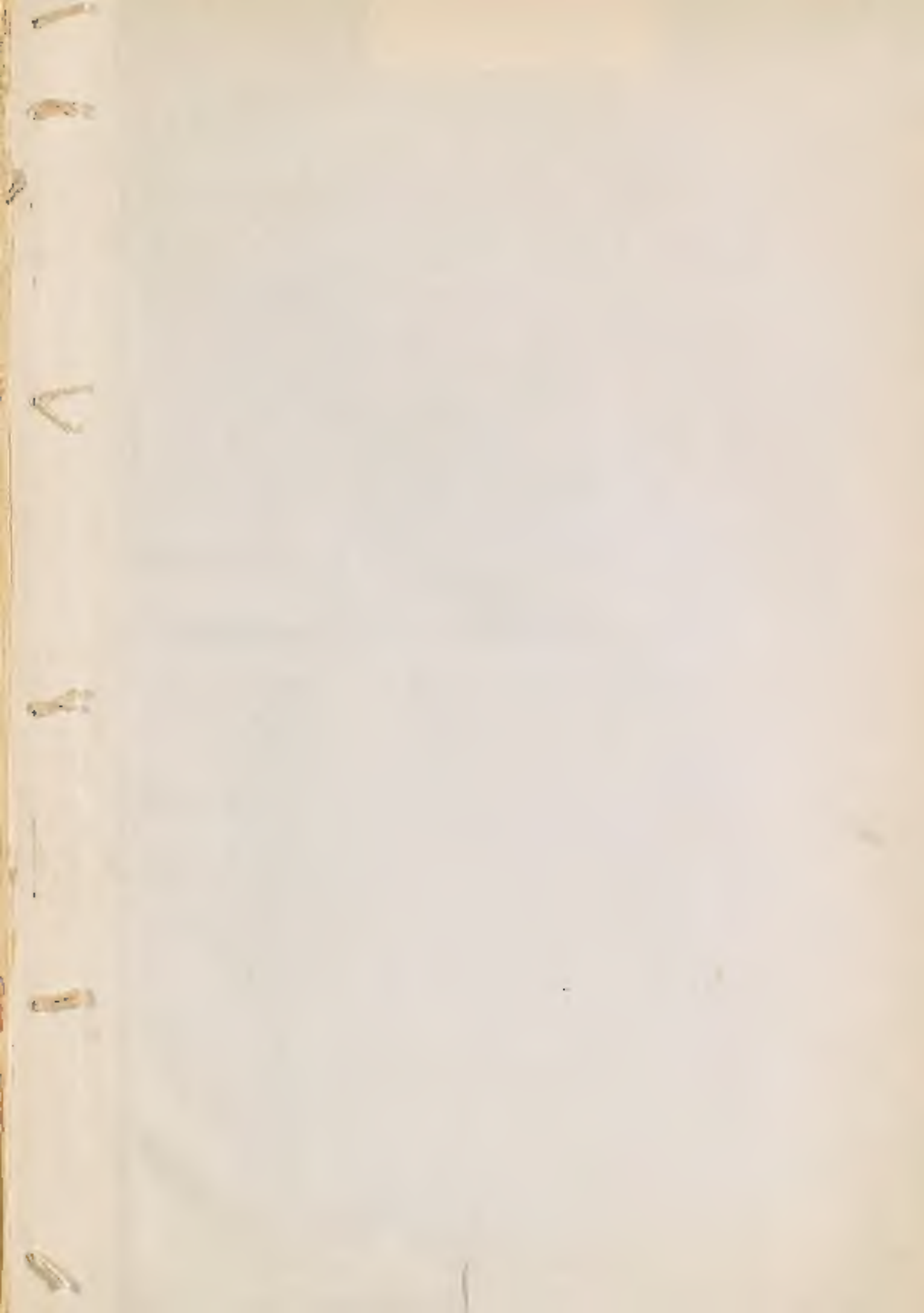
DATE ISSUED

DATE DUE

Princeton University Library



32101 072539941



Sayf-bani Marwān

al-Hajjāj al-Iḥagafī

# سَيْفُ بَنِي مَرْوَانَ

## الحجَّاجُ لِثَقَفِي

تأليف

عبد الرزاق حميدة

المدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

ʿAbd al-Razzāq Ḥamīdah

مطبعة

دار الفكر العربي

فلاحية

نحوه

تكملة

القاهرة

مطبعة أحمد نجيب شارب فاروق كليفتون ١٩٦٥



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

يحدثنا التاريخ السياسي عن الحجاج في مواطن متعددة في الشام والحجاز والعراق ، في عهد الملك بن مروان ، والوليد بن عبد الملك .

ويحدثنا أنه كان له شأن مع كثير من الرجال يتولاهم أو يعاديهم أو يحاربهم ، كشأنه مع زفر بن الحارث ، وابن الزبير ، والمهلب ، والخوارج ، وابن الأشعث ، وشيبب الحروري .

ويحدثنا عنه قائدا عاما لحرب الخوارج ، وحرب ابن الزبير وحرب غيرهما ، من ملوك العجم والهند والصين وجنوب التركستان .

وتحدثنا عنه كتب التراجم قتي من تعيق ، يولد بالطائف في أول خلافة معاوية ، ويشب بها ولاذكر له ولاخطر ، حتى يتجاوز العشرين ، ثم يظهر شأنه في الشام بعيداً عن موطنه ، فيتولى عملاً لعبد الملك قد عجز عنه عبد الملك نفسه . وعندئذ يلتقي التاريخ السياسي بما كتبه رجال التراجم ، ثم يشترك تاريخ الأدب في حديث التاريخ السياسي وأصحاب التراجم ، فيكشف كثيراً من صفات الحجاج النفسية والخلقية والسياسية التي تم عنها آثارة الأدبية ، مما بدا في رسائله ، أو جرى على لسانه في خطابه أو أحاديثه . ويقف الباحث في تاريخ الحجاج ، والناقد لأخلاقه وسياسته وأدبه ، موقف الحكم ، بين الروايات التاريخية . ويحقق أقوال كتاب التراجم ، ويفهم آثار الرجل الأدبية في ضوء التاريخ السياسي ، ويستعين بهذه الآثار على تأييد أحكامه .

ولا بد له من أن يسمع كثيراً لحديث التاريخ السياسي عن الحجاج ؛ فالرجل لم يكن أديبا محترفاً ؛ لا كاتباً متخصصاً ، ولا خطيباً متخصصاً ، وإنما



كان سياسيا ، يظهر في السياسة بالنبوغ في الأدب . وبخاصة الخطابة ،  
كغيره من رجالات عصره المحدثين .

كان مطبوعا على القول الجيد ، والبرهان القوي ؛ ولكنه كان سياسيا قبل  
أن يكون أدبيا ، وكان قائداً وواليا قبل أن يكون خطيبا . فلندرس تاريخه  
وسياسته وظروفه ؛ كي نعرف الأحوال التي نشأ فيها أدبه . ولندرس أخباره  
مع الأدباء والشعراء ؛ لنرى كيف وجه أدبهم ، وأطلق السهم . وهكذا .

وإذا كان الرجل قد ظهر في عهد عبد الملك ، والوليد ابنه ، فقد قضى على  
كثير من الخصوم والفتن التي نشأت قبل عبد الملك بسنين ، كان الزبير  
والخوارج ، فكيف لا نتحدث عن تلك الفتن قبل الحجاج ، ثم نسير معها إلى  
أن ولي الحجاج أمرها فمضى عليها ؟

الحق أني مضطر إلى الحديث عن الظروف والأحوال التي عاش فيها  
الحجاج ، وإلى الحديث عما سبقه من أزمنة وأحوال في الشام والعراق  
والحجاز لما تقدم .

وسوف أغني بالنصوص والأخبار كما ترونها كتب الأدب ، وأسوقها  
كما هي ، معبأ عليها إذا رأيت في التعقيب فائدة . أما الطريقة العلمية المحضنة ،  
التي تعني بالتحليل والتعليل والتعقيب ، وتكتفي من النصوص والآثار  
بفقرات مقتضبة للاستشهاد والاستدلال ، فهي — على مزاياها العلمية —  
طريقة جافة ؛ ليس فيها من خفة الروح ، وطلاوة الحديث ما في  
النصوص والأخبار .

وأرجو أن أقضى حق التاريخ والأدب ، على طريقي التي آثرتها في  
الكتابة عن الحجاج ، السياسي أولا ، والأديب ثانيا .  
وأسأل الله التوفيق ؟

عبد الرزاق صهيبي

جمادى الآخرة سنة ١٣٦٦

مايو سنة ١٩٤٧



## فهرس الكتاب

صفحة

- ٩ أول ظهور الحجاج : اختياره لسوق قاسم إلى الحرب . موقفه من أنبياء روح  
ابن ذئب . تعليق على هذا الموقف . . . . .
- ١٢ نسب الحجاج : مولده . أمه . ما روى حول مولده من شذوذ . جهل التاريخ به  
وهو صير . تاريخ الأدب يقول إنه كان معلم صبيان . . . . .
- ١٦ عصر الحجاج : بنو أمية وابن الزبير . معاوية . زياد . خطبة زياد القراء . تعليق عليها .  
المنيرة بن شعبة . البيعة ليزيد من تفكيره . زياد وإلى المصريين . جهد معاوية  
في البيعة ليزيد . . . . .
- ٢٥ يزيد : قتل الحسين . رفعة الحرث . رمي الكعبة . . . . .
- ٣٣ سلطان ابن الزبير : بينه وبين الخوارج . ابن الزبير واختار في الحجاز . . . . .
- ٢٨ الأمر في العراق والشام : طرد ابن زياد من العراق . البيعة لمروان بن الحكم  
في الشام . . . . .
- ١١ عبد الملك : صفاته . خروجه لحرب زفر بن الحارث . بينه وبين عمرو بن سعيد .  
العراق في أول عهده . الشيعة والختار . مصعب في العراق . قتل المختار على يد  
مصعب . سير عبد الملك إلى العراق وقتل مصعب . . . . .
- ٥٠ الحجاج في الحجاز : قتل ابن الزبير . خطبة الحجاج بعد قتله . سب فقل ابن الزبير .  
ثم بناء الكعبة . . . . .
- ٥٧ نقل الحجاج إلى العراق : سبه كما روي تاريخ الأدب . السب الحقيقي لقتله .  
العراق قبيل الحجاج . أمر الخوارج عتدى . مذهب الخوارج واختلافهم .  
حرب الأزارقة . المهلب على حريم . بشر بن مروان وشدة على الصلاة . . . . .
- ٦٤ الحجاج وإلى العراق : أول خطبة له بالعراق وعنده لأهل العراق . خروج ابن الجارود  
عليه . الخوارج والمهلب في عهده . حيل المهلب للتفريق بينهم . الحجاج يتجمل  
المهلب . موت قطري . كتاب المهلب بالنصر . وصف كعب الأشقرى لأبناء  
المهلب . رد الحجاج . . . . .

صفحة

- ٨٣ ثورات العراق على الحجاج : ثورة الخوارج - ثورة مطرف بن النخعة - ثورة  
ابن الأشعث - يوم الزاوية - دير الناجم وحرمة ابن الأشعث - خطبة الحجاج  
بعد دير الناجم - الحجاج بعد ثورات العراق - موقفه من الأكراد - خبره مع  
فيروز حسين . . . . .
- ٩٧ الفتح في ولاية الحجاج : القواد الذين ساعدوه - غزو بخارى - خوارزم -  
سمرقند - بين قتيبة بن مسلم ومك القمين - محمد بن القاسم . . . . .
- ١٠٤ معاملته للأشراف : يزيد بن المهلب - ابن الحنفية - وابن عمر - وأنس بن مالك -  
كتاب عبد الملك إليه في أنس بن مالك - رده عليه - بينه وبين ولي العهد -  
شدة عبد الملك عليه - وكتابه إليه - رده على عبد الملك - تعليق . . . . .
- ١٢٥ صفات الحجاج : وصفه نفسه - رجوعه عن رأيه إذا اقتبح - امتناعه عن الثرابيد  
كزبه : أعماله - الانحياز - قل دواوين العراق - بناء واسط . . . . .
- ١٢٣ الحجاج والأدب : خطابه - عادته في خطبه - مقدرته - كتابته - الانحياز في عصر  
بنو أمية - رسوم الكتابة في عهدهم - منزلة الحجاج بين كتاب عصره - رسالته  
إلى عبد الملك - الزخرف في أدبه - خطبه في غير التهنيد . . . . .
- ١٥٠ التوقيعات : معناها - قبتها - توقيعات الحجاج . . . . .
- ١٥٢ أكان يقول الشعر : . . . . .
- ١٥٦ بنو أمية والشعراء : الحجاج والشعراء - الواقفون عليه - جرير - ليل الأندلس . . . . .
- ١٧٢ اجتماع الشعراء عنده : جرير والفرزدق وغيرهما . . . . .
- ١٧٣ صلة الشعراء بالحجاج : عمران بن حطان - النديل بن الفرخ - بحيرة الحجاج - غنمه  
على محمد الحميري - وكعب الأحمري ومالك بن الربيع - وجعفر السكلي - رعيانة  
ومالك ابن أسماء . . . . .
- ١٨٧ الشعر في أحزانه : رثاء الفرزدق لابنه وأخيه - موت ابنه أبان - رعيته في المرح  
معرفة بالرجال . . . . .
- ١٩٢ رأى الناس فيه : عمر بن عبد العزيز - ومجاهد - عطاء بن السائب - تعليق . . . . .
- ١٩٧ مرضه ووفاته : تعليق . . . . .

## مراجع الكتاب

الأغاني : لابي الفرج الأصفهاني في ترجمة الأدباء الذين لهم صلة بالحجاج مثل  
جرير والفرزدق ومحمد القميري وابن أبي ربيعة ، وكعب الأشقرى  
ونهار بن توسعة ، وغيرهم ممن ورد ذكرهم في الكتاب .

الأمالي : لأبي علي الفاي ٢٠١

تاريخ أدب اللغة العربية : لجورجي زيدان ٢

تاريخ الإسلام : للمرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار

تاريخ الأمم الإسلامية : للمرحوم الشيخ محمد الخطرى بك

جمهرة خطب العرب : للأستاذ أحمد زكى صفوت ٢٠١

جمهرة رسائل العرب : للأستاذ أحمد زكى صفوت ٢٠١

الحجاج : للأستاذ عمر أبي النصر

ديوان جرير:

ذيل الأمالي والنوادر : لأبي علي الفاي

السيرة النبوية : لأبي هشام ٢٠١

العقد الفريد : لأبي عبدربه ٣٠٢٠١

قواف الوفيات : لأبي شاكرك الكتي ٢٠١

الكامل : لأبي العباس المبرد ٣٠٢٠١

مقدمة الإلياذة : لسالم البستاني

• : ابن خلدون

معاهد التنصيص : عبد الرحم العباسى ٢٠١

وفيات الأعيان : لأبي خلكان ٢٠١

وقعت بعض أخطاء لم يكن بد من التنبيه إلى صوابها فيما يأتي :

الصفحة	الطر	الصواب	الصفحة	الطر	الصواب
١٠	١٦	رَوْحَ بْنَ زُنْبَاع	٥٦	١٧	له
١٣	١٤	بنت يوسف	٥٧	٩	أذن الخليفة
١٠	١٧	وزر	٥٧	١٠	ابن محمد بن طلحة
٢٥	١٦	أبي بكر وابن الزبير	٦٣		الاسلام
٤٠	(١٧٠١٥)	خالد بن يزيد	٧٥	١	عندى
٤٣	١٤	دُرَّيْنِهَا	١١٢	١	أنك
٤٤	١	ملكي	١٣٧	١٣	اشتهاره
٤٧	٤	الحجاز	١٤٠	٢٢	الازدواج
٥١	١٠	طلب	١٥٦	٨	بنو أمية والشعراء
٥٢	٤	أصحابي	١٦٠	٢٤	إليه

## أول ظهور الحجاج

يتحدث التاريخ السياسي أول ما يتحدث عن الحجاج بن يوسف في السنين الأولى من خلافة عبد الملك بن مروان ، فيذكر أنه كان متمازاً في شرطه رَوْح بن زُبَاع الجذامي ، ثم صار رئيساً لها .

وكان عبد الملك يعاهد جهاد الأبطال ليعيد إلى بني أمية ملكاً أو ملكاً أن يزول ، بعد أن كان واسماً عريقنا في أيام معاوية . وبعد أن كانت دمشق في أيامه حاضرة الإسلام . وبدن خليفتها كل الأقطار الإسلامية بالطاعة والولاء . رأى عبد الملك أن ليس لبنى أمية من الأمر شيء في غير مصر والشام . وأن أقرب أعدائه إليه رجل من قيس ، هو زفر بن الحارث الذي كان والياً لبنى أمية على قنسرين ، ثم خرج عليهم في عهد مروان بن الحكم ، وذهب إلى قرقيسيا بشمال العراق وتحصن بها . ومات مروان وولى ابنه عبد الملك ، وزفر ما زال على عدوانه . والخطر منه قريب .

أراد عبد الملك أن يخرج العسكر إلى حربه . فرأى فيه نخاضاً وعصياناً : كانوا لا يتزلون بنزوله ولا يرحلون برحيله . فشكا ذلك إلى روح بن زُبَاع أحد أعوانه المخلصين . فذله على الحجاج . وقال له : يا أمير المؤمنين ، إن في شرطتي رجلاً لو ولاه أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحلهم برحيله . وأنزلهم بنزوله . يقال له الحجاج بن يوسف . قال عبد الملك : فإننا قد قلناه ذلك .

فكان لا يقدر أحد أن يتخلف عن الرحيل والتزول إلا أتباع روح بن زُبَاع . فوقف الحجاج عليهم يوماً وقد رحل الناس . وهم على طعام يأكلون . فقال : ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين ؟

فقالوا له : نزل فكل معنا يا ابن اللعنة . فقال : هيات ! ذهب ما هنالك : ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط ، وطوفهم في العسكر وأمر بخيام روح بن زُبَاع

فأحرق بالنار . فدخل روح بن زباع على عبد الملك بن مروان باكياً . فقال له : مالك ؟ قال : يا أمير المؤمنين : الحجاج بن يوسف ، الذي كان في عديد شرطتي ، ضرب عيدي ، وأحرق فساطيطي !

قال عبد الملك : على به ، فلما دخل عليه قال له : ما حملك على ما فعلت ؟ قال : ما أنا فعلته يا أمير المؤمنين . قال ، ومن فعله ؟ قال : أنت والله فعلت ؛ إنما يدي يدك ، وسوطي سوطك ، وما على أمير المؤمنين أن يُخلف على روح ابن زباع للفسطاط فسطاطين ، وللغلام غلامين ، ولا يكسرنى فيما فدمنى له . فأخلف عبد الملك لروح بن زباع ما ذهب له ، وتقدم الحجاج في منزلته ، وكان ذلك أول ما أعجب عبد الملك منه .

هذه أول قصة يتحدث بها التاريخ عن الحجاج . وفيها دليل قوى على أن الحجاج كان ممتازاً ، ارتقى في شرطة روح بن زباع حتى صار رئيساً لها ، ولم يصل إلى هذا المنصب إلا بكفايته التي جعلت روحاً يذكره للخليفة ليقوم بأمر عظيم ، هو تأديب عسكر متخاذلين ، لم يستطع الخليفة نفسه أن يؤدبهم ويملك زمامهم .

وهي تدلنا على أنه كان لا يجاني فيما يراه صواباً ، فلم بغض عن أتباع روح زباع وهم مخالفون ؟ ولم يتركهم قدوة سيئة في هذا الظرف الحرج ؟ وما حجتة — لو تركهم — إذا تخلف غيرهم عن الرحيل والنزول ؟ وإذا كانت لروح عنده يد فليس شكرها في أن يسكت عن جند خارجين على النظام ، متخاذلين عن خليفة يبنى دولة ويسترد ملكاً أوشك أن يضيع .

وانظر إلى قوة حجتة عند الخليفة بعد أن شكاه روح : « ما أنا فعلته يا أمير المؤمنين » ، إنه ينسب الفعل إلى الخليفة ، وهو لم يأمره ، ولم تسكن عنده فسكرة عن وقوع مثل هذا من الحجاج ، ولكن الحجاج فعل ما كان يجب أن يفعله الخليفة ، وما تفرصه الظروف الحرجة التي كان فيها عبد الملك . وكان الحجاج يستطيع أن يعتذر إلى روح . ولكنه لا يعبأ بغضب الناس



ولارضاهم إذا فعل ما يراه واجبا . وعلى الخليفة ألا ينقض ما عمله الخجاج ، وإن شاء فليعوض روحا عما فقد من غلمان وخيام . أما ما عمله الخجاج فقد ترك في قلوب العسكر رعبا منه ، وأصبحوا يخشون انتقامه .

وإذا كان روح لم يستطع أن يحمي أتباعه فغيرهم أقل خطرا ، وليس لكل الناس صلة بالخليفة ، والذين لهم صلة لا يضمنون أن يعوضهم عبد الملك ، وقد يكون هناك ما يعز تعويضه إذا فقد . كالأرواح ، فغيرهم جميعا أن يكونوا عند أمره .

بهذا البدء المتدر بالشر والقوة وبالحرز وتقدير المواقف . يبدأ التاريخ حديثه عن الخجاج . وهو في الخامسة والعشرين من عمره .

---

## نسب الحجاج

يحدثنا ابن خلكان<sup>(١)</sup> في ترجمة الحجاج فيذكر أنه ابن يوسف بن الحكم بن عقيل من ثقف ، وأن ثقيفا من إباد .

ويشير إلى أنه قد ولد في أول خلافة معاوية حوالي سنة ٥٤١ هـ . وينقل عن مروج الذهب للسعدي ، أن أمه اسمها الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي ، وأنها كانت زوجا للحارث بن كلفة الثقفي طيب العرب فدخل عليها يوما في الصباح الباكر ، فوجدتها تتخلل ، فخرج من عندها ، وبعث إليها بطلاقها ، فلما رآته سأله ، لم بعثت إلي بطلاقي ؟ أكان ذلك شيء رابك مني ؟ قال نعم . دخلت عليك في السحر وأنت تتخللين ، فإن كنت بادرت الغداة فأنت شرهة ، وإن كان من طعام البارحة فأنت قدرة . فأجابته : ما هو بشيء مما ظننت ، ولسكني تخللت من أثر السواك .

وابن عبدربه يروي<sup>(٢)</sup> مثل هذه الرواية . ولكنه يقول إن أم الحجاج كانت زوجة للغيرة بن شعبة . وأن هذه الحادثة كانت بينها وبين المغيرة ، فلما عرف الحقيقة بعد قوات الوقت ندم . وخرج من عندها أسفا . فلقى يوسف بن الحكم بن عقيل ، فقال له : هل لك إلى شيء أدعوك إليه ؟ قال وما ذاك ؟ قال : نزلت الساعة عن سيدة نساء ثقف فتزوجها فانها تنجب لك . فتزوجها فولدت له الحجاج .

ولا يخلو مولد رجل مثل الحجاج من غرابة . فقد روى أنه ولد مشوها . وأبي أن يقبل ثدى أمه أو غيرها ، حتى أعيا أمره أهله . فيقال إن الشيطان تصور لهم في صورة الحارث بن كلفة الثقفي طيب العرب ، فقال لهم : ما خبركم ؟ فقالوا ولد ليوسف ولد من الفارعة ، وقد أبي أن يقبل ثدى أمه ،

(١) ص ١٤٤ ج ١

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٣٣

فقال لهم اذبحوا له جدياً أسود وأولغوه دمه . ثم افعلوا مثل ذلك في اليوم الثاني ، فاذا كان اليوم الثالث . فاذبحوا له تيساً أسود وأولغوه دمه ، ثم اذبحوا له أسوداً سالحاً<sup>(١)</sup> وأولغوه دمه . واطلوا به وجهه ؛ فانه يقبل الكدى في اليوم الرابع . ففعلوا به ذلك فكان لا يصبر عن سفك الدماء لما كان منه في أول أمره .

ورواية الشيطان والدم هذه غريبة قد تقرأ لغرابتها . أما المؤرخ فلا يقف عندها كثيراً ، ويراها شبيهة في غرابتها بما يروى عن غير الحجاج من خوارق العادات التي يفتقرها الخيال وينسبها إلى البازين من الناس ، ولو كان بروزهم في سفك الدماء . ومنها قصة تيمورلنك الاعرج التتري . فقد قالوا إنه ولد ويدها مخصبتان بالدماء . فجاء من أجل ذلك سفا كافطياً يبنى منازل من جماجم قتلاه .

ولا نعرف عنه في طفولته أو مراهقته أو أول شبابه إلا ما يحدثنا به تاريخ الأدب من أنه كان غيوراً بكرهه من محمد الغمري أن يقول شعراً في أخته زينب بنت الحجاج ويشتم الغمري من أجل ذلك . ومن أنه كان صاحب رأى في نسبة زياد إلى أبي سفيان . وأن ابن زياد حقد عليه من أجل ذلك ، واختصم الحجاج مرة إليه في أول ميراث بينه وبين عروة بن المغيرة بن شعبة . وأغلظ الحجاج لعروة فأمر ابن زياد بضرب الحجاج أسواطاً على رأسه . وما يقصه من أنه كان معلم صبيان بالطائف هو وأبوه وأخوه . وسوف نتحدث عن قصته مع الغمري في أخباره مع الشعراء .

أما أنه كان معلم صبيان . فذلك ما يرويه المبرد في الجزء الثاني من الكامل فيقول : ومن هرب من سجن الحجاج مالك بن الربيع المازني . . . . وفي ذلك يقول :

(١) الأسود السالح يقعد به الحية . وقد يكون المقصود به : جملاً أسود أجرب .

فَإِنْ تَصَفُّوْنَا يَا لَ مَرْوَانَ نَقْتَرِبْ      إِلَيْكُمْ وَإِلَّا فَأَذْنُوبُوا بِيَعَادِ  
فَإِنْ لَنَا عَنْكُمْ مَرَا حًا وَمَرْحَلًا<sup>(١)</sup>      بَعِيسٌ إِلَى رِيحِ الْقَلَاةِ صَوَادِي  
فِي الْأَرْضِ عَنْ دَارِ الْمَذَلَّةِ مَذْهَبْ      وَكُلُّ بِلَادٍ أَوْطَنْتُ كِبْلَادِي<sup>(٢)</sup>  
فَإِذَا نَزَى الْحِجَا جُ يَبْلُغُ جَهْدُهُ      إِذَا نَحْنُ جَاوِزْنَا حَفِيرَ زِيَادِ ؟  
فَلَوْلَا بَنُو مَرْوَانَ كَانَ ابْنُ يَوْسُفَ      كَمَا كَانَ ، عِبْدًا مِنْ عِيدِ إِيَادِ  
زَمَانٌ هُوَ الْعَبْدُ الْمَقْرُ بِذَلَّةِ      يَرَاوِحُ صَيَانَ الْقَرَى وَيُغْنَادِي

وبعقب المبرد على ذلك فيقول : « قال ذلك لأن الحجاج كان هو وأخوه  
معلين بالطائف » ، ويروى شعرا آخر في أن لقبه كان كلبيا ، وأنه كان صغير  
الخطر في بلده

أَيْنِسَى كَلِيبَ زَمَانِ الْهَزَالِ      وَتَعْلِيمَهُ سُورَةَ الْبُكُورِ

ومارواه المبرد من الشعر للتهوين من شأن الحجاج كان شعرا في الهجاء ،  
فهو موضع للاتهام ، والمبرد نفسه يقص علينا بعد ذلك بقليل أنه كان عظيم  
النسب كما تقدم ، وكفاه أن جده لأمه كان عروة بن مسعود الثقفي أحد الذين  
عنهم قريش فيما يرويه القرآن في سورة الزخرف : « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ  
هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمِ »<sup>(٣)</sup> .

ويقول المبرد تأكيداً لهذا : « ولما دخل الحجاج مكة اعتذر إلى أهلها  
لقلة ما وصلهم به . فقال قاتل منهم : إذا والله لا نعذرک وأنت أمير العراقين ،  
وابن عظيم القريتين .

فليس الحجاج وضيع النسب ، وأما تعليمه القرآن وهو صغير فليس  
مما يهون من شأنه ، فالناس حديثو عهد بالقرآن . وحفاظه كانت لهم منزلة

(١) مراحا ومرحلا : أي مكانا قرا إليه منكم .

(٢) أوطنت : آوت واستلذا أنقيم فيها .

(٣) القريتان مكة والطائف .

غير مجهولة . ولعل ذلك كان من أهم الأسباب التي أعانته على أن يصبح علماً  
من أعلام الخطابة في كل عصور اللغة والأدب .  
ولما كان الزمن الذي يعيش فيه الرجال عاملاً من العوامل المهمة ،  
المؤثرة في أدبهم وسياستهم وعلومهم وصفاتهم رأيت أن أذكر عن الزمن الذي  
عاش فيه الحجاج ما نستطيع به أن نقين بوضوح ، في أي عصر عاش الحجاج ،  
وكيف كانت سياسة صالحة لزمه ، وكيف كان أدبه نتيجة طبيعية لظروف  
ذلك العصر .

---

## عصر الحجاج

بنو أمية : وابن الزبير

ولد الحجاج في خلافة معاوية . ولمع نجمه في أيام عبد الملك بن مروان والوليد ابته . واشترك في أعظم الأحداث التي وطدت عرش عبد الملك ، ففضى على ابن الزبير وأخذ ثورات العراق ، وشرذ الخوارج حتى كاد يبيدهم ، وفتح قواده فتوحا في المشرق امتدت إلى بلاد الهند والصين ، وامتدت آثاره إلى الكتابة العربية فكان له أثر في إصلاحها ، وعمل غير ذلك كما سيأتي تفصيله ، فمن هم بنو أمية ؟ ومن هم أولئك الرجال الذي اتصل تاريخهم بتاريخ الحجاج ؟ وما تلك الأعمال التي قام بها حتى خلدت له ذكرا باقيا ؟

### ١ - معاوية

أما بنو أمية فهم أول أسرة وليت أمر المسلمين بعد الخلفاء الراشدين ، ومؤسس دولتهم هو معاوية بن أبي سفيان ، نازع عليا رضي الله عنه بعد مقتل عثمان ، واتهمه بالاشتراك في دمه . وأبي يعته ، وحاربه في صفين . ودبر له مكيدة عظيمة أوقع بها الخلاف بين جنوده وأعوانه : هي رفع المصاحف والاحتكام إلى كتاب الله . وانتهت بإيقاع الشقاق في جند سيدنا علي ، وكانت سببا مباشرا لظهور طائفة الخوارج الذين شغلوه عن حرب معاوية ، فحاربهم في الثروان والنخيلة . وقتل منهم كثيرا ، وانتهى أمره على أيديهم فقتله واحد منهم هو عبد الرحمن بن ملجم سنة ٤٠ هـ .

فلما قتل سيدنا علي عظم شأن معاوية ، وأقوى أمره بمبايعة الحسن بن علي له سنة ٤١ في عام الجماعة ، وانضم زياد والمغيرة إلى صفوفه بجانب عمرو بن العاص فقوى بهم ، واستعان بزياد والمغيرة في العراق فكانا من خير



الولاية وأحزمهم وفي عهد معاوية في عام الجماعة ولد الحجاج بن يوسف سنة ٤١ هـ .

زياد : أما زياد فقد حاول معاوية أن يضمه إلى أعوانه في أيام سيدنا علي — وكان زياد والياً له على خراسان — وكتب إليه يعرض له بأن أبا سفيان قد ولده فلما علم بذلك سيدنا علي كتب إلى زياد يقول له :  
« إني وليتك ما وليتك . وأنا أراك له أهلاً ، وقد كانت من أبي سفيان . فلة من أمائي الباطل . وكذب النفس . لا توجب له ميراثاً . ولا تحل له نسباً . وإن معاوية يأتي الإنسان من بين يديه ومن خلفه . وعن يمينه وعن شماله . فاحذر . ثم احذر . والسلام » .

ولكن معاوية استعان عليه بالمغيرة بن شعبة بعد قتل سيدنا علي حتى بايعه . فولاد البصرة سنة ٤٥ هـ بعد أن استلحقه بأبي سفيان سنة ٤٤ هـ . ولا يعني من أمر زياد إلا أعماله في العراق . فإن سياسته كانت مرشداً للحجاج فيما سلكه من سياسة أيام ولايته العراق .

معاوية زياد : جاء زياد إلى البصرة والفسق ظاهر فاش . فخطبهم خطبته الشهيرة بالبراءة<sup>(١)</sup> وهي :

أما بعد . فإن الجمالة الجلاء . والضلالة العمياء . والنهي الموفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم . ويشتمل عليه حياؤكم . من الأمور العظام ينبت فيها الصغير . ولا يتحاماها الكبير . كأنكم لم تقرأوا كتاب الله . ولم تسمعوا ما أعدة من الثواب الكريم لأهل طاعته . والعذاب الآليم لأهل معصيته . في الزمن السرمدي<sup>(٢)</sup> الذي لا يزول . أن تكونون كمن طرقت عينه الدنيا . وسدت مسامعه الشهوات . واختار الفانية على الباقية . ولا تظنون أنكم

( ١ ) سجد البراء لأنه لم يدأماً بحمد الله . وهذا هو المشهور فيها . وقال صاحب العقد إنه بدأه بحمد الله على إفضائه وسأله الخريد من نعمه وإكرامه . وطلب منه أن يلعبه فشكر على النعمة .

( ٢ ) الدائم . ويضرب الوصف الذي بعده الذي لا يزول .

أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه : من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ما له ؟

ما هذه المواخير<sup>(١)</sup> المنصوبة ، والضعيفة المسلوقة في النهار المبصر ، والعدد غير قليل ؟ ألم يكن منكم نهاية يمنعون الغشوة<sup>(٢)</sup> عن دليج<sup>(٣)</sup> الليل وغارة النهار ؟ قربتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتفضضون على المختلس . كل امرئ منكم يذئب<sup>(٤)</sup> عن سفيه ، صنيع من لا يخاف عاقبة ، ولا يرجو معادا .

ما أنتم بالحللاء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم<sup>(٥)</sup> الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوسا<sup>(٦)</sup> في مكائس الرب . حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدما وإحرقا . إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما يصلح به أوله : لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف . وإنى أقسم بالله لأخذن الولي<sup>(٧)</sup> بالمولى ، والمقيم بالطاعن<sup>(٨)</sup> والمقبل بالمدير والمطيع بالعاصي ، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول :

« أَنَجَّ سَعْدٌ فَقَدْ هَلَكَ سُعَيْدٌ »<sup>(٩)</sup> ، أو تستقيم في قناتكم<sup>(١٠)</sup>

( ١ ) المواخير جمع ماخور ، وهو بيت الزينة .

( ٢ ) نهاية : جمع ناه ، وغشوة : جمع غار ، ودليج الليل : قسير من أوله . والمقصود : الاغارة ليلا .

( ٣ ) يذئب : يدفع .

( ٤ ) الحرم : جمع حرمة . ومن ما لا يحل الاعتداء عليه . روى القسبي : قال : إن زيادا أخبر أن المرأة من أهل مصر لتأخذها اثنتان تصانق ، فيقال لها : نادى ثلاثة أصوات . فإن أباك أحد ، وإلا فلا لوم علينا فيما نصنع .

( ٥ ) كنوسا : مشتق من جمع كائس . ومكائس الرب : مكائس المسترة : جمع مكئس كجئس .

( ٦ ) الولي كسيد ، والمولى كسيد أو فكس .

( ٧ ) المراحل .

( ٨ ) هذا مثل يضرب لمن أصبح قسرة منه وشيكا بعد أن حل بجره ، ويريد التراجع منه ، وأصله أن سعدا وسعيدا ابني حبة بن أد خرجا في طلب إبل لها ، فوجدها سعد فزدها وقتل سعيد ، فكان أبوهما إذا رأى سودا بالليل قال : سعد أم سعيد ؟

( ٩ ) القنات مناهل الرمع ، والمقصود أنه إذا كان في رماحكم عرج فاما أن أكسرهما أو أقومهما .

أن كذبة الأمير بلفاء<sup>(١)</sup> مشهورة . فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتي فإذا سمعتموها مني فاعتمروها<sup>(٢)</sup> في . واعلموا أن عندي أمثالها . من نَقِبَ منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه ، فأبى ودَجَّ الليل ، فأبى لا أوقى بمُدْجٍ إلا سَفَكَت دمه ، وقد أجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر السكوفة ويرجع إلي . وإبى ودعوى الجاهلية<sup>(٣)</sup> فأبى لا أجد أحدا دعا بها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثا لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوما غرقناه . ومن أحرق قوما أحرقناه . ومن نَقِبَ بيتا تقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبرا دفناه فيه حيا . فكفوا عن أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدي ولساني ، ولا تظهر من أحد منكم رية بخلاف ما عليه عامتكم<sup>(٤)</sup> إلا ضربت عنقه .

وقد كانت بيني وبين أقوام إحن<sup>(٥)</sup> فجعلت ذلك دبر<sup>(٦)</sup> أذني وتحت قدمي فمن كان حينا فليزد إحسانا ، ومن كان ميئا فليزغ عن إسمائه . إني لو علمت أن أحدا قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعا ، ولم أهلك له سترا ، حتى يبدي لي صفحته<sup>(٧)</sup> . فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتس بقدمونا سبسر ، ومسرور بقدمونا سيبتش .

أيها الناس : إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة<sup>(٨)</sup> ، نسوسكم

(١) بلفاء : واضحة ، والبلق البيضاء ، يوقع من قوائم قفوس إلى الخدي ، فيتبر .

(٢) عدها في ضمن عير .

(٣) دعوى الجاهلية ، استمالة الناس بعضهم بعضا على أساس المعية القليلة لا على أساس الحد ، وأصله أن يقول الرجل : يا فلان ، فخرج فيك لصرته ظالما أو مظلوما .

(٤) أي تخالف ما اجتمع عليه عامة القوم .

(٥) جمع إحنة ، وهي الضيقة والمحد .

(٦) خلف أذني .

(٧) مجاهرني بالعداوة .

(٨) ساسة : جمع ساس ، وذادة : جمع ذائد .

بسلطان الله الذى أعطانا ونذود عنكم يبق. الله الذى خولنا<sup>(١)</sup>، فلنا عليكم  
السمع والطاعة فيما أحببنا . ولكم علينا العدل فيما ولينا . فاستوجبوا عدلنا  
وفيتنا بما صحتكم لنا . واعلموا أنه مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث :  
لست محتجياً عن طالب حاجة ولو أتاني طارقاً بليل . ولا حابياً عطاء ولا  
رزقاً عن إتيانه<sup>(٢)</sup> . ولا يجرأ لكم بعداً<sup>(٣)</sup> . فادعوا الله بالصالح لأثمتكم ،  
فإنهم ساستكم المؤذنبون . وكهفكم الذى اليه تأوون . ومتى تصلحوا يصلحوا ،  
ولا تشربوا قلوبكم بغضهم<sup>(٤)</sup> . فيشد لذلك غيظكم . ويطول له حزنكم ،  
ولا تدركوا حاجتكم . مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم .

أُسأل الله أن يعين كلاً على كل . وإذا رأيتموني أنفذ فيكم أمراً فأنفذوه  
على أذلاله<sup>(٥)</sup> . وإيم الله<sup>(٦)</sup> ؛ إن لى فيكم لصراعى . فليحذر كل منكم أن يكون  
من صرعاى .

فقام اليه عبد الله بن الأَهم فقال : أشهد أيها الأمير . لقد أوتيت الحكمة  
وفصل الخطاب . فقال له : كذبت . ذاك بنى الله داود صلوات الله عليه .  
فقام الأحنف بن قيس فقال : إنما الثناء بعد البلاء . والحمد بعد العطاء ،  
وإننا لن نثى حتى نبلى . فقال له : صدقت . فقام أبو بلال مرداس بن  
أدية من رؤساء الخوارج . فقال وهو يهمس : أبانا الله بغير ما قلت : قال  
الله تعالى : وإبراهيم الذى وفى . ألا تزرؤ وازرة وزرأ آخرى ، وأن  
ليس للإنسان إلا ما سعى . وأنت تزعم أنك تأخذ البرى . بذنب

(١) التوءم الخراج ، أو تظل ، ومعنى بقى . الله : بالخراج الذى جعل الله لنا حق جبايته والتصرف  
فيه ، أو بظل الله ونعمته . والأول أولى . خولنا : ملكنا .

(٢) عن وفته وزمانه .

(٣) تخيير قبوت معناه حبباً فى بلادهم . وعدم السماح لها بالعودة إلى بلادها .

(٤) لا تملأوا قلوبكم من بغضهم .

(٥) أى على وجوهه وطرقه كقوله أمرتم بها .

(٦) وإيم الله : دحق الله .

المسي . فسمعه زياد . فقال : « إنا لن نصل إلى الحق فيك وفي أصحابك حتى نخوض في الباطل خوفاً » .

هذه الخطبة دستور وضعه زياد ليعامل به أهل البصرة أولاً . ثم أهل الكوفة من بعدهم وهو دستور شديد عنيف . فهو إعلان للأحكام العرفية التي يلجأ إليها الحكام في أيام الفتن والثورات . فيصنعون القوانين الاستثنائية الصارمة التي يقصد منها تأديب العصاة . والعودة بالأمور إلى الحالة العادية ، التي يطمئن فيها الحاكم والمحكوم إلى القوانين العادية . وينزلون على حكمها عن رضى وطوعية .

ويحس القارىء أنها عنيفة . وأن ألفاظها سيّاط ألحبت بها زياد لظهور أهل البصرة فتركهم خيارى ذاهلين . وفيها خروج على قواعد العدل . فكيف يؤخذ البرىء بذنب المسيء والصحيح بالقيم . إلى آخر ما هنالك ؟ وعلى هذا اعترض أبو بلان مرداس بن أدية . فرد زياد بما يبرر هذه الشدة من شيوع الفساد والمخاذا في البصرة . كالبغى والفسق والسرقة والعصيات . ولكن زياداً كان منصفاً جداً ، فقد أجل التنفيذ حتى يعلم الناس جميعاً ، وأنخبر أنه سيتناسى الأحقاد الخاصة . وأنه سيفتح باباً لكل شك أو مظلوم . ولن يؤخر عطاء ، ولا يجهر بعثاً .

وقد كان عند وعده ووعيده . فاستقامت الأمور وصلحت . يقول الطبرى في تاريخه : « وكان زياد أول من شد أمر السلطان . وأكد الملك لمعاوية ، وألزم الناس الطاعة . ونقدم في العقوبة . وجرد السيف ، وأخذ بالظنة ، وعاقب على الشبهة . وخافه الناس في سلطانه خوفاً شديداً . حتى أمن بعضهم بعضاً . وكان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة ، فلا يعرض له أحد حتى يأق صاحبه فيأخذه . وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها » . وكان زياد يقول : « لو ضاع حبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه » .

ومما يدل على إنصافه أنه كان يؤخر العطاء ثم يصلى ويأمر رجلاً من

الناس أن يقرأ سورة البقرة أو مثلها ، . يرثل القرآن . فاذا فرغ أهل بمقدار ما يرى أن إنساناً يبلغ أقصى البصرة ، ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج ، فلا يرى إنساناً في شوارع البصرة إلا قتله ولو كان له عذر .

**المغيرة بن شعبان** : ومن استعان بهم معاوية المغيرة بن شعبان الثقفي . ولاء الكوفة ، كانت سياسته أرفق وألين من زياد . وقد خرج الخوارج عليه ، فدعاه رؤساء القبائل ، وتوعدوه ، وطلب منهم أن يمنعوا من يخرج من قبائلهم ، ومما قاله لهم : ليكفني كل امرئ منكم سفهاء قومه فوالذي لا إله غيره لأتحولن عما كنتم تعرفون إلى ما تتكفرون ، وعما تحبون إلى ما تكرهون . فلا يلم لائمه إلا نفسه ، وقد أعذر من أنذر . ولكن الرؤساء لم يستطيعوا أن يمنعوا الخوارج . وإن سكتوا إلى حين .

**البيضاء بن يزيد** : كبرت سن المغيرة وخاف أن يستبدل به غيره ، فوفد إلى معاوية . وزين له يعة يزيد كي يبقى عليه . ومما قاله لمعاوية : يا أمير المؤمنين : إن الأنفس ليفدى عليها ويراخ . ولست في زمن أبي بكر وعمر . فلو نصبت لنسا علما من بعدك نصير إليه ، فإني قد دعوت أهل العراق إلى يعة يزيد . فقال معاوية : يا أبا محمد . انصرف إلى عملك . ورم هذا الأمر لابن أخيك . وبهذا ضمن المغيرة بقاءه واليا على الكوفة إلى أن مات سنة ٥٠ هـ .

**زياد والي المعمرين** : فلما مات المغيرة ضم معاوية الكوفة إلى زياد ، وهو أول من جمعا له ، وظل زياد واليا عليها إلى مات سنة ٥٣ هـ بالطاعون . وسار فيها سيرته في البصرة ، ولكنه كان أخف بأسا من الذين ولوا من بعده . كابنه عبيد الله ، وكالحجاج .

صادفت مقالة المغيرة هوى في نفس معاوية . ولعله كان يفكر فيها من قبل . فلما سمع من المغيرة ما قال : امتلأت نفسه بالفكرة . وحاول إخراجها إلى الوجود . وأراد أن يهيئ الأذهان والنفوس لها . وأراد أن يستوثق من



أهل الأمصار فقال له المغيرة أنا أكفيك أهل الكوفة ، وزياد يكفيك أهل البصرة . وليس بعد هذين المصرين من يخالفك .

ورجع إلى الكوفة . وتحدث مع من يعلم أنهم شيعة لبي أمية ، فأجابوه إلى ما طلب . فأوفد منهم وفدا مع ابنه موسى إلى معاوية ، فزينوا له أمر البيعة ليزيد . فقال لهم : لا تعجلوا باظهار هذا . وكونوا على رأيكم .

وأرسل معاوية إلى زياد يستشير . فلم يوافق ولم يخالف ، وإنما أرسل إلى يزيد يطلب منه أن يكف عن أمور يكرها منه الناس كالتهاون والولع بالصيد . ففعل يزيد أكثر مما طلب منه زياد .

وحاول معاوية أن يجعل ليزيد منزلة عند المسلمين . ويقدمه في مهام الأمور فجعله قائدا لجيش وجهه إلى القسطنطينية ، وأراد أن يسير معه عبد الله بن عباس ، وتلطف معاوية في ذلك فقال لابن عباس : . إن أحببت أن تخرج مع ابن أخيك فيأمن بقربك ، وتشير عليه برأيك . . فأبى ابن عباس أن يخرج معه وأخفقت الحملة .

وكان معاوية حريصاً على أن يعرف اتجاه الرأي العام ، وبخاصة كبار الناس ، في بيعة يزيد ، وكان يحاول تهية الأمة لقبول هذه البيعة ، فإذا كان ليزيد بيعة في أعناق الناس لم يختلفوا عليه . وقد كان حبه ليزيد عظيماً ، ووجه للخلافة والسلطان عظيماً . كذلك وقد كان يزيد وحيد معاوية ، بعد أن تكل ابنين قبله فلعله أراد أن يضمن له البيعة والخلافة .

من ذلك أنه سأل ابن الزبير : ما ترى في بيعة يزيد؟ قال : يا أمير المؤمنين : إن أخاك من صدقك ، فانظر قبل أن تتقدم ، وتتكبر قبل أن تقدم . فضحك معاوية ، وقال : ثعلب زواغ .

وسأل الأحنف بن قيس ، وسأل غيره ، وفي سنة ٥٥ هـ كتب إلى الأمصار أن يفدوا عليه ، فوفد من كل مصر قوم ، وتكلمت وفود الأمصار

بعضها يدعو معاوية الى حسن الاختيار المجرد عن الهوى . وبعضها يؤيد البيعة ليزيد .

وأوعز الى الشعراء أن يهتوا الأذهان لذلك أيضاً . وقصيدة مكين الدرامي في ذلك مشهورة . ويقول فيها بمحضر من عبد الله بن عامر ومروان ابن الحكم وسعيد بن العاص .

ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر      ومروان أم ماذا يقول سعيد  
بني خلفاء الله مهلاً فإنيما      يبوئها الرحمن حيث يريد  
إذا المنبر الغرني خلاه ربه      فإن أمير المؤمنين يزيد

فلما فرغ منها قال معاوية : تنظر فيما قالت ونستخير الله يا مسكين . فلم يخالف أحد من الحاضرين .

ولكنه كان يخشى أبناء الصحابة وعرف أن الحسين بن علي وعبد الرحمن ابن أبي بكر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير خاصة لا يرون رأيه فيبيعة يزيد . فخرج الى الخيـجاز ، وقابلهم ورحب بهم . وسألم رأيتهم ، وكان ذلك في مكة ، فأجاب عنهم ابن الزبير برفض البيعة ، ولكنه خرج بهم الى البيت الحرام ووضع له منبر قرب الكعبة . ووكل بكل واحد منهم رجلين بسيفهما من أهل الشام . وخطب فقال : ان هؤلاء الأربعة قد بايعوا . فبايع الناس .

ثم نزل وارتحل الى الشام . وأخذ الناس يلوونهم ، وهم يقرعون أنهم لم يبايعوا . وانما سكتوا رهبة من السيوف المسلولة على رؤوسهم .

وطال عمر معاوية الى سنة ٥٦٠ هـ . ومات وأكثر المسلمين راضون عنه : طمعا أو خوفاً أو ولاء له ، والبلاد الاسلامية كلها تدين له بالطاعة والولاء .

## ٢ - يزيد

يؤثر التاريخ أن يتحدث عنه حديثاً مختصراً لأن حياته هـو كانت مختصرة .  
فقد حكم ثلاث سنين . ومات وهو فى التاسعة والثلاثين من عمره . ولكنه  
مات بعد أن وصم تاريخه بمحـوادث ثلاث جـرت عليه سـخط المسلمين .  
تلك هى :

قتل الحسين . وقعة الحرّة . رمى الكعبة .

( ١ ) قتل الحسين سنة ٤٠ هـ .

كان قتل الحسين بالعراق على يد جيش أرسله اليه عبيد الله بن زياد إلى  
تلك البلاد لمعاوية ثم ليزيد من بعده .

كانت حيلة معاوية التى سبقت الإشارة إليها — وهى أن يخبر أهل مكة  
بمبايعة الحسين وابن أبى بكر وابن عمر وابن الزبير ليزيد — سبياً فى بيعة  
الناس له . ولكن هؤلاء الكرام أبوها عليه . فلما حضرت معاوية الوفاة  
كتب ليزيد . وكان بعيداً عنه :

« وإني لست أخاف أن يثأرك فى هذا الأمر إلا أربعة نفر من قريش ،  
الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبى بكر . فأما ابن عمر  
فإنه رجل قد وقفته <sup>(١)</sup> العباد ، فإذا لم يبق أحد غيره بإيعك . وأما الحسين  
ابن على فهو رجل خفيف . ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه ، فإن خرج  
وظفرت به فاصف عنه . فإن له رحماً ماسة ، وحققاً عظيماً . وقرباً من  
محمد صلى الله عليه وسلم . وأما ابن أبى بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع  
مثله . ليس له همة إلا فى النساء واللّهو . وأما الذى يحشم لك جنوم الأسد .

( ١ ) غلبت عليه العباد حتى أنهكه .

ورأى مراغة الثعلب فذاك ابن الزبير . فإنه هو فعلها فظفرت به فقتلته  
إرباً إرباً<sup>(١)</sup> واحقن دماء قومك ما استطعت .

فلما مات معاوية لم يكن ليزيد هم إلا مبايعة هؤلاء الكرام لما يعمله من  
خطرهم . وهم منكرون لامامته . بسبب صحتهم وسابقتهم ودينهم ومنزلتهم في  
نفوس المسلمين . فأرسل إلى واليه على المدينة . الوليد بن عتبة بن أبي سفيان  
أن يرغمهم على البيعة .

أما ابن الزبير ففر إلى مكة عائداً بالبيت ، وكان لا يصل بصلاتهم ولا  
يفيض في الحجج بأفاضتهم . ولا يقف معهم في عرفات .  
وخرج بعده الحسين إلى مكة ومعه آل بيته إلا أخاه محمد بن الحنفية ،  
وكان الناس يختلفون إليه من الآفاق .

وعرف أهل الكوفة بموت معاوية فكتبوا إلى الحسين كتباً كثيرة ،  
فاستجاب لها ، وأرسل إليهم مسلم بن عمة عقيل ليتعرف أمرهم ، وكان والي  
الكوفة يزيد النعمان بن بشير الأنصاري . فلم يعرض لمسلم ولا لأصحابه بسوء ،  
فعزله يزيد وولى مكانه عبيد الله بن زياد أمير البصرة ، وأمره بطلب مسلم  
وقتل أو نفيه ، فظفر به عبيد الله وقتله بعد أن اغتدل عنه أكثر الذين دعوا  
الحسين إلى بلادهم .

وعزم الحسين على الخروج إلى العراق فنصح له ابن عباس ألا يخرج حتى يعلم  
أن الأمر هناك لأنصاره ، وأن الخراج بأيديهم ، وأنهم خلعوا عبيد الله  
ابن زياد . أو إذا كان لا بد من الخروج فليخرج إلى اليمن ، فإن بها شعباً  
وجبالاً ولأبيه فيها شيعة وأنصاراً ، وهي بعيدة عن مركز الخلافة ، وقال له :  
إن العراق قد خذلت أباه من قبله . فلما رأى من الحسين رغبة ملحة في  
الخروج إلى العراق نصح له أن يخرج وحده . ويترك نساءه وأولاده ، فلم  
يجمع لنصيحته .

(١) الأرب العنبر : أي قطعه عنقاً عنقاً .

وخرج يزيد العراق وقابله القرزدي الشاعر بالطريق — وكان القرزدي يتشيع — فسأله الخير فقال له : «قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بني أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء » .

ثم جاءه كتاب من ابن عمه عبد الله بن جعفر يقسم عليه لما انصرف ، ومعه كتاب أمان من عمرو بن سعيد وإلى المدينة ، ويسأله الرجوع ، فأبى . ثم قابله عبد الله بن مطيع فلما عرف غايته نصح له ألا يعرض نفسه للقتل ، فإذا قتله بنو أمية لم يدعوا لأحد بعده حرمة . فأبى .

ثم بلغه مقتل مسلم بن عقيل ، وعرض عليه أصحابه أن يرجع فثار بنو عقيل ، وأبوا إلا أن يسيروا ليدركوا ثأر أبيهم . فسار حتى نزل ، شراف ، فقابله جيش لعبيد الله بن زياد عليه الحر بن يزيد التيمي ، فأراد أن يعود إلى الحجاز ، فأبى عليه الحر حتى يقدم به على عبيد الله بن زياد بالكوفة . فأبى أن يقدم عليه ، وسار إلى شمال العراق ، فأرسل إليه ابن زياد جيشاً عليه عمر بن سعد ابن أبي وقاص ، فعرض الحسين أن يعود إلى الحجاز ، فكتب عمر بذلك إلى ابن زياد ، فرد عليه :

الآن إذ عرضت مخالفنا به برجو النجاة ولات حين مناص

وطلب منه أن يدعو الحسين إلى بيعة يزيد ، ثم يرى رأيه فيه بعد ذلك ، وأن يمنعه الماء هو ومن معه . فأبى الحسين أن ينزل على حكم ابن زياد ، فلم يكن إلا القتال . ولم يكن مع الحسين جيش ، فقتل هو ومن معه وكانوا قريباً من مائة ، وأخذ رأسه إلى ابن زياد ، وحمل معه بنات الحسين وأخواته وآل بيته ، وفيهم علي بن الحسين وهو صغير مريض . فأمر ابن زياد أن يحمل الرأس إلى يزيد بالشام ، ومعه النساء والصبيان ، وكان قتله في عاشر المحرم سنة ٦١ .

ويقال إن يزيد بكى عند ما علم بالخبر . وقال : لقد كنت أَرْضَى من ابن سمية — يعني عبيد الله — بدون هذا ، أما والله لو كنت صاحبه لعفوت عنه .

ويقال ان ابن زياد تنصل من التبعة، وقال : لولا أمر يزيد ما قتلته —  
 فرحم الله الحسين وجرى من غرروا به وأسلوه !  
 ويرى المرحوم الحضري أن خروج الحسين لم يكن صواباً، وظاهر من  
 كل ما تقدم أنه كان مخدوعاً في أهل العراق . ولم يستمع لنصيحة ابن عباس  
 ولا لنصيحة أخيه محمد بن الحنفية ولا لغيرهما من الناصحين . وأمن عرب  
 العراق الذين قتلوا أباءه وخذلوا أخاه ، وقد كانت طامعة في أعناقهم وهو  
 ليست له بيعة وإنما البيعة ليزيد .

وعلى كل فلم يكن قتل الحسين مما يشرف يزيد ، ولا مما ينفع ابن زياد  
 فقد جرّ على بني أمية عامة ، ويزيد خاصة لعنات وسخطا من المسلمين ، واستغلبها  
 الشيعة وآل البيت فوجدت آذاناً صاغية ، وقلوباً حاسنة ، فكانت مع غيرها  
 من أخطائهم سيئاً في ذهاب ملكهم .

#### وقعة الحرّة في ذي الحجة سنة ٦٣ هـ :

وهي وقعة عظيمة بين جيوش يزيد بقيادة مسلم بن عقبة المري . وبين  
 أهل المدينة بالجانب الشرقي منها ، عند مكان يقال له : « حرّة واقم » .  
 أما سببها فهو أن أهل المدينة ثاروا على يزيد في إمارة عثمان بن محمد بن  
 أبي سفيان بعد أن بايعوه ، وذهبوا إليه بالشام . وأعطاهم مئاة الألوف لهم  
 ولأولادهم . فبنا بلفته ثورتهم ومحاصرتهم لبني أمية في دار كبيرهم مروان  
 ابن الحكم تمثل بقول الشاعر :

لقد بدّلوا الحكم الذي في سَجِيَّتِي فبدّلْتُ قَوِي غِلْظَةَ بِلْيَانِ  
 وجاءهم مسلم بن عقبة في اثني عشر ألفاً ، وأمره يزيد أن يدعوهم ، فإن  
 أجابوا وإلا قاتلهم ، فإذا ظفر بهم أباح المدينة ثلاثاً . فدعاهم مسلم فأبوا ،  
 فحاربهم فهزمهم ، وأباح المدينة ثلاثة أيام للسلب والقتل وهتك الاعراض .  
 وهذه ثانية العظائم التي سودت تاريخ يزيد . كيف يستبج هذا البلد



الظاهر ، ويعتدى جنوده بأمره على بنات الأنصار ونسائهم اعتداء محرماً ، وهؤلاء هم الذين آووا ونصروا . وأحبوا من هاجر إليهم ، وآثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ؟ ولست هذا فقط ، بل إن يزيد تمثل عندما بلغه انتصار جيشه بقول ابن الزبيرى فى أحد :

لست أشياخى يدر شهودوا <sup>بـ</sup> جزع الخزرج من وقع الأسل  
لعل أهل المدينة كانوا مخطئين فى نقض البيعة بعد أن بايعوا وأخذوا  
عطاء يزيد . ولكن للإسلام حدوداً فى معاملة المغلوبين فى الحرب من  
المسلمين فلم لا يلتزمها يزيد ، وقد كانت له فى رسول الله أسوة حسنة إذ دخل  
مكة فاتحاً ، فعفا عن أجداد يزيد هذا ، وقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء .  
وما هذه العصية الجاهلية من خليفة المسلمين ؟ يتمثل بقول ابن الزبيرى  
وهو يتشقى من المسلمين ؟ أما كان يكفيه ما كان من جده يوم أحد إذ قال :  
يوم يوم بدر ؟

رمى السكبة سنة ٦٤ هـ :

أمر يزيد جيشه أن يتقدم إلى مكة ليخلصها من ابن الزبير ، وقد كان  
ابن الزبير ساكناً طول إقامة الحسين بمكة فلما خرج عنها إلى العراق رأى  
أن الجو قد خلا له ، فدعا الناس إلى بيعته والخروج على يزيد ، فسار إليه  
جيش يزيد بعد وقعة الحرة وكان قائده مسلم بن عقبة المرمى مات قبل أن يصلها ،  
وخلفه على الجيش رجل يقال له : الحضير بن نمر ، فسار إلى مكة فبلغها فى  
أواخر المحرم سنة ٦٤ هـ وخرج ابن الزبير لملاقاته . فانتصر جيش الشام ،  
ورجع ابن الزبير إلى مكة عائداً بالبيت ، فنصب أهل الشام المجائق على جبل  
أبى قيس وقعيقعان ، ورموا السكبة بالحجارة الثقيلة حتى أصابها بعض  
الوهن . ولم يكن أحد يستطيع أن يطوف بالبيت خشية أن تصيبه الحجارة .  
فأقام ابن الزبير ألواحاً من ساج تسمى البيت ، فكانت الحجارة تقع عليها  
وتدبر عنه . ونصب فى الحرم خياماً ، فأخذ رجل من أهل الشام ناراً وألقاها

على هذه الخيام ، فطار منها شرر ووقع على الكعبة فاحترق السقف ، وانصدع الركن واحترقت الأستار ، ونساقطت على الأرض ، وعرف ابن الزبير في أثناء ذلك بموت يزيد قبل أن يعرفه أهل الشام .

وقصة معرفته بذلك طريفة لا بأس من إيرادها :

« كان ابن الزبير جالسا يوما مع أهل مكة في جانب الحجر وأهل الشام يرمونهم بالنبل والحجارة ، فوقعت نبله بين يديه ، فقال : في هذه خبر ، فأخذها فوجد فيها مكتوبا . مات يزيد بن معاوية يوم الخميس لأربع عشرة خات من ربيع الأول . فلما قرأ ذلك قال : يا أهل الشام . يا أعداء الله ومحرق بيته . علام تقاتلون وقد مات طاغيتكم ؟ فقال الحضيض بن نمير . موعذك البطحاء الليلة يا أبا بكر ... وهي كنية ابن الزبير — فلما كان الليل خرج ابن الزبير بأصحابه وخرج حضيض بأصحابه إلى البطحاء . ثم انقردا ، فقال حضيض : يا أبا بكر . أنا سيد أهل الشام لا أدافع ، وأرى أهل الحجاز قد رضوا بك . فقال أبايعك الساعة . ويهدر كل شيء أصبنا يوم الحرة ، وتخرج معي إلى الشام فاني لا أحب أن يكون الملك بالحجاز . فرفض ابن الزبير ، وقال : والله لا أفعل ولا آمن من أخاف الناس ، وأحرق بيت الله ، وانتكح حرمة .

قال الحضيض : بلى فافعل . على ألا يختلف عليك اثنان !

فأبى ابن الزبير . فقال له الحضيض . والله لا تغلح أبدا . ووقف القتال وانصرف الحضيض إلى الشام هو وجنوده .

أكان لابن الزبير جواسيس في أهل الشام فأخبروه بموت يزيد في كتاب معلق بتلك النبله التي وقعت بين يديه ؟ لا دليل على هذا ، ولعل التعليل القريب من العقل . أن هؤلاء الناس قد كرهوا أمراءهم ، ورأوا أن يزيد لم يترك بعد موته خلفا يصلح لأمر الخلافة . وظنوا أنهم إن فعلوا ذلك مع ابن الزبير فربما كانت هذه بدا يحفظها لهم ، ويكرمهم بسببها بعد .

أما خروج ابن الزبير على يزيد فلا غرابة فيه ، وموقفه أسلم من موقف الحسين ، فهو لم يبايع ، ولم يخرج على يزيد حتى وثق من أصحابه ، وكان خروجه في بلده ، وله أنصار وأعوان فيه ، والمكان نفسه حرم آمن جعله الله قياما للناس وأمانا ، فمن انتهك حرمة فقد عرض لنفسه لسطح الناس — وسخط الله أعظم — وصرف القلوب عن نصرته وقد يصرفها عن بيعته كذلك ، ولكن أهل الشام كانوا لا يخفون ، أو كانوا يتأولون ، فحاربوا ابن الزبير في مكة ، ولم يكتفوا بهذا بل رموا الكعبة حتى صدعوها ، واحترقت .

والحضيض ابن نمير دعا ابن الزبير إلى الشام ، فهل كان ابن الزبير مخطئا في رفض دعوته ؟ الشام مقر بني أمية والولاء فيها فم فكيف يأمن ابن الزبير المقام بين أعدائه ؟ وكيف يثق بعدو كان يحاربه ويطلب دمه ؟ ولم يخرج عن الحجاز وهو يتخذ من البيت وقاية وحماية ؟ ولم لا تعود خلافة المسلمين إلى الحجاز ، وقد نشأت أول أمرها فيه ؟ لعل كل هذه الأسئلة كانت تدور بخلد ابن الزبير عند ما رفض دعوة الحضيض ولم يثق به ، وهو على صواب إلى حد كبير .

وابن الزبير صحابي جليل ، وأبوه الزبير بن العوام حواري رسول الله وأحد المبشرين بالجنة . وجدته صفية عمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجده الصديق رضي الله عنه ، وأمه أسماء ذات النطاقين ، وخالته عائشة أم المؤمنين . وليس بالحجاز من كبار الصحابة من يطلب هذا الأمر لنفسه ، فالحسين قد قتل وابن عباس وابن عمر وابن الحنفية قد بايعوا لبني أمية من قبل ، وبايعوا ليزيد ، وكل هذا يقوى موقفه ، وثبت قدمه في الخلافة ، وفي الحجاز بوجه خاص .

ولكن بعض المؤرخين يرون في رفضه دعوة الحضيض خطأ لأنه كان يجب أن يستغل الظرف ، ويذهب إلى الشام لأنها أصلح من الحجاز لخيراتها ، وكثرة أهلها ، وتوسطها بين البلاد الإسلامية ، مما يسهل تموين الجيوش منها

وسرعة انتقالهم الى غيرها من الاقطار الإسلامية اذا دعت الحاجة .  
وعلى كل فقد رضى ابن الزبير عن الحجاز ، وكان له فيها شأن عظيم ،  
امتد حتى كاد يشمل البلاد الإسلامية كلها . ثم تراجع نفوذه وسلطانه ثم  
زال على يد الحجاج والملك فنه يوثيه من يشاء .  
هذه الحوادث الثلاث وصمت تاريخ يزيد وما زال موضع سخط كثير  
من المسلمين من أجلها إلى الآن .

#### معاربة النابى :

ولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه وكان شابا بعد العشرين بقليل ولكنه فيما  
يروى التاريخ كان زاهدا وكان ضعيفا لا يرى نفسه أهلا للخلافة فتنازل عنها  
وأبى أن يولى أحدا ، وترك الأمر للمسلمين ؛ ثم مات بعد ثلاثة أشهر من خلافته  
سنة ٦٤ هـ .

### ٣ — سلطان ابن الزبير

كانت الامور تجري باليمن لابن الزبير ؛ ولكنها صارت إلى ابني أمية فيما بعد وذهب ملك ابن الزبير بعد أن كان يشمل الحجاز والعراق ومصر . وكانت الشام توشك أن تباع له ولكن دولته ذهبت لما لقيه من جد عائر . فقد كان له شأن مع الخوارج : والشيعة في العراق ، والأمويين في الشام : وانتهى ذلك كله بزوال سلطانه وقتله ، وقيام دولة بني مروان .

#### بين وبين الخوارج :

لما ذهب مسلم بن عقبة إلى المدينة وتوقع الخوارج أن يسير بعدها إلى مكة لحرب ابن الزبير خرجت جماعة منهم بزعماء نافع بن الأزرق ونجدة بن عامر الحنفيين وقالوا : يجب أن نذهب إلى مكة ، ونمنع حرم الله ، ونمتحن ابن الزبير . فإن كان على رأينا بايعناه . ثم جاموه وقالوا له :

« إنا جئناك لنخبرنا رأيك ، فإن كنت على الصواب بايعناك . وإن كنت على غيره دعوناك إلى الحق » . ثم سألوه عن أبي بكر وعمر . فقال : خيرا ثم قالوا : « فما تقول في عثمان الذي أحى الحنبي ، وآوى الطريد ، وأظهر لأهل مصر شيئا وكتب بخلافه ، وأوطأ آل أبي معيط رقاب الناس <sup>(١)</sup> . وآثرهم بنو المسلمين <sup>(٢)</sup> ؟ وفي الذي بعده الذي حكم الرجال في دين الله <sup>(٣)</sup> . وأقام على ذلك غير نائب ولا نادم ؟ وفي أيك وصاحبه وقد بايعا علياً وهو إمام عادل

(١) يقتضون بذلك فوليد بن عقبة بن أبي معيط وقد رآه عثمان فكفوه .

(٢) خصم بأموال الخوارج .

(٣) يقتضون بذلك علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . ويشيرون إلى قبيله الاحتكام إلى كتاب الله ، ليحكم بينه وبين معاوية . والغريب أن الخوارج هم الذين حلوه على ذلك . بعد أن بين لهم أنها خدعة من معاوية .

مرضى لم يظهر منه كفر ، ثم نكثا بعرض من أعراض الدنيا ، وأخرجا عائشة تقاتل ، وقد أمرها الله وصواحبها أن يَقَرْنَ<sup>(١)</sup> في بيوتهن ، وكان في ذلك ما يدعو إلى التوبة ؟ فإن أنت قلت كما نقول فلك الزلْفَةُ عند الله والنصر على أيدينا ، ونسأل الله لك التوفيق . وإن آيت إلا نصر رأيك الأول . وتصويب رأيك وصاحبه . والتحقيق بثمان ، والتولى في السنين الست التي أحلت دمه . ونقضت بيعته . وأفسدت إمامته خذلك الله . وانتصر منك بأيدينا .

فقال ابن الزبير : ابن الله أمر — وله العزة والقدرة — في مخاطبة أكفر الكافرين . بأرأف من هذا القول . فقال لموسى وأخيه صلى الله عليهم في فرعون : « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَسَيْنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى . » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تؤذوا الأحياء بسبِّ الموتي . » فبهى عن سب أبي جهل من أجل عكرمة ابنه . وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول . والمقيم على الشرك ، والجاد في المحاربة والمتبعض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة . والمحارب له بعدها . وكفى بالشرك ذنباً .

وكان يخفيكم عن هذا القول الذي سميت فيه طلحة وأبي أن تقولوا : أتبرأ من الظالمين ؟ فإن كانوا منهم دخلا في غمار<sup>(٢)</sup> الناس ، وإن لم يكونا منهم لم تحفظوني بسب أبي وصاحبه . وأنتم تعلمون أن الله جل وعز قال للذين في أبويه : « وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا . » وقال جل ثناؤه : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا . » وهذا الذي دعوتم إليه

(١) يقعدون ، ويقيمون بهذا إلى خروج عائشة إلى شراق . وقد انتهى هذا الخروج برهة أجل .

(٢) غمار بالضم والفتح جماعة تناس .

أمر له ما بعده ، وليس يقنعكم إلا التوقيف والتصریح . ولعمري إن ذلك أحرى يقطع الحجج . وأوضح لنهاج الحق ، وأولى بأن يعرف كل صاحبه من عدوه ، فروحوا إلى من عشتكم هذه ، أكشف لكم ما أنا عليه إن شاء الله .

فلما كان العشي راحوا إليه . فخرج إليهم وقد لبس سلاحه . فلما رأى ذلك نجدة بن عامر قال : هذا خروج مُنْأَبَذٌ <sup>(١)</sup> لكم . فجلس على رفيع من الأرض . فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم ذكر أبا بكر وعمر أحسن ذكر . ثم ذكر عثمان في السنين الأوائل من خلافته ، ثم وصلين بالسنين التي أنكروا سيرته فيها . وخبر أنه آوى الحكم بن أبي العاص بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذكر الحنيفة وما كان فيه من الصلاح ، وأن القوم استعبوه <sup>(٢)</sup> من أمور . وكان له أن يفعلها أولاً مصيداً ، ثم أعقبهم بعد محناً . واستمر في دفاعه عن عثمان وسكت عن علي ، ثم دافع عن أبيه وطلحة فقال :

« وأبي وصاحبه صاحباً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله يقول عن الله تعالى يوم أحد لما قطعت إصبع طلحة : « سبقتني إلى الجنة » . ثم قال : والزيير حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوته . وقد ذكر أنهما في الجنة . وبين لهم بعد ذلك أن الله رضى عنهم يوم بيعة الرضوان <sup>(٣)</sup> ، وأنه لم يخبرنا أنه سخط عليهم بعد ذلك . ثم يقول :

« فإن يكن ما سعوا فيه حقاً فأهل ذلك . وإن يكن زلة ففي عفو الله

(١) منأبذ : مكثف بالدوازة .

(٢) طلبوا منه أن يرهبهم فأرضاهم .

(٣) بيعة الرضوان : خرج صلى الله عليه وسلم في سنة ٦ من الهجرة معتزلاً فأبى فريش عليه دخول مكة . فأرسل سيدنا عثمان ليبلغهم أنه جاء معتزلاً معظماً لقيده لا محاربا . فحبس فريش سيدنا عثمان ، فراجع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه . بيعة الرضوان : تحت نخلة الرضوان على ألا يرجعوا حتى يحاربوا فريشا . ثم تبين له بطلان الخبر وسأخ فريشا صلح الخديجة الذي قُتل فيه سورة الفتح .

تمحيصها<sup>(١)</sup> ، وفيما وفقهم له من السابقة مع نبيهم صلى الله عليه وسلم ، ومهما ذكرتموها فقد بدأنتم بأمكم عائشة رضى الله عنها ، فإن أبى أن تكون له أمّاً نبد اسم الايمان عنه . قال الله جل ذكره وقوله الحق « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم » .

فلما أتم كلامه عرفوا أنه لا يرى رأيهم ، فانصرفوا عنه وتركوا مكة وساروا إلى العراق ، وزلوا البصرة ، ثم أمروا عليهم نافع بن الأزرق ، ثم تحولوا عنها إلى الأهواز وأثاروا حروباً وجدلاً . ورأوا في الدين آراء ، ثم اختلف نافع ونجدة فصار نجدة إلى الإمامة .

واستمرت جماعة نافع تحارب حتى أصابها المهلب بن أبي صفرة إصابات قاتلة في معارك كثيرة . وقتل نافع بالأهواز في يوم دولا ب سنة ٦٥ هـ .

#### ابن الزبير والمختار :

كان المختار بن أبي عبيد الثقفي يثني ، ولعله كان من كاتب الحسين في خلافة يزيد ، وكان بالعراق عند مقتل مسلم بن أبي عقيل ، فتمرد وأظهر الشر ، فخافه عبيد الله بن زياد فحبسه ، ولكن عبد الله بن عمر بن الخطاب — وكان زوجاً لأخت المختار — شفع له عند يزيد فأطلق سراحه .

وخرج المختار من سجن ابن زياد فوجد الحسين قد قتل ، ولم يبق أمامه من يرجو أن يحقق له أطامعه إلا ابن الزبير — وكان المختار طموحاً راغباً في العظمة والسلطان — فذهب إليه بمكة لعله يوفق معه .

ولم يستطيع في أول أمره أن ينال ثقة ابن الزبير ، فخرج المختار إلى الطائف ، ومكث بها سنة ، ثم عاد إلى مكة ، فدعاه ابن الزبير إلى بيته ، فقال المختار : أبايعك على ألا تقضى أمراً دوني . وعلى أن أكون أول داخل ، وإذا ظهرت فاستمن بي على أفضل عملك .

(١) أن ينظر لصاحبها .



فأبى ابن الزبير أن يبايعه إلا على سنة الله ورسوله .

فقال المختار : وَشَرُّ غُلَبَانِي تَبَايَعَهُ عَلَى ذَلِكَ . ثم أبى أن يبايع ونزل ابن الزبير عند رغبته ، فشهد معه قتال الحَضَنِينَ بنِ نَمِير ، وكان من أشد الناس عني جند الشام ، ولكنه مكث مدة وابن الزبير لا يوليه عملاً فخرج إلى العراق مطالباً بدم الحسين . وكان له شأن مع عبيد الله بن زياد ومع مصعب ابن الزبير كما سيأتي :

---

## الأمير في العراق والشام

### ١ - في العراق :

مات يزيد الأول سنة ٦٣ هـ والوالى على العراق هو عبيد الله بن زياد ، فلما سمع بنعيه جمع الناس في مسجد البصرة ثم خطب فيهم فذكر فضله في استبانت الأمن وزيادة الجيش ، وذكر موت يزيد واختلاف الناس ، ودعاهم أن يختاروا لدينهم وجماعتهم رجلا يرضونه ، أو يصبروا حتى يروا ما يفعل أهل الشام .

وأرادوا بيعته فأبأها عليهم ثلاثا ثم رضى ، ولسكنهم لم يكادوا يخرجون من عنده حتى مسحوا أيديهم من بيعته ، وقالوا : أياظن ابن مرجانة أنا تنقاد له ؟ أما أهل السكوفة فأبوا بيعته ، وكانوا أكثر تشيعا ، فلما علم بذلك أهل البصرة خلعوه ، وظهرت الدعوة إلى ابن الزبير فاستجاب لها كثير من الناس ورأى ابن زياد أن حياته أصبحت في خطر فاستجار بالحارث بن قيس الأسدي حتى سنحت له فرصته فهرب إلى الشام ، وكان له شأن في إقامة مروان بن الحكم خليفة في الشام .

وكتب أهل المصرين بالبيعة إلى ابن الزبير فأرسل إليهم العمال من عنده وكذلك دخل في بيعة ابن الزبير أهل مصر . بعد تنازل معاوية الثاني ، ولم يبق إلا الشام .

### ٢ - في الشام :

مات معاوية الثاني ، وأمير دمشق الضحاك بن قيس ، وأمير حمص النعمان بن بشير وأمير قنسرين زفر بن الحارث الكلابي ، وهو أهم جميعا في ابن الزبير ، وكان أمير فلسطين حسان بن مالك بن بجدل الكلبي ، وهواه في بني أمية . فجمع إليه من يرون رأيه ، وفكروا في الأمر ، وعرفوا أن الناس يأبون

تولية غلبان عليهم في الشام وخشوا أن ينتقل الملك من الشام إلى الحجاز ، وفكروا في عمرو بن سعيد فرأوه صغير السن وفي خالد بن يزيد بن معاوية فرأوه صغيراً .

ونظروا فوجدوا مروان بن الحكم شيخ بني أمية وأكبرها ، ولكنه لم يكن بينه وبين أهل الشام صلة متينة لأنه كان يقيم أكثر وقته بالمدينة والياً عليها أو معزولاً عنها وكان يرى أن أمر ابن الزبير قد عظم ، لحمله ذلك على أن يفكر في البيعة لابن الزبير . ولكن نشاط حسان بن مالك الكلابي ورغبته في أن تكون الخلافة لبني أخته من ذرية يزيد بن معاوية جعلت الأمور تجري مجرى آخر ، فلما رأى رغبة الناس عن هؤلاء الشبان كف عن التفكير في أمر خالد ، وإن كان قد بقى على رأيه في بني أمية . وكتب إلى الضحاك وإلى أهل دمشق يعظم حق بني أمية ويذم ابن الزبير . فاشتد ساعد بني أمية وأنصارهم من كلب في دمشق .

وجاء عبيد الله بن زياد في ذلك الوقت إلى الشام هارباً من العراق ، وكان يفكر في الأمر ، فلما رأى هذا الاختلاف أراد أن يجمع أمر بني أمية وأنصارهم فدعا لمروان بن الحكم وخالد بن يزيد من بعده ، فأرضى بذلك أنصار خالد ، وتخلص من الصعوبة القائمة في سبيله بحجة أنه صغير . وانفقوا على ذلك ، وتمت البيعة لمروان في مؤتمراً الجاية ، ( سنة ٦٤ هـ في ذي القعدة ) . رأى مروان وأعوانه أن يسيروا بجمعهم إلى دمشق — مركز الخلافة — ليخلصوها من الضحاك ، وخرج الضحاك بجموعه قتل « مرج راهط » والتقت الجيوش فقتل من قيس وأعوانهم عدد عظيم ، ومات الضحاك نفسه في المعركة سنة ٦٥ هـ في المحرم ، ودخل مروان دمشق ، ونزل بدار معاوية ابن أبي سفيان .

ولما بلغ أمر هذه الهزيمة النعمان بن بشير وإلى حمص هرب فقبضه جماعة من أهلها عن كانوا يميلون إلى بني أمية فقتلوه .

وهرب زفر بن الحارث والى قنسرين ، ونزل بقرقيسيا في شمال العراق ، وغلب عليها وتحصن بها . وظل بها حتى صالحه عبد الملك . بعد أن أعياه أمره في ميدان القتال .

أما هزيمة الضحاك في « مرج راهط » فكانت خديعة وغشاً ، فقد كان في ستين ألفاً . وكان مروان في ثلاثة عشر ألفاً . فرأى عبيد الله بن زياد المخادعة وأفضى بذلك إلى مروان فوافقه . فأرسلوا إلى الضحاك بالموادعة ، فظنهم قد عدلوا عن رأيهم . وأرادوا البيعة لابن الزبير . ولكنه لم يكند يطمئن اليهم ويلقى سلاحه هو وجنوده حتى ثارت بهم جنود مروان ، واستمرت المعركة زمناً . وكانت عاقبتها ما قدمنا . وقد خلفت ثارات وإحنا بين قبائل العرب . وأهم ذلك ما كان منها بين قيس ، رهط الضحاك . و « وكتب » رهط حسان بين مالك .

ولما تم الأمر لمروان الأمر بالشام سار إلى مصر فافتحها . وبايعه أهلها ، ثم عاد إلى دمشق .

لم يكن مروان يخشى إلا خالد بن يزيد ، وكان يميل إلى جعل الخلافة لابنه عبد الملك من بعده ، فأشار عليه مشيروء أن يتزوج من أم يزيد ليذل نفسه ففعل ، وقالوا إن مروان كان يفحش في سبابه ، فشم خالد بن يزيد يوماً على ملائم الناس . شتمة عرض فيها بأمه . فدخل يزيد عليها وهوييكي . فطبيت خاطره ، وقالت له : لا عليك . فإنه لا يعود إليك بمثلها . ويقال إنها أمرت الجوارى بقتله وهو نائم عندها ففعلن .

وروى أن عبد الملك لما ولي الخلافة : قاله لعاتكة أم خالد : لولا أن يقول الناس إنى قتلت امرأة بأبى لقتلتك بأمير المؤمنين .

ولم تطل مدة مروان في الخلافة فقد مات في رمضان سنة ٦٥ هـ وولى الأمر من بعده ابنه عبد الملك .

ونسمع لأول مرة باسم الحجاج في التاريخ في عهد عبد الملك . وذلك في قصة خروجه لحرب زفر بن الحارث التي تقدمت في أول صفحة من هذا الكتاب .

ولم يكن عيد الملك عاملاً الذكر ، ولا بالذي يفغل أمره عن الكلام عن بني مروان ودولتهم ، وما كان فيها من أحداث وسياسة وأدب ، وحرب وإصلاح ، ولكنني مضطر إلى الحديث عنه حديثاً مختصراً ؛ إذ ليس الكتاب خاصاً به . ولا مؤلفاً من أجله .

## ٤ — عبد الملك

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم . ولد سنة ٢٦ هـ بالمدينة . ولما شب كان عاقلاً حازماً أديباً وكان معدوداً من فقهاء المدينة ، يُقَرَّنُ بسعيد بن المسيب . وعروة بن الزبير . وقال الشعبي ، ما ذاكرت أحداً إلا وجدت لي فضلاً عليه . إلا عبد الملك . فإني ما ذاكرته حديثاً إلا زادني فيه ، ولا شعراً إلا زادني فيه .

وسيمر بنا في أثناء الحديث عن الحجاج كثير من البراهين على صدق الشعبي في حكمه على عبد الملك . وكان معدوداً من الفصحاء الخطباء ، والرواة للأشعار . وأصحاب الذوق في الشعر ونقده . ورابع أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل .

ولي الخلافة بعد أبيه بعد منه ، وكانت الأمور مضطربة عليه . فليس له من الأمر شيء في غير مصر والشام . والشام نفسها كان فيها من ينفس عليه ويود ذهاب سلطانه . ويحاول خلعها . وهو عمرو بن سعيد . وكان جنوده في تمرد . وسوء طاعة . كما سبق في أول الكتاب . حتى شكوا ذلك إلى روح ابن زبياع فدله على الحجاج . فألزمهم طاعته . وأديبهم فأحسن أديبهم .

كان يشغله أمر عمرو بن سعيد بن العاص بالشام .  
وأمر الشيعة والخوارج وأنصار ابن الزبير بالمراق .  
وأمر ابن الزبير نفسه بالحجاز .

بنو ديين عمرو بن سعيد :

أما عمرو بن سعيد هذا فهو ابن عم مروان بن الحكم . وكان فصيحاً خطيباً ، وكان طموحاً . اتجهت إليه الآراء قبل مروان بن الحكم في مؤتمر الجالية لولا صغر سنه .

وقد ولاد مروان أمر جيش لحارية ابن الزبير عندما أرسل هذا أخاه مصعباً ليفتح الشام . فبزمه عمرو بن سعيد . ويقال إن مروان قد عهد بالخلافة اليه بعد خالد بن يزيد . ثم خلعهما وولى عبد الملك .

وفي سنة ٦٥ هـ أراد عبد الملك أن يلحق بزر بن الخثعم في قرقيسيا ، بعد أن استعصى أمره على جيش لمروان بقيادة عبيد الله بن زياد . وكان يخشى عمرو بن سعيد وعمره . فأخرج معه من كان يخافهم ومنهم عمرو بن سعيد . ويقال إنه لما أخذ في جهازه والاستعداد للخروج أقبلت زوجته عائكة بنت يزيد بن معاوية في جواربها . وقد تزينت بالخلى فقالت : يا أمير المؤمنين : لو قعدت في ظلال ملكك . وبعثت اليه كلباً من كلابك لكفأك أمره . فقال : هيهات ! أما سمعت قول الأول :

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار  
فلما أتى عليها وعزم . بكّت . وبكى معها جواربها . فقال عبد الملك .  
قاتل الله ابن أبي ربيعة (١) ! كأنه ينظر أينما حيث يقول :

إذا ما أراد الغزو لم تكن همه حصان (٢) عليها نظم غزيرتها  
هتته فلما لم تر الهوى عاقه بكّت فبكى ما شحاها قسطنطينها (٣)  
ثم خرج فلما كان على ثلاث مراحل من دمشق عاد عمرو بن سعيد بعدد من الجيش فعاد عبد الملك وراعه . فوجده قد استولى على المدينة وعلى بيت المال . وجمع الناس وخطب فيهم . فحاصره عبد الملك . ثم صالحه على أن يكون له الأمر من بعده . ولكن عبد الملك الذي كان يريد الخلافة لابنه . ويفضله على أخيه . ما كان يرضى أن تذهب إلى قرع من بني أمية بعيد منه . فلما أطمأن اليه عمرو غدر به وقتله . ويقال إن هذا أول غدر حدث في الاسلام .

(١) يرى صاحب الآمان أنه كان حارباً غزال مصعب . وقال : قاتلته كثيراً . وهذا تكون نسبها إلى كثير عند صاحب الآمان .

(٢) الحصان : القفيلة . (٣) القطين : الحمار .

وقد قال له عبد الملك لما أراد قتله : إني لو علمت أنك تبق ويصلح ملكك لفديتك بدم الناظر ، ولكن قلما اجتمع خلان في خود <sup>(١)</sup> إلا عدا أحدهما على الآخر ، ثم أدرج في بساط وأدخل تحت السرير ، ودعا عبد الملك قبيصة ابن ذؤيب الخزاعي ، فسأله رأيه في عمرو بن سعيد . فلما لمح الرجل قدم عمرو تحت السرير قال : اضرب عنقه يا أمير المؤمنين ، فقال له قد فعلت فقال له الخزاعي : اطرح رأسه واثق الدنانير على الناس يتشاغلون بها ، ففعل عبد الملك وتفرق الناس وبخاصة أعوان عمرو ، وهرب أخوه يحيى بن سعيد إلى ابن الزبير بمكة .

ومما يرويه صاحب العقد أن عبد الملك أرسل إلى رجل من خاصته وكان يستشيريه ويصدر عن رأيه إذا ضاق عليه الأمر . فقال له : ما ترى ما كان من فعلي بعمرو بن سعيد ؟ قال : أمر قد فات ذرؤك . قال : لتقولن : قال : حَزْمٌ لو قتلته وحييت أنت . قال : أولست يحيى ؟ قال : هيهات ! ليس يحيى من أوقف نفسه موقفا لا يوثق منه بعهد ولا عقد .

ولما بلغ ابن الزبير مقتل عمرو بيد عبد الملك صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إن عبد الملك بن مروان . قتل لطيم الشيطان <sup>(٢)</sup> . وكذلك نَوَلِيَّ بعضَ الظالمين بعضاً مما كانوا يَكْبُونُ .

وقد يرى المؤرخ في عمل عبد الملك كراهى مستشاره فيه ، ويرى الغدر قبحاً ، لكن ماذا كانت يكون لو أبقى عليه عبد الملك ؟ الذين يعتذرون لعبد الملك يرون في فعله قطعاً لجذر من جذور الفتنة قبل أن يشمو ويتفرع ، ولكنه غدر على كل حال .

(١) القود الجماعة من الإبل من ثلاث إلى عشر . وهو متزايد . والمقصود : لا يجتمع غلمان في جماعة إلا عدا أحدهما على الآخر .

(٢) لطيم الشيطان . لقب سوء العمور بن سعيد . وذلك بسبب سر كان له . ولعلهم اغتروا أن الشيطان نظمهم فأماله .



## العراق في أول عهد عبد الملك :

( ١ ) الشيعة والمختار : قدمنا أن الحسين قتل بالعراق في زمن يزيد ، وأن أهل العراق ندموا على خذلانه . فأرادوا الثأر له من ابن زياد ، وكان زعيم تلك الجماعة هو سليمان بن صرد الخزاعي ، وهو صحابي - وقد سموا أنفسهم « التوابين » . ولكنهم كانوا يرون ذلك أمراً صعباً ، ويرون الاناة والتريث حتى تحين الفرصة لأن قتل الحسين من الأشراف ، ولا طاقة للشيعة التوابين بحربهم .

فلما وصل المختار حاول أن يضم الشيعة إليه ، وجعل يبين لهم أن سليمان ابن صرد لا علم له بالحرب . وأنه هو الذي سيقصص للحسين . وكان المختار جريئاً مغامراً فصيحاً شجاعاً . ففضله بعض الشيعة على سليمان بن صرد ، ولكن أكثرهم كانوا مع سليمان فناروا بالمختار وحبسوه .

أما سليمان فرأى الفرصة سانحة بعد هرب ابن زياد . فجمع جموعه ، وسار بهم إلى شمال العراق في ربيع الأول سنة ٦٥ وأرسل مروان جنداً بقيادة ابن زياد . فالتقى الجيشان في « عين الوردة » فقتل سليمان وهزم جنده ، فعادوا إلى الكوفة ، فكتب المختار من سجنه إلى من بقي منهم بمنهم ويشرهم ، ويخبرهم أنه رسول محمد بن الحنفية إليهم ، وأنه يدعو إليه . فكثرت أنصاره وأخرجوه من السجن ، فخرج أولاً على عبد الله بن مطيع وإلى الكوفة لابن الزبير وطرده ، وجعل نفسه أميراً باسم محمد بن الحنفية . وقتل كثيراً من قاتلي الحسين . وساعده على هذا النجاح أن محمد بن الحنفية لم يبيع ابن الزبير ، وبلغه أن جيش ابن زياد قد ترك حصار زفر بن الحارث في قرقيسيا بعد أن حاصره سنة . ولم ينجح ، وسار إلى الموصل . فأرسل إليه المختار جيشاً من الكوفة بقيادة إبراهيم بن الأشتر . والتقى الجيشان على نهر الحازر ، فقتل عبيد الله بن زياد والحسين بن نير الذي تقدم ذكره في حصار مكة

ورمى السكبة . وقطع رأس ابن زياد وأرسل إلى علي زين العابدين  
ابن الحسين . ويقال إنه وصل إليه وهو يتغدى . فلما رآه قال : سبحان الله !  
لقد ادخل رأس أبي علي ابن زياد وهو يتغدى كذلك !

#### مصعب في العراق :

كان انتصار المختار على ابن زياد ميّاضاً أن عظم أمره بالعراق وزاد  
خطره . وخشى ابن الزبير أن يطرد من بقي له من العمال هناك . وكان المختار  
يتولى بنى هاشم ويدعو لمحمد بن الحنفية . ويصفه بصفات لا يرضاها ابن  
الحنفية نفسه . ومن أشهر عبادته القول بعودة محمد بن الحنفية بعد موته .  
وبتناسخ الأرواح . وبأن الحسن والحسين نبيان . وأن ابن الحنفية نبي وورث  
عنهما النبوة كذلك . وأنه يحيط بالعلوم كلها .

ومما زاد خطر المختار أن حيله اعتدت إلى الحجاز . فإن ابن الزبير لما  
حبس محمد بن الحنفية وجماعة من بنى هاشم لعدم بيعتهم له حبسهم في سجن  
يقال له . سجن عارم . وقد قال في ذلك كثير يخاطب ابن الزبير :

تُخَبِّرُ من لا قِيتَ أنكَ عائدٌ بالعباس المظالم في سجن عارم  
سمي النبي المصطفى وابن عمه . فمَسْكَنُكَ أَغلال وقاضى مَسْغَرِم  
فانتخب المختار رجالاً يثق بهم من الشيعة ووجههم إلى الحجاز فساروا  
يكنون النهار ويسرون الليل حتى وصلوا مكة . وكروا . سجن عارم .  
وأخرجوا من كان فيه من الهاشميين وأباغوم مأمهم .

لهذا رأى ابن الزبير أن هذا الرجل خطر لفساد رأيه ودينه ، وازدياد  
سلطانه ، فانتدب أخاه مصعباً ليخلص العراق من شره . فأتى البصرة  
ودخل المسجد وصعد المنبر متلماً ، ثم حصر لثامه فعرفه الناس ، ثم قام  
بحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : . طَسِمَ تلك آياتُ الكتابِ المبين .  
نَسَلُوا عَلَيْكَ من نَسِيا موسى وقِرعونَ بالحق لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . إن فرعون  
علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً . يستضعف طائفةً منهم يَدَّعِجُ

أبناءهم وَيَسْتَحْيِي نَسَاءَهُمْ . إِنْهُ كَانَ مِنَ الْمَقْسِدِينَ . . وَأَشَارَ يَدَهُ نَحْوَ الشَّامِ ، وَتَرِيدُ أَنْ تَمُوتَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجَّلَهُمْ أُمَّةً وَنَجَّلَهُمُ الْوَارِثِينَ ، وَنَحْصَكُنَّ لَهمْ فِي الْأَرْضِ ، وَأَشَارَ يَدَهُ نَحْوَ الشَّامِ . . وَنُورَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ، وَأَشَارَ نَحْوَ الْكُوفَةِ . ثُمَّ قَالَ : يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ بَلِّغُوا أَنَّكُمْ تَلْقَوْنَ أَمْرًاكُمْ ، وَقَدْ لَقِيتَ نَفْسِي بِالْجَزَارِ .

قَبْلَ الْمَذْمُورِ :

ثُمَّ أَخَذَ يَتَجَهَّزُ لِقَتْلِ الْمُخْتَارِ وَاسْتَدْعَى إِلَيْهِ الْمُهَلَّبِ بْنَ أَبِي صَفْرَةَ مِنْ فَارَسٍ — وَكَانَ عَامِلًا عَلَيْهَا لِابْنِ الزَّيْرِ ، يَتَوَلَّى قِتَالَ الْأَزَارِقَةِ — جَاءَهُ فِي عِدَدٍ كَثِيرٍ وَمَالٍ كَثِيرٍ ، فَسَارَ بِهِمْ نَحْوَ الْكُوفَةِ ، فَتَلَقَّاهُ الْمُخْتَارُ بِقَوَاتِهِ وَاقْتَتَلُوا ، وَهَزَمَ بَعْدَ الْمُخْتَارِ . ثُمَّ قُتِلَ . وَقَتَلَتْ أَمْرَأَتُهُ هِنْدُ بِنْتُ التَّعْنَانِ بْنِ بَشِيرٍ الْأَنْصَارِي فَقَالَ فِي ذَلِكَ عُمَرُ بْنُ أَبِي رَيْعَةَ :

إِنْ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ عِنْدِي قَتْلُ حَسَنَاءَ غَادَةِ عُطْبُولٍ  
قَتَلْتُ بِأَحْنَالٍ عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ إِنْ لَمْ تَلَهُ دَرَّهَا مِنْ قَتِيلٍ  
كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْغَايَاتِ جَرُّ الذُّيُولِ  
وَالْعَجَبُ أَنْ يَقُولَ ابْنُ رَيْعَةَ هَذَا وَكَانَ مَقَامُهُ فِي مَكَّةَ بِجَوَارِ ابْنِ الزَّيْرِ .  
وَمَا سَهَّلَ عَلَى مَصْعَبِ الْقَضَاءِ عَلَى الْمُخْتَارِ أَنَّهُ ادَّعَى النُّبُوَّةَ ، فَخَذَلَهُ ابْنُ الْأَشْتَرِ وَأَهْلَ الْكُوفَةِ . وَكَانَ قَتْلُهُ فِي سَنَةِ ٦٧ هـ .

عَبْدُ الْمَلِكِ يَسِيرُ إِلَى الْعِرَاقِ :

بَعْدَ أَنْ تَخَلَّصَ عَبْدُ الْمَلِكِ مِنْ عَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ ، سَارَ إِلَى الْعِرَاقِ . وَصَالِحُ زُفَرِ بْنِ الْحَارِثِ ، وَبَلَغَهُ أَمْرُ الْحَرْبِ الدَّائِرَةِ بَيْنَ مَصْعَبٍ وَالْمُخْتَارِ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ فَرَأَى أَنْ يَتَرَبَّصَ حَتَّى يَقْضَى أَحَدُهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ وَيَكُونَ الْغَالِبُ مِنْهُمَا ضَعِيفًا قَدْ أَتَهَكَتِ الْحَرْبُ ، فَيُنَازِلُهُ وَيَنْقُضُ عَلَيْهِ . وَسَارَ يَكْتُبُ أَهْلَ الْعِرَاقِ وَيَعْنِيهِمْ

كى يخذلوا مصعباً إذا التقى الجيشان . وكان أهل العراق قد كرهوا عبد الله ابن الزبير بعد موت المختار ؛ إذ أنهم وفدوا عليه مع مصعب فأساء إليهم وقال لأخيه فيهم : « جئتني بعيد أهل العراق لأعطيهم من مال الله ؟ وددت لو أن لى بكل عشرة منهم رجلاً من أهل الشام . صرّف الدينار بالدرهم ، وحرّمهم ابن الزبير ، ففسدت قلوبهم ومالوا إلى عبد الملك .

مقتل مصعب سنة ٧١ هـ :

والتقى الجيشان قريباً ، مستكينين ، فهزم أهل العراق وأسلبوا مصعباً . وقالوا : إن عبد الملك أرسل إليه الأمان فأياه واستبسل في المعركة ، وجاءه غلام لعبيد الله بن ظبيان فقتله ، وحمل عبيد الله رأسه إلى عبد الملك وهو يقول : نُسْطِيعُ مَلُوكَ الْأَرْضِ مَا قَسَطُوا لَنَا . وليس علينا قتلهم ، يُحَرِّمُ فلما رآه عبد الملك خر ساجداً . قال عبيد الله بن ظبيان — وكان فاتكاً من قتاك العرب :

« ما ندمت على شيء قط ندمى على عبد الملك بن مروان ، إذ أنيته برأس مصعب نحر ساجداً ألا أكون ضربت عنقه فأكون قد قتلت ملكي العرب في يوم واحد .

ولما أتى عبد الملك برأس مصعب ابن الزبير ، نظر إليه ملياً ثم قال : متى تلد قريش مثلك ؟ وقال هذا سيد شباب قريش . وقيل لعبد الملك : أكان مصعب يشرب الطلأ<sup>(١)</sup> ؟ فقال : لو علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه . وكان مصعب من أجمل الناس وأجمع الناس وأسخى الناس . وكان تحته عقيلتا قريش عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين . ولما قتل مصعب خرجت سكينة تريد المدينة ، فأطاف بها أهل العراق وقالوا : أحسن الله صحابتك يا ابنة رسول الله . فقالت : لا جزاءكم الله عنى خيراً ولا أخلف

(١) طلاء : الخمر .

عليكم بخير من أهل بلد ؛ قتلتم أبي وجدى وعمى وزوجى (١) ، أيتمتونى صغيرة وأرمتونى كبيرة ! ثم تركتهم إلى الحجاز .

بقتل مصعب أصبح الأمر فى العراق لعبد الملك . ولم يبق هناك نازر إلا الخوارج . وكان المهلب بن أبى صفرة يلى حربهم لأهل العراق أولاً ثم لآل الزبير ثانياً . ثم ولى أمرهم فى خلافة عبد الملك . ويخيل إلى أنه كان مغرماً بقتلهم والقضاء عليهم وكان يعرف مقاتلهم ويتوقع مكائدهم فيصدق ظنه فيهم . وكان ولاية الأمر يعرفون له هذا جميعاً . فخاربهم هو وأبناؤه حتى شتت شملهم فى أواخر عهد عبد الملك .

يعود عبد الملك وابن الزبير :

والذى كان يشغل عبد الملك هو ابن الزبير لأنه كان خليفة وله فى أعناق الناس بعة ، ومعه مكة والمدينة . وكان عبد الملك يرغب عن حرب ابن الزبير لأنه صحابى جليل وعائد بالبيت ، وكان يرى حربه آخر دواء ؛ فاختار لذلك رجلاً من رجاله الأشداء أظهرتهم كفايتهم ومواهبهم سريعاً ، وأرسل معه كتاباً أمان لابن الزبير ، ذلكم هو الحجاج بن يوسف الثقفى .

وكان من عادة عبد الملك أن يلى قتال أعدائه بنفسه فمن هو هذا الرجل العظيم الذى أحله عبد الملك محل نفسه فى هذا الأمر الخطير ؟ إنه الحجاج ابن يوسف الشاب الثقفى الذى تقدم الحديث عن بعض همته فى أول صفحة من هذا الكتاب .

(١) أبوها الحسين ، وجدها على ، وعمها مسلم ، وزوجها مصعب .

## الحجاج في الحجاز

سمعنا عن الحجاج موظفاً مشهوداً له بالحزم وحسن الإدارة والتدبير . سمعنا عنه وقد عُهِد إليه بعمل عمر عنه الخليفة . وأى خليفة ؟ إنه عبد الملك ابن مروان ! سمعنا عنه وقد حمل الجند حملاً على طاعة عبد الملك وأرهبهم وأفرغهم ، فاستجابوا لأمر الخليفة . فهزم بهم مصعب بن الزبير وفتح بهم العراق . ولا نسمع للحجاج ذكراً واضحاً إلا بعد مقتل مصعب . نسمع به لجأة وقد عهد إليه عبد الملك بأمر عظيم . هو أعظم ما كان يشغل باله ، وهو قيادة جيش لمحاربة ابن الزبير ، الخليفة المبايع له في الحجاز والذي كاد يتم له من عهد قريب حكم الإمبراطورية الإسلامية كلها .

وأي كان ابن الزبير ؟ كان في مكة عائداً بالبيت ، بالخرم الآمن . الذي لا يخل فيه قتال . ومن أجل حرمة فقد عرض نفسه لوصمة من وصمات التاريخ ، وباء بسخط من الله والمسلمين ! ورأى عبد الملك نفسه في حرج ، ولكن الحجاج طاماً ولكل عزيمة . إنه كان شاباً يتجاوز الثلاثين قليلاً ، وجعله عبد الملك قائداً للحرب ابن الزبير . وأرسله إلى الحجاز في ألفين من أهل الشام سنة ٧٢ هـ . فسار إلى الطائف لا إلى مكة ، فما الذي دعاه إلى ذلك ؟ الطائف بلده القديم وقد قضى فيه أيام طفولته وصدر شبابه ، وهو يعرف أهله ويمت إليهم بصلة القرى . وهو بلد منيع من الوجهة الحربية وطعامه موفور ، وهو قائم على جبل غزوان ، فيستطيع المتحصن به أن يمتنع فيه إذا أخطأه الحظ في الهجوم .

كان عبد الملك يميل إلى اللين والسياسة فأوصى الحجاج أن يدعو ابن الزبير إلى البيعة وأن يكتب له ما يشاء من الأمان ولن معه من أشياعه كذلك . لهذا وقف الحجاج موقف المتردد واكتفى بمناوشات قليلة كان ينتصر فيها

دائماً على جند ابن الزبير . ولكن صبر الحجاج نقد . ولم يكن من طبعه أن يصبر في الحرب على عدوه طويلاً كما سئرى من مواقفه مع المهلب ومع ابن الأشعث ووزراءه في مراسلاته مع هذين القائدين .

نقد صبر الحجاج سريعاً ، فأرسل إلى عبد الملك يستمد منه العون ويستأذنه في القتال في البلد الحرام والشهر الحرام ، وذكر له ضعف ابن الزبير وتفرق الناس عنه . فأمدّه عبد الملك بخمسة آلاف من الجند وأذن له في الحرب ، فهاجم مكة ، ونصب المجانيق على جبل أبي قبيس وجبل قيعقان ، ورمى السكبة ، فأكبر الحجاج فعله ، فكف حتى انتهى الموسم ، ثم عاد إلى الحصار ورمى السكبة ، واشتد الأمر على ابن الزبير ، وتفرق عنه كثير من أصحابه ، ورأوا أن دولته قد أدبرت وأن الأمر صائر إلى غيره ، وطلبوا منه بعضهم أن يأذن لهم بأخذ الأمان من الحجاج ، وأشار إليه بعضهم أن يكتب إلى عبد الملك ، ورأى أخوه عروة أن يفعل ما فعل حسن بن علي إذ خلع نفسه وبائع معاوية ، فأبى وقال له : « قلبي إذاً مثل قلبك . والله لو قبلت ما يقولون ما عشت إلا قليلاً ، وقد أخذت الذئبة . وإن ضربة سيف في عز ، خير من لطمة في ذل ، » .

ثم دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين وقد بلغت مائة سنة وكف بصرها ، ولندع بن الزبير يحدثنا عن ذلك الموقف الرهيب . موقفه عند أمه وقد خذله أصحابه وأولاده ، وتراعى الموت في صورته .

دخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر في اليوم الذي قتل فيه ، وقد رأى من الناس ما رأى من خذلانهم له . فقال وأحبه من الصادقين :

« يا أمّاه ، خذني الناس حتى ولدي وأهلي . فلم يبق معي إلا اليسير من ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟ » فقالت :

« أنت والله يابني أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو ، فامض له ، فقد قُتِلَ عليه أصحابك : ولا تمكن من رقبته يَتَلَعَّبُ بها غلمانُ بني أمية . وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك وأهلكك من قتل معك . وإن قلت : كنتُ على حق ، فلما وهن أصحابه ضعفتُ ، فليس هذا من فعل الأحرار ولا أهل الدين ، وكم خطورك في الدنيا ؟ القتل أحسن . » قال :

« إني أخاف إن قتلوني أن يمثلوا بي ، قالت :

« يابني إن الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها .

فدنا منها وقبل رأسها وقال :

« هذا والله رأيي والذي قت به داعيا إلى يومى هذا ، ما ركنت إلى الدنيا ، ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تُسْتَحْلَ حُرْمُهُ ، ولكنى أحببت أن أعلم رأيك فردتني بصيرة مع بصيرتي ، فانظري يا أمه ! إني مقتول من يومى هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلى لأمر الله ؛ فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكرك ، ولا عملا بفاحشة . ولم يجر في حكم الله ، ولم يغدر في أمان . ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد . ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به ، بل أنكرته . ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربى . اللهم إني لا أقول هذا تركية منى لنفسى — أنت أعلم بي — ولكن أقوله تعزية لأمى لتساو عني . »

فقالت أمه : إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسنا إن تقدمتني ، وإن تقدمتك ففي نفسى حرج حتى أنظر إلأم بصير أمرك .

قال : « يا أمه ، جزاك الله خيرا ! فلا تدعى الدعاء لى قبل وبعد ، »

فقالت : لا أدعه أبدا ، فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق . ثم قالت : اللهم ارحم طولَ ذلك القيام في الليل الطويل . وذلك التحجيب والظلم في



هو اجر المدينة ومكة . وبرّه بأبيه وفي . اللهم قدسلته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين ،

ثم ودعها وخرج . ولما قتل أرسل رأسه إلى المدينة ، وقتل معه من صفوة أصحابه عبد الله بن صفوان ، وعبد الله بن مطيع ، وعمارة بن حزم ، فقطعت رموسهم جميعاً ، وبعث بها الحجاج إلى المدينة . فصبوها للناس ، وجعلوا يقربون رأس ابن الزبير من رأس بن صفوان كأنه يسارّه ، ويلعبون بذلك ثم بعث برموسهم إلى عبد الملك .

ويحفظ تاريخ الأدب كثيراً من النصوص والروايات عما حدث في تلك الفتنة الكبيرة ، التي استحل فيها الحرم ، وزهقت فيها نفوس طاهرة كريمة . وباء يائسها قوم . وزبحى فيها بيت مبارك وهُدَى للعالمين .

وما يحفظه تاريخ الأدب خطبة للحجاج بعد مقتل ابن الزبير . فقد ارتفعت مكة بالبكاء بعد مقتله . فغشى الحجاج أن يكون هناك من يطلب ثأره ، أو أن تستمر القلوب على محبته . فخطب الناس فقال :

« ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة ونازع فيها ، وخلع طاعة الله . واستكن بحرم الله ، ولو كان شيء مانعاً للعصاة لمنع آدم حرمة الجنة . لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأستجد له ملائكته ، وأباحه جنته ، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته . وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من السكبة . »

وهو فيها لبق عظيم البيان قوى الحجة ، فأنظر إلى اعتذاره عن قتل ابن الزبير ، وبراعته في تبرير اعتدائه على البيت :

فالعصيان عنده يحازي مهما كان صاحبه ، وفي أي مكان كان ؛ فآدم وهو أكرم على الله من ابن الزبير . أخذ بمعصيته . ولم تمنعه حرمة الجنة من أن يحلّ به جزاؤها .

يا له من خطيب يكاد يستولى على قلوبنا نحن بعد ثلاثة عشر قرناً !

### سبب فشل ابن الزبير :

من المؤرخين من يرى لابن الزبير عيوباً وأخطاءً سببت خياع ملكه كاختياره الحجاز دار إقامة ، وهو بعيد عن غيره من الأقطار الإسلامية ، وهو إقليم قحلي لا يكتفي أهله ، ولا يمد جيوشاً ، ولا يمدن جنداً . وعدوه في جنات وعيون ، وقواكه مما يشتهون : في الشام .

وقالوا إنه كان بخيلاً ، وكان عبد الملك جواداً . فقد حرم أهل العراق فصار مكروهاً . واضطروهم إلى الميل عنه إلى عبد الملك . وقالوا إن عبد الله بن ظبيان لما سمع مقالته لمصعب في أهل العراق قال له : أتدري يا أمير المؤمنين ، ما مثلنا ومثلك فيما ذكرت ؟ قال وما ذاك . قال : فإن مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام ، كما قال أعشى بكر بن وائل :

عُظِفَتْهَا عَرَضًا وَعُظِفَتْ رَجُلًا      غَيْرِي ، وَعُظِفَ أَخْرَى ذَلِكَ الرَّجُلِ  
أَحْبَبْنَاكَ نَحْنُ ، وَأَحْبَبْتَ أَنْتَ أَهْلَ الشَّامِ ، وَأَحْبَبَ أَهْلَ الشَّامِ عَبْدَ الْمَلِكِ .  
وأراد الحُضَيْنِ بْنِ غَيْرٍ أَنْ يَخْرِجَهُ إِلَى الشَّامِ لِيَايَعَ لَهُ النَّاسَ هُنَاكَ بَعْدَ مَوْتِ يَزِيدَ ، فَشَكَّ فِي ابْنِ غَيْرٍ وَفِي أَهْلِ الشَّامِ ، وَرَضِيَ بِالْبَقَاءِ فِي الْحِجَازِ وَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَى عَدُوهِ .

وترك شيوخ بني أمية يخرجون من المدينة إلى الشام في ذلك الوقت الذي ضعف فيه أمرهم في الشام . وتفرق الناس عنهم ، ولو حبسهم في الحجاز لما وجد الناس مثل مروان بن الحكم وعبد الملك ابنه وعمرو بن سعيد ، وربما كانوا يرغبون على البيعة لابن الزبير .

وكان يسىء إلى بني هاشم في الحجاز . وهم آل الرسول ، فصرف ذلك عنه قلوباً كان يمكن أن تكون معه . وأخرج عليه قوماً في العراق بحجة الانتصار لآل البيت كالمختار الثقفي .

وقد يجحد المدافع عن سياسته ما يرد به على هذا . ويكون دفاعه قوياً فأما بخله . فقد كان لا يتجاوز حدود الله في العطاء ، وذلك هو الدين

الصحيح . ولم يرض بترك الحجاز لأنه كان يؤثر جوار بيت الله ، وأساء إلى  
بنى هاشم لأنهم كانوا أعداءه وقد بايعوا يزيد وتركوه . وهو خير ديناً وعلماً  
وفضلاً وأباً وأماً وأقرب اليهم نبياً من يزيد .

وقد أثبت أن أقص مقتل ابن الزبير بشيء من التفصيل ليتبين للقارىء  
كيف تفجر ينابيع اليان مع ينابيع الدماء . وكيف يتخضب القرطاس بدماء  
الشهداء وكيف تجري المقادير في أعنتها . وتسير إلى غاياتها . فتدول دول ،  
وتعلو دول . وكيف يصدق قوله تعالى :

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ . تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ  
الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ . وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ . يَدُوكَ  
الْخَيْرُ . إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

### المهاج والى على الهجاء :

ولاه عبد الملك مكة ثم المدينة ثم اليمن والنجاة . ولا نسمع له فيها عملاً  
خاصاً اللهم إلا شدته على من يظن فيهم ميلاً عن بني أمية . حتى كبار الصحابة ،  
وبخاصة في المدينة . وكان يتهمهم بقتل عثمان . وختم على أيدي كثير منهم  
بالرصاص كما كان يفعل بأهل الذمة . ومنهم جابر بن عبد الله وأنس بن مالك  
خادم الرسول صلى الله عليه وسلم . وسهل بن سعد . فتركوا المدينة . وشكوا  
أمره إلى عبد الملك .

وأما من بايع منهم لعبد الملك كمحمد بن الحنفية . وعبد الله بن عمر  
فقد أمن ، وكتب عبد الملك إليه ألا يعرض محمد بن الحنفية ولا لأحد من  
آل بيته وأصحابه . وقال له في كتابه :

« جَنَّبَنِي دِمَاءُ بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ فَلَيْسَ فِيهَا شِفَاءٌ مِنَ الْحَرْبِ . وَإِنِّي رَأَيْتُ  
بَنِي حَرْبٍ سُلِبُوا مَلِكُهُمْ لَمَّا قَتَلُوا الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ . »

## بناء الكعبة

وأهم عمل له هناك هو بناء الكعبة على قواعد النبي صلى الله عليه وسلم .  
وقد هدمت الكعبة مرتين في زمن ابن الزبير ، الأولى بفعل جيش يزيد ،  
والثانية بفعل جيش الحجاج ، أو عبد الملك . فلما أصابها الوهن في المرة  
الأولى ، أراد ابن الزبير هدمها وبناءها على قواعد سيدنا إبراهيم ، يخالفه  
بعض الصحابة منهم ابن عباس الذي اقترح عليه أن يرقعها ، فأبى وقال :  
والله ما يرضى الواحد منكم أن يرقع بيت أبيه ، فكيف أرقع بيت الله  
سيحانه ! وأنا أنظر إليه ينقض من أعلاه إلى أسفله ؟ إن اللحم ليقع عليه  
فتتناثر حجارته .

ثم هدمها وبناءها على قواعد سيدنا إبراهيم . وذلك بأن زاد في بنائها من  
الجهة الشرقية مقدار ستة أذرع وشبر . وجعل لها بابين لاصقين بالأرض ،  
بعد أن كان لها باب واحد مرتفع عن الأرض قدر قامة . ورفع جدرانها  
سبعاً وعشرين ذراعاً . وقالوا إنه فرشها بالرخام . وجعل المفاتيح وصفائح  
الأبواب من الذهب .

وكان اعتماده في بنائها من جديد على قواعد إبراهيم . على حديث روته  
خالته السيدة عائشة : « لولا قومك حديثو عهد بكفر لرددت البيت على  
قواعد إبراهيم وجعلت لها بابين شرقياً وغربياً . »

ثم أصيبت في أيام محاصرة الحجاج ، فلما مات ابن الزبير استشار الحجاج  
عبد الملك فأذن له أن يعيد بناءها فهدمها ورددها كما يقبها قريش قبيل مبعث  
النبي صلى الله عليه وسلم .

ويقال إن عبد الملك ندم لما علم صحة رواية ابن الزبير لحديث عائشة .  
وظل الحجاج بالحجاز ثلاث سنين حتى ولاء عبد الملك العسراق  
سنة ٧٥ هـ .

## نقل الحجاج إلى العراق

يروى تاريخ الأدب أن عبد الملك نقل الحجاج من الحجاز إلى العراق بعد وفادة وقدهما عليه ومعه إبراهيم بن محمد بن طلحة — وكان الحجاج قد استخلصه لنفسه ، وقربه ، وعظم منزلته — فلما دخل عليه لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن قال له : « قدمت عليك أمير المؤمنين برجل الحجاز لم أدع له بها نظيراً في الفضل والأدب والمروءة وحسن المذهب . مع قرابة الرحم وعظم قدر الأبوة . وما بلوت منه في الطاعة والنصيحة وحسن المؤازرة ، وهو إبراهيم بن محمد بن طلحة . وقد أحضرته بابك ليسهل عليه إذ ذلك ، وتعرف له ما عرفته . فقال له : « أذكرتنا رحماء قريية ، وحفاً واجياً » .

ثم أذن الحجاج لإبراهيم وأجلسه على فراشه ، وذكر له مدح الحجاج له بما يرفقه عبد الملك ويقر الحجاج عليه . ثم — له حاجته ، فأجابته محمد بن طلحة : « يا أمير المؤمنين ، إن أول الخوائف ، وأحق ما أقدم بين يدي الأمور ما كان لله فيه رضا ، ولحق نبيه صلى الله عليه وسلم أداء . ولك فيه ولجاعة المسلمين نصيحة ، وعندى نصيحة لا أجديداً من ذكرها . ولا أقدر على ذلك إلا وأنا خال » . فقال له : « دون أبي محمد » يعني الحجاج ، فقال له إبراهيم : نعم .

فأمره عبد الملك أن يخرج . ثم قال : يا ابن طلحة ، نصيحتك . فقال : يا أمير المؤمنين ، لقد عمدت إلى الحجاج في تغدير رأسه وتعجر جوفه ، وبعده من الحق ، وقربه من الباطل ، فوليته الحرمين . وهما ما هما ، وبهما ما بهما من المهاجرين والأنصار ، والموالي والأخيار ، يطوهم<sup>(١)</sup> . ويسومهم الخف<sup>(٢)</sup> ، ويحكم فيهم بغير سنة ، بعد الذي كان ، من فك دماهم ،

(١) يذمهم .

(٢) يذلم .

وما اتشبهك من حُرَمهم . ثم نظن أن ذلك ينجيك من عذاب الله . فكيف إذا جاءك<sup>(١)</sup> محمد صلى الله عليه وسلم غداً . للخصومة بين يدي الله تعالى ! أما والله لن تنجو إلا بحجة تضمن لك النجاة . فأربع على نفسك أو دع<sup>(٢)</sup> .

وكان عبد الملك متكئاً فاستوى جالساً . وكأنه راعه أن يكون هذا رأى ابن أبي طلحة في الحجاج وهو ولي نعمته ، وصاحب الرأي الحسن فيه . والذي مدحه أمام عبد الملك بما جعله خير أهل الحجاز .

فقال له : كذبت ومثت<sup>(٣)</sup> فيما جئت به . ولقد ظن بك الحجاج ظناً لم نجد فيه . قم . فأنت المائن الحاسد !

قال فقامت والله ما أبصر شيئاً . فلما خطر الستر<sup>(٤)</sup> لحقني لاحق ، فقال احبسوا هذا ، وأذن للحجاج . فدخل . فلبث ملياً ولا أشك أنهما في امرئ . ثم خرج الإذن لي ، فدخلت فلما كشف لي الستر . إذا أنا بالحجاج خارج ، فاعتنقني . وقبل ما بين عيني ، وقال : أما إذا جرى الله المتواخين خيراً بفضل توأماهما . فجزاك الله عني أفضل الجزاء . فوالله لئن سلبت لك لأرفعن ناظرليك ، ولأعلنين كعبك ، ولأنبعن الرجال غبار قدميك .

قال فقلت في نفسي إنه ليسخريني . فلما وصلت إلى عبد الملك أدنا في حتى أدنا من مجلسي الأول . ثم قال : يا ابن طلحة : هل أعلم أحداً بالحجاج بما جرى أو شاركك أحد في نصيحتك ؟ فقلت : لا والله . ولا أعلم أحداً أظهر يداً عندي من الحجاج . ولو كنت محايياً أحداً بدين لي كان هو . ولكني أثرت الله ورسوله والمسلمين . قال : علمت أنك لم ترد الدنيا ، ولو أردتها لكنت لك في الحجاج . ولكن أردت الله والدار الآخرة . وقد عزتته

(١) أجلسك أمامه على ركبتك ليتأصمت .

(٢) ربع على نفسه وقف وانظر ونحس ، والمقصود تمهل ولا تسترسل في ترك الحجاج يضيء كما يشاء .

(٣) مثنت : كذب يكذب . والمائن الكاذب .

(٤) خطر الستر : استرخى وأسفل وراه .

عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما . وأعلته أنك استزلتني له عنهما  
لستقللا لها . ووليت العراقين وما هنالك من الأمور التي لا يدحضها (١)  
إلا مثله . وإنما قلت له ذلك ليؤدي ما يلزمه من ذمامك (٢) . فإنك غير  
ذام لصحبته مع يده عندك (٣) .

قال : فخرجت مع الحجاج . وأكرمني أضعاف إكرامه :

هذه رواية تاريخ الأديب عن سبب نقل الحجاج من الحجاز إلى العراق ،  
والقصة ذاتها لا تصلح سببا لهذا الأمر العظيم . ولكنها تبين السبب  
الحقيقي في أنشائها . فإن صلحة يعبر عما يحس به أهل الحجاز من ظلم الحجاج  
وشدته وبطشه ، وسوء معاملته لأهل تلك البلاد المقدسة ، وفيهم كبار  
الصحابية ، والتابعين . وعبد الملك يخشى أن تنور نفوسهم عليه من أجل وال  
كنا ، ويخشى غضب الناس من أجلهم . وقد أحس أن الحجاج قضى عمله في  
الحجاز ف قضى على ابن الزبير ، وألزم أهلها طاعة عبد الملك . ولو استمر  
هناك أكثر من هذا فقد يكون من وراء شدته انفجار لا يعلم عبد الملك  
ما يتجلى عنه ، ولكن أهم من هذا كله ما ذكره في آخر خطابه إذ قال :  
« ووليت العراقين وما هنالك من الأمور التي لا يدحضها إلا مثله » . فإما  
هذه الأمور التي كانت في العراق ، ولم يكن لها إلا الحجاج الذي جربه  
عبد الملك قبل ذلك مرتين . فأغنى غناه ليس لأحد غيره من رجال عبد الملك ؟

### العراق قبيل مجيء الحجاج

خرج أهل العراق على طاعة بني أمية وطردوا عبيد الله بن زياد ، ثم جاءهم  
المختار يدعهم إلى قتالهم فقاتلهم في شمال العراق وقتلوا عبيد الله بن زياد ،

(١) لا يدحضها : يهبطها ويهبط عليها .

(٢) العهد والأمان والطمأنينة والحماية : وعندها يؤدي لك ما يجب عليه من حقوقك .

(٣) تلقد القريدج : ص ١٥٩ .

ثم بايعوا لابن الزبير . وجاءهم مصعب . وحارب المختار حتى قتله بالكوفة سنة ٦٧ هـ .

ثم جاء عبد الملك نفسه الى العراق وحارب مصعباً . وقتل مصعب سنة ٧١ هـ ، وولى عبد الملك أخاه بشراً على الكوفة . وعالد بن عبد الله بن أسيد على البصرة ووكل إليه حرب الخوارج .

### أمر الخوارج قبيل المهجاج :

لما ترك نافع بن الأزرق ونجدة بن عامر مكة مغاضبين لابن الزبير ، إذ لم يجدوا رأيه كراى الخوارج في عثمان وطلحة والزبير خرجوا من الحجاز حتى أتيا العراق ، وبايعت طائفة كبيرة منهم نافع بن الأزرق ، وسموه أمير المؤمنين . فخرج بهم إلى الأهواز ، فغلبوا عليها ، وعلى ما وراءها من أرض فارس وكرمان . وجبوا النية ، ثم شجر بينهم الخلاف بسبب اختلاف الرأي في بعض مسائل الدين وحكمه في قتل الأطفال واستحلال النساء وأداء الأمانات إلى أهلها والقيود عن الخروج لحرب من خالفهم . ونفر جماعة منهم بزعامة نجدة بن عامر إلى النجاة . وكانت هناك مراسلات بين نجدة ابن عامر ونافع بن الأزرق حول المسائل المتقدمة . كل منهما يدلى بحجته ويؤيدها بحكم الكتاب الكريم وآياته . ويتكفى أن تذكر كتابين بينهما ، أولها من نجدة بعد مخالفته لنافع ، والثاني من نافع يرد عليه . فقيهما بيان وجهة النظر . ومذهب الخوارج بعد اختلافهم .

### كتاب نجرة :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإن عهدى بك وأنت اليتيم كالأب الرحيم ، والضعيف كالأخ البر ، لا تأخذك في الله لومة لائم ، ولا ترى معونة ظالم . كذلك كنت أنت وأصحابك ، أما تذكر قولك : لولا أنى أعلم أن للإمام العادل مثل أجر رعيتي ما توليت أمر رجلين من المسلمين ؟ فلما



شَرَيْتَ<sup>(١)</sup> نَفَكَ فِي طَاعَةِ رَبِّكَ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِهِ ، وَأَصْبَحْتَ مِنَ الْحَقِّ  
فَصَّهُ<sup>(٢)</sup> ، وَرَكِبْتَ مَرَّةً ، تَجَرَّدَ لَكَ الشَّيْطَانُ — وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَثْقَلَ عَلَيْهِ  
وِطْأَةُ مَنْكَ وَمِنْ أَصْحَابِكَ — فَاتَّالَكَ وَاسْتَبَوَاكَ ، وَاسْتَفْوَكَ وَأَغْوَاكَ  
فَفَوَيْتَ فَأَكْفَرْتَ مِنْ عِزِّهِمْ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ قَعْدِ<sup>(٣)</sup> الْمُسْلِمِينَ وَضَعَفَتْهُمْ  
فَقَالَ جَلِ ثَنَاؤُهُ — وَقَوْلُهُ الْحَقُّ ، وَوَعْدُهُ الصِّدْقُ — ، لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ  
وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ ،  
إِذَا نَصُّهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، ثُمَّ سَمَّاهُمْ أَحْسَنَ الْأَسْمَاءِ فَقَالَ : ، مَا عَلَى الْحَسَنِينَ  
مِنْ سَبِيلٍ ،<sup>(٤)</sup>

ثُمَّ اسْتَحَلَّتْ قَتْلُ الْأَطْفَالِ ، وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ  
قَتْلِهِمْ ، وَقَالَ اللَّهُ عَنْ ذِكْرِهِ ، ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ  
فِي الْقَعْدِ خَيْرًا ، وَفَضَّلَ اللَّهُ مَنْ جَاهَدَ مِنْهُمْ ، وَلَا تَدْفَعُ مَرْزَلَةٌ أَكْثَرَ النَّاسِ  
عَمَلًا مَرْزَلَةٌ مِنْهُ دُونَهُ ، أَوْ مَا سَمِعْتَ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ ، ، لَا يَسْتَوِي  
الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ ، ،<sup>(٥)</sup> جَعَلَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ،  
وَفَضَّلَ عَلَيْهِمُ الْجَاهِدِينَ بِأَعْمَالِهِمْ .

وَرَأَيْتَ أَلَّا تُوْدَى الْأَمَانَةُ إِلَى مَنْ خَالَفَكَ ، وَاللَّهُ بِأَمْرِ أَنْ تُوْدَى الْأَمَانَاتُ  
إِلَى أَهْلِهَا ، فَاتَّقِ اللَّهَ ، وَأَنْظِرْ لِنَفْسِكَ ، وَأَتَّقِ يَوْمًا ، لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ،  
وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ، ،<sup>(٦)</sup> فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِالْمُرْصَادِ ،  
وَحُكْمِهِ الْعَدْلِ ، وَقَوْلِهِ الْفَصْلِ ، وَالسَّلَامِ .

فَكُنْ أَبِ ابْنِ دَعْفٍ :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَمَّا بَعْدُ . فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ نِعَظْنِي فِيهِ . وَتَذَكَّرْنِي

(١) شَرَيْتَ فَصَّهُ بِأَعْيُنِهَا : وَيَسِّرَ الْخَوَاجِ أَنْ يَصْبَحَ شَرَاءً : مَعَ شَارِكِ قَضَائِهِ وَفَضَاءِ ، أَخُوهُ مِنْ قَوْلِهِ

نَعَالِي : وَبِمَنْ يَمَاسُ مِنْ بَشَرِي فَصَّهُ ابْنَهُ مَرَضًا اللَّهُ ، أَيْ يَيْمِيهَا .

(٢) أَيْ وَأَصْبَحْتَ الْحَقِّ بَيْنَهُ وَلَمْ تَخْطُ . (٣) قَعْدٌ : أَمْرٌ جَمْعُ كَعْبٍ .

(٤) سُورَةُ الْتَوْبَةِ آيَةُ ٩١ . (٥) سُورَةُ التَّوْبَةِ آيَةُ ٩٥ .

(٦) سُورَةُ الْبَقَرَةِ آيَةُ ٢٣ .

وتنصح لي وترجئي ، وتصف ما كنت عليه من الحق ، وما كنت أؤثره من الصواب . وأنا أسأل الله عز وجل أن يجعلني من « الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ » ، <sup>(١)</sup> وَعَيَّبَتْ عَلَى مَا دَنَيْتَ بِهِ مِنْ إِكْفَارِ الْقَعْد . وقتل الأطفال . واستحلال الأمانة . فأفسر لك لم ذلك إن شاء الله : أما هؤلاء القعد . فليسوا كما ذكرت ممن كان بعهد النبي صلى الله عليه وسلم . لأنهم كانوا بمكة معقورين محصورين ، لا يجحدون إلى الحرب سيلا ، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقا . وهؤلاء قد فسقوا في الدين وقرءوا القرآن ، والطريق لهم نهج واضح . وقد عرفت ما قال الله عز وجل فيمن كان مثلهم . إذ « قَالُوا كُنَّا مُتَضَعِّفِينَ فِي الْأَرْضِ » . فقيل لهم : « أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجَرُوا فِيهَا » ، وقال : « فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ » <sup>(٢)</sup> ، وقال : « وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ <sup>(٣)</sup> مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذِنَ لَهُمْ » ، فغير بتعذيرهم . وأنهم كذبوا الله ورسوله ، وقال : « سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » ، فانظر إلى أسماهم وسماتهم <sup>(٤)</sup> .

أوما أمر الأطفال فإن نبي الله نوحا عليه السلام كان أعلم بالله يا نجدة مني ومنك فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » <sup>(٥)</sup> ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يفلتوا إلا فاجرا كفارا ، فسأهم بالكفر وهم أطفال . وقبل أن يولدوا . فكيف كان ذلك في قوم نوح ،

(١) سورة الزمر آية ١٨ .

(٢) أي فرح بقعودهم عن الغزو مع رسول الله . وذلك في غزوة تبوك سنة ٦ من الهجرة وبقيّة الآية الشريفة : « وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ، وقالوا لا تغفروا في الحرب ، قل نازحهم أشد حرا لو كانوا يفتقون . سورة حمزة آية ٨٩ .

(٣) المعذرون : المشركون ، ويضد بهم أشد وعظفان . اعتذروا عن الجهاد بالفقر وكثرة العيال ، أو يكون معاناه : المقصرون : من عذر في الأمر إذا قصر فيه موعها أن له عذرا ولا عذر له .

(٤) أسماء : جمع سمّة . وهي علامة .

(٥) أحدا : سورة نوح آية ٣٦ ، ٣٧ .

ولا نكون نقوله في قومنا؟ والله يقول: «أَكْفَرُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بُرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ»<sup>(١)</sup>، وهؤلاء كشركي العرب، لا تقبل منهم جزية، وليس بيننا وبينهم إلا اليف أو الإسلالة.

وأما استحلال أمانات من خالفنا، فإن الله عز وجل أحل لنا أموالهم كما أحل لنا دماءهم، فدماءهم حلال طلقت<sup>(٢)</sup>، وأموالهم في<sup>(٣)</sup> للسلين. فاتق الله وراجع نفسك، فإنه لا عذر لك إلا بالتوبة، ولن يسعك خذلاننا والقعود عنا. وترك ما نهجناه لك من طريقنا ومقاتلتنا، والسلام على من أقر بالحق وعمل به.

حرب الازداف:

غلب نافع على الأهواز كما تقدم، وخشى أهل البصرة أن يجتاحوا مصرهم، فاجتمعوا إلى الأحنف بن قيس، وقالوا له: ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان. وسيرتهم مآثرى. قال الأحنف: إن فعلهم في مصركم إن ظفروا به كفعلهم في سوادكم. فجدوا في جهاد عدوكم.

فاجتمع إليه عشرة آلاف فأتى أمير البصرة من قبل ابن الزبير، وهو عبد الله بن الحرث بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب، وسأله أن يولى على هؤلاء أميراً يقودهم في حرب الخوارج، فولى عليهم رجلاً يقال له مسلم بن عيسى، والتقى أهل البصرة بالخوارج في «دولاب»<sup>(٤)</sup>، فاقتلوا، وقتل في المعركة قائد الفريقين، نافع قائد الخوارج، وابن عيسى قائد جند البصرة في تلك المعركة.

(١) جمع زيور. وهو الكتاب. ومما: أنزل في تكتيب المأوية أن من كفر منكم فهو في أمان من كتاب الله سورة القمر آية ٢٣.

(٢) طلق أى حلال.

(٣) دولاب قرية بينها وبين الأهواز مسافة أربعة فراسخ. وقد حدث فيها هذه المعركة التي قتل فيها نافع سنة ٦٥ هـ. وقد ذكرها نظري بن الفجاءة في شعره في قصيدته التي مطلعها  
لمرك إلف في الحجة لأحد  
وفي جيش ما لم ألق أم سقيم  
وصف فيها بلاء قاس في ذلك اليوم.

وعزل ابن الزبير واليه عبد الله بن الحرث ، وولى على البصرة مكانه عمر بن عبيد الله بن معمر ، فولى هذا أخاه عثمان بخاربة الأزارقة فهزموه وقتلوه وعزل ابن الزبير واليه الجديد عمر بن عبيد الله ، وولى مكانه على البصرة الحارث بن عبد الله بن ربيعة - وهو أخو عمر بن عبد الله بن ربيعة الشاعر الغزل المشهور - واشتد أمر الخوارج واقتربوا من البصرة فضج الناس إلى الأحنف بن قيس ، فأقى الحرث بن عبد الله ، فقال : أصلح الله الأمير - إن هذا العدو قد غلبنا على سوادنا وفيتنا ، فلم يبق إلا أن يحصرنا في بلدنا حتى نموت هزلاً . قالوا : فسموا رجلاً فقال الأحنف : ما أرى لها إلا المهلب ابن أبي صفرة ، فولاه قتالهم .

#### المهلب يلى حرب الخوارج :

كان المهلب يحمل عهداً من ابن الزبير على خراسان ، فلما أجمع رأى القوم على انتدابه لحرب الخوارج ، ترك خراسان ، وتولى قتال الخوارج لابن الزبير ، ولعبد الملك ، وظل على حربهم حتى شئت شملهم في زمن الحجاج كما سيأتى قريباً .

ولى الخوارج عليهم بعد قتل نافع عبيد الله بن بشير بن الماحوز السليطي فهزم أهل البصرة حتى ولى المهلب واختار جنده كما أراد فخارب الخوارج حتى أبعدهم عن البصرة ، ودخل سوق الأهواز ، ثم نازلهم في وقعة سلسي وسلبسري<sup>(١)</sup> ، فهزمهم بعد معركة عنيفة قتل فيها أميرهم عبيد الله بن بشير ابن الماحوز ، فارتفعوا إلى كرمان وجانب أصفهان . وكتب المهلب بذلك إلى أمير البصرة .

ثم جاء المصعب إلى العراق سنة ٦٧ هـ فاستقدم المهلب من حرب الخوارج وولاه الموصل ، فازداد خطر الخوارج وولوا أمرهم رجلاً من شجعانهم

(١) سلى وسلبسرى موضع واحد بالأهواز قريب جندبادور .

ويطلا من أبطالهم هو قطري بن الفجامة . الخطيب الشاعر : فشاور مصعب  
الناس فأجمعوا رأيهم على إعادة المهلب فأعاده فخاربهم حتى نفاهم إلى دراهمهم  
وفي تلك الآونة قتل مصعب ( سنة ٧١ هـ ) فبلغ الخبر الخوارج قبل أن  
يلغ المهلب . فسأل الخوارج جند المهلب : ماتقولون في مصعب ؟ قالوا إمام  
هَدَى . قالوا : فماتقولون في عبد الملك ؟ قالوا صدال مُضِلّ . ولما كان بعد  
يومين أتى الخبر المهلب . فبايع الناس لعبد الملك . فناداهم الخوارج :  
ماتقولون في مصعب ؟ فسكتوا . قالوا فماتقولون في عبد الملك ؟ قالوا : إمام  
هدى . فقال الخوارج : يا أعداء الله . بالأمس صال مضل . واليوم إمام هدى ؟  
يا عبيد الدنيا . عليكم لعنة الله !

عبد الملك سير الامراء :

ولى عبد الملك على البصرة خالد بن عبد الله بن أسيد . وكان واليا هو الذى  
بلى حرب الخوارج . فعزل المهلب . وولى أخاه عبد العزيز بن عبد الله حرب  
الخوارج مكانه فمزموه هزيمة منكورة . بدرا مجرد . . وكان عبد العزيز قد  
خرج بامرأته أم حفص بنت المنذر بن الجارود . فسبى الخوارج النساء ،  
وكانت أم حفص فيهن . فأقاموها في السوق حاسرة بادية الخجاسن . فاعترضوها  
وقلبوها . وكانت من أكل الناس كالا وحسنا . فزابدت فيها العرب والموالي  
حتى بلغوا بها تسعين ألفا . فقام رجل من قريتها . عبد القيس . وكان من  
رهوس الخوارج . فقال : تنحوا هكذا . ما أرى هذه المشركة إلا قد فتنتكم  
فضرب عتقها . فأخذوه إلى قطري . فقالوا : يا أمير المؤمنين إن هذا استهلك  
تسعين ألفا من بيت المال . وقتل أمة من إمام المؤمنين فقال الرجل : يا أمير  
المؤمنين . إني رأيت هؤلاء تنازعوا عليا حتى ارتفعت الأصوات ، وأحمرت  
الخدق . فلم يبق إلا الحبط بالسوف . فرأيت أن تسعين ألفا في جنب  
ما خشيت من الفتنة بين المسلمين هينة . فقال قطري : قد أصبت وأحسن  
خلوا عنه . عين من عيون الله أصابتها .

آلم عبد الملك ما حدث . وكان حسن الرأي في المهلب عظيم الثقة به ، فأرسل إلى أخيه بشر وإلى السكوفة أن يعدّ خالدًا بجيش لقتال الخوارج فأمدّه بخمسة آلاف عليهم عبد الرحمن بن الأشعث . وكتب له عهدًا . على « الرى » إذا انتهى من غزوته هذه ، وأمدّم بشر بعد ذلك بأربعة آلاف من أهل السكوفة عليهم عتاب بن ورقاء ، فكايدهم الخوارج في أرض فارس . وفروا أمامهم حتى أجهدوهم ومات خيول أكثرهم . وأصابهم الجوع . ورجع أكثر الجند مشاة إلى الأهواز .

وكان لخالد بن عبدالله أخ اسمه أمية أرسله إلى البحرين لمحاربة أبي قديك الخارجي الذي غلب على تلك البلاد بعد أن قتل نجدة بن عامر وجاء أمية بجند كثيف إلى البحرين هزمه الخوارج

### بشر وإلى البصرة

عزل عبد الملك خالدًا لهذه المزامم . وجعل مكانه بشر بن مروان ، وأمره أن يولى المهلب أمر الحرب مع الخوارج . وقال له : فابعث المهلب في أهل مصره إلى الأزارقة . وليتخب من أهل مصره وجوهم وقرسانهم وأولى الفضل والتجربة منهم فإنه أعرف بهم . وخله ورأيه في الحرب . فأبى أوثق شيء بتجربته ونصيحته المسلمين

وأمره أن يرسل جيشاً آخر من أهل السكوفة ، تجهز جيشاً منها عليه عبد الرحمن بن مخنف وأمره أن يخالف المهلب ولا يقبل له مشورة ولا رأياً . وذلك أنه كره أن يرغم على إرسال المهلب . وأن تكون توليته من عبد الملك ، وأى نصيحة هذه ؟ إنه لو عمل بها عبد الرحمن بن مخنف لأخضعت الجيشين معاً ، ولكن ابن مخنف كان عاقلاً . فأبى أن يستمع له . وقال : ما أعجب ما طمع فيه هذا الغلام ! يأمرني أن أصغر شيخاً من مشايخ أهلى . وسيداً من ساداتهم !

ولكن ما سبب هذه الغيرة من المهلب ؟ يعزله خالد بن عبد الله ، ويكرهه بشر ويعارضه في اختيار جنده ، ويأمر قائدا آخر بحجب أن يتعاون معه ، بأن يفسد عليه رأيه ؟

يخيل إلى أن هذين الرجلين كانا يريدان أن يطير لهما ذكر في حرب الخوراج ولا ينالن ذلك إلا إذا أبعد المهلب ، وقد يلتبس بعض المؤرخين لهما العذر فيقول : هذا الرجل حارب لابن الزبير ، ولا حرج على بني أمية أن يبعدوه ، ويتولوا أمورهم بأنفسهم . ولكن عبد الملك كان يراه قائداً مخلصاً بصيراً بالحرب ، ولا يرى هواه مع آل الزبير . وكان أبعد نظراً من أخيه وقربيه .

### سنة بشر على العصاة

كان الخوارج أشداء على جيوش العراق ، وكانوا قد أفرغوا الجنود التي تحاربهم وأرهبوهم وكثروا فرار الجند إلى بلادهم وأهلهم . فاضطر بشر بن مروان أن يعاقب الفارين ، ويحدثنا تاريخ الأديب بذلك في قصة لا نرى بأساً بذكرها : كتب أبو علي القالى في صفحة ٣٠ من الجزء الثاني من الآمال : يقول كان بشر بن مروان شديداً في معاقبة العصاة ، فكان إذا ظفر بالعاصي أقامه على كرسى ، وسمر كفيه في الحائط بمسمار ، ونزع الكرسي من تحته فيضطرب معلقاً حتى يموت .

وكان قى من بني عجل مع المهلب ، وهو يحارب الأزارقة . وكان عاشقاً لابنة عم له ، فكتبت تستزيه ، فكتب إليها :  
لولا عفاة بشر أو عقوبته ۞ أو أن يُشدَّ على كفتي مسمار  
إذا لعطلت ثغرى ثم زرتكم ۞ إن المحب إذا ما اشتاق زوار  
فكتبت إليه :

ليس المحب الذي يخشى العقاب ولو ۞ كانت عقوبته في إلفه النار  
بل المحب الذي لا شيء يمنعه ۞ أو تستقر ومن يهوى به الدار

قال : فلما قرأ كتابها عطل ثغره ، وانصرف إليها وهو يقول :  
 استغفر الله إذ خفت الأمير ولم أخش الذي أنا منه غير منتصر  
 فثأرت بشر بلحى فليعذبه أو يعفو أمير خير مقتدر  
 فما أبالي إذا أميت راضية ياهند ، مانيل من شعري ومن يشري  
 ثم قدم البصرة ، فاقام إلا يومين حتى وثى به واس إلى بشر . فقال ،  
 على به . فأتى به . فقال : يا فاسق عطلت ثغرك اهلوا الكرسي . فقال أعز الله  
 الأمير ، إن لي عذرا . فقال : وما عذرك ؟ فأنشده الآيات ، فرقى له ،  
 وكتب إلى المهلب فأنبته في أصحابه .

طارد المهلب الأزارقة من الفرات إلى الأهواز ثم إلى فارس وأبلى ابنه  
 يزيد أحسن البلاء وهو في الحاية والعشرين من عمره . وكذلك ابنه المغيرة .  
 ثم بلغه نعي بشر بن مروان فاضطرب أمر جند الكوفة على بن عتف .  
 يقول أبو العباس المبرد (١) : فجعل الجند من أهل الكوفة يتسللون حتى  
 اجتمعوا بسوق الأهواز . وأراد أهل البصرة الانسلاخ من المهلب ، فخطبهم  
 فقال : إنكم لستم كأهل الكوفة : إنما تذبون عن مصركم وأموالكم وحرملك .  
 فأقام منهم قوم وتسلل كثيرون . وعلم خليفة بشر على البصرة بذلك  
 فأرسل إليهم كتابا يهدد من ينصرف عاصيا بالقتل ، فلم يغن هذا الكتاب  
 شيئا ، وتسلل الجند وجاءوا إلى الكوفة ، وأرادوا دخولها فنعهم أميرها ،  
 فدخلوها عنوة وبني المهلب ومعه بن عتف وعدد قليل .

كان من الطبيعي أن يعلم عبد الملك بهذا كله ، وأن يدبر أمره سريعا  
 بعد موت أخيه . فلم يجد في ولاته من هو أشد بطشا وأحزم رأيا من الحجاج  
 وقد جربه من قبل مرتين مع جند الشام ، ومع ابن الزبير في الحجاز ، فليجربه  
 هذه المرة كذلك . فولاه العراق .



## ولاية الحجاج على العراق سنة ٧٥ هـ

نقله عبد الملك من الحجاز إلى العراق : ونصر صاحب العقد الفريد ، على أنه جاء ليحشر الناس لحرب الأزارقة مع المهلب بن أبي صفرة ، والحجاج نفسه ينصر على ذلك في أول خطبة له على منبر السكوفة .  
ومادامت غايتنا الأدبية من هذا الكتاب واضحة فلا مانع من إيراد هذه الخطبة هنا لأنه مكانها الطبيعي ، بعد أن ذكرنا المقدمات التاريخية التي تعين على فهمها ، ومعرفة ظروفها وملايساتها .

أول خطبة له بالعراق :

يقول المبرد : سار الحجاج من الحجاز إلى السكوفة في اثني عشر راكبا على النجائب فلما دخلها بدأ بالمسجد . فدخله معتما بهامة قد غطي بها أكثر وجهه . متقلدا سيفاً ، متسكبا قوساً<sup>(١)</sup> وسار حتى صعد المنبر . ويحدثنا كذلك أن أهل السكوفة كانوا يعلمون بقدومه . وأن الناس كانوا في فرع منه فلما خطب هذه الخطبة الملتبئة ، وقد سبقته إليهم شهرته ، استكانوا وفرغوا . صعد الحجاج المنبر ومكث ساعة لا يتكلم . وكان مثاثا ، فقال بعض الجالسين لعن الله هذا ولعن من أرسله إلينا ، أرسل إلينا غلاما لا يستطيع أن ينطق عيا . وأراد بعض الجالسين أن يرميه بالحصى ، فقال له جليسه : لا تعجل حتى تنظر ما يصنع . فلما رأى عيون الناس إليه حصر اللثام عن فيه وقال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العامة تعرفوني<sup>(٢)</sup>

(١) متقلدا سيفاً ، قد علق سيف في عنقه ، متسكبا قوساً : وضع الخرس عن كتفه .

(٢) « متى ثبتت : أنا الرجل المشهور المعروف ، الذي يحرض الصعوبات ، وإذا لم يستطع ملاصق الحرب ظهر لكم أسرى وعرفتم حقيقتي : أما ابن جلا فويل منه : ابن رجل جلا الأمور ووضعها وفيل : هو كناية عن الصبح لأنه يجر كغلام ، وقيل ابن جلا رجل بيده كازة فكانت تعرب يطلع =

ثم قال : يا أهل العراق ، إني لأرى رموساً قد أبتعت <sup>(١)</sup> وسان قظافها  
وإني لصاحبها ، وكأني أنظر إلى الدماء تفرق بين العائم والحي ، ثم قال :  
هذا أوان الشد فاشتدى زيم قد لفها الليل بسواق حطم  
ليس براعى إبل ولا غنم ولا يحزار على ظهر وضيم <sup>(٢)</sup>  
ثم قال :

قد لفها الليل بعصلي <sup>(٣)</sup> أرؤع <sup>(٤)</sup> أخراج من الدوى <sup>(٥)</sup>  
مهاجر ليس بأعرافي  
ثم قال :

قد شمرت عن ساقها فشددوا وجدّت الحرب بكم فبدّوا  
والفوس فيها وترّ عرّ <sup>(٦)</sup> مثل ذراع البصر أو أشد  
لا بدّ مما ليس منه بدّ

إني والله يا أهل العراق ، ما يُفَقِّعُ لي بالشتان <sup>(٧)</sup> . ولا يُغْزِمُ

على الناس من ثياب الجبال ، والتايا جمع ثبة كفضية ، وهي الطريق في الجبل ، والقامة المنفر والبيعة  
تلبس في الحرب لحفظ الرأس من ضربات السيوف ، ولتبت السمع بين وتيل الزياحي .  
( ١ ) أبتعت : فضحت وأنى أوان قظافها .

( ٢ ) هذه الأبيات لشاعر قديم اسمه دويشد بن ربيض النيزي . الشد : العدو ، زيم : اسم فرسه  
أو ناقته . والسواق الحطم : القاسى الذى يسوقها بمنف وشدة فتدفع إليهم بعضها بعضاً : والوضيم .  
كل ما خلع عليه الدم . فهو يريد أن يقول : إن هذا وقت الجهد سكوت شديد يا غرس ، فقد رمى  
الله هذه الرعية بوال شديد قاس عيف ، يسوس جماعة من العصاة لا فليماً من الإبل والغنم ، وليس  
مهيئاً سقيراً بل هو معروف مشهور .

( ٣ ) العصلي : الشد الفوى .

( ٤ ) الأرؤع : الذكى .

( ٥ ) الدوى والعريه ، الغلاة المقسة ، ولقى يسع لها دوى بالليل . أى خراج من كل شدة .  
وهو مهاجر أى ليس غراً سافداً كالأعرابي .

( ٦ ) الوتر العرد : الشديد ، فإذا رمى أرسل إليهم قوياً فيقتل . ووجدت بهم الحرب أى اشتدت .  
وهذه الأبيات استشهد بها الخليل ليعلم لأهل العراق أنه جاءهم في وقت شدة وأنه سيأخذهم  
بالثبّة كما يأخذ السواق الحطم ماشيته ، وأنه يصير بحرب ذكى .

( ٧ ) فقع بالشتان : ضرب عليها فقع لها صوت ففقت الإبل . والشتان جمع شت بالفتح :  
الجلد اليابس كالقربة اليابسة ونحوها .

جانبى كسغاز التين<sup>(١)</sup> ، ولقد قُصِرَتْ<sup>(٢)</sup> عن ذكاه ، وقسّشت عن تجربة .  
 وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه — شر كُنْثاته<sup>(٣)</sup> بين يديه . فعجم<sup>(٤)</sup> عيدانها ،  
 فوجدنى أمرها عوداً . وأصلبها مكسراً ، فرماكم بى ، لأنكم طالما  
 أوضعتم<sup>(٥)</sup> فى الفتنة . واضطجعت فى مرأقد الضلال . والله لأحزمنكم  
 حزم السَّلمة<sup>(٦)</sup> . ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل<sup>(٧)</sup> ، فإنكم لكأهل  
 قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم  
 الله . فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

وإنى والله لأقول لإلاوقيت . ولا أهتم إلا أمضيت<sup>(٨)</sup> ، ولا أخلق  
 إلا فريت<sup>(٩)</sup> . وإن أمير المؤمنين قد أمرنى أن أعطكم أعطيانكم<sup>(١٠)</sup> ،  
 وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع الملب بن أبى صفرة . وإنى أقسم بالله لأجد  
 أحداً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه . وأنهيت ماله<sup>(١١)</sup> ،  
 وهدمت منزله .

ثم قال : يا غلام . اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين . فقرأ عليهم :  
 بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ، إلى

(١) ولست لين المنز .

(٢) قصرت : أى اختبرت فكشف ذلك الاختبار عن ذكاه .

(٣) كُنْثاة : رعاء النعام .

(٤) عجم المود : عطه بأستانه ليصرف مقدار صلاحته .

(٥) أوضع : أضرع .

(٦) السَّلمة : شجرة كثيرة الثول ، إذا أريد قطع أوراقها جمعت أنصافها وورطت بقده .

(٧) أضربكم ضرباً شديداً كما تضرب الإبل الضرية إذا أريد طردها عن المرعى أو المود .

(٨) لا أهتم بعمل إلا أتمته وفضته .

(٩) خلق الأديم والتطع قدره وسوره قبل أن يقطعه . فإذا قطعه قيل فراه . والمقصود : إنى لا أحزم  
 على عمل إلا أتمته .

(١٠) أعطيات جمع أعطية فتح المعزة وتخفيف القياد . وهذه جمع عطية . فهى جمع جمع . والعطية  
 ما يعطى من مال ونحوه .

(١١) وأنهيت ماله : جعلته مباحاً لمن يهبه .

من بالسكوفة من المسلمين . سلام عليكم ، فلم يقل أحد شيئاً . فقال الحجاج : اسكت يا غلام ! ثم أقبل على الناس فقال : أسألكم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا شيئاً ! أهذا أدب ابن نبيه <sup>(١)</sup> والله لاؤدبكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن . اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين ، فلما بلغ إلى قوله : سلام عليكم ، لم يبق أحد في المسجد إلا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام .

ثم نزل فوضع للناس أعطيائهم ، فجعلوا يأخذون ، حتى أتاه شيخ يرعش كبراً ، فقال : أيها الأمير : إني من الضعف على ما ترى ، وإن لي ابناً هو أقوى على الأسفار مني . فقالوا أجزوا ابنه عنه فإن الحدث أحب إلينا من الشيخ فلما ولى قال له عنبسة بن سعيد . أيها الأمير : هذا الذي ركض عثمان برجله وهو مقتول فكسر ضلعين من أضلعه . والذي يقول أبوه :

هَمَمْتُ ولم أَفْعَلْ وكَدْتُ وليتني تركتُ على عثمان نَبِيَّ حَلَالٍ لَهُ <sup>(٢)</sup>  
هذا عمير بن ضافية البرجمي .

فقال ردوه ، فردوه ، فقال : أيها الشيخ . هلا بعثت إلى أمير المؤمنين عثمان بدلاً يوم الدار ؟ إن في قتلك أيها الشيخ صلاحاً للمسلمين ، يا حرسى : اضرب عنقه .

فجعل الرجل يضيق عليه أمره فيرتحل ويأمر وليه أن يلحقه بزاده ، وفي ذلك يقول عبد الله بن الزبير الأسدي .

أقول لعبد الله يوم لقيته أرى الأمر أمس مُنْصَباً <sup>(٣)</sup> متشعباً  
تجهز فإما أن تزور ابن ضافية عميراً ، وإما أن تزور المهلبا  
هما خطنا خسف نجاؤك منهما ركوبك حوليا من الثلاج أشبها  
فإإن أرى الحجاج يغمس سيفه يد الدهر <sup>(٤)</sup> حتى يترك الطفل أشبها  
فأضحى ولو كانت خراسان دونه رآها مكان السوق أو هي اقربا

( ١ ) ابن نبيه : ربح كان على شريطة السكوفة قبل عبيد الحجاج .

( ٢ ) الحلال : الزوجات . ( ٣ ) منبأ : متبعا .

( ٤ ) يد الدهر : طول الزمن .

وقد صدق ظن هذا الشاعر .

وهذه أول خطبة له في العراق ، وهي تنذر بشر عظيم ، وتوضح السياسة التي أراد الحجاج أن يسير عليها في حكم تلك البلاد ، ويرى بعض المؤرخين أنها سياسة خرقاء لا تصلح أمة . بل تسوقها إلى الذل والضعف ، أو تملأ نفوسها حقداً وصدورها ضعينة حتى تنفجر يوماً ما .

ولكن السوابق التي سبقت في العراق تبرر شدة الحجاج ، فقد كانت الثورات متوالية والعصيان شائعا ، والقعود عن حرب العدو ، والفرار من الجيوش أمورا عادية ، وأساء إليهم زياد وابنه فصلح أمرهم في أيامهما .

ورأى بشر بن مروان من فرارهم من الجيوش ، ما دعاه إلى أن يعذبهم بالكرسی الذي سبقت الإشارة إليه ، فلما مات فروا ودخلوا الكوفة قهراً مع أن الخوارج كانوا قرييين منهم ، ويستبشرون دماءهم وأموالهم . ويقتلون أبنائهم ويسبون نساءهم .

إن عبد الملك كان معذوراً في أن يرميهم بالحجاج . أما الحجاج فالثقة من طبعه ، وتلك أخلاقه . وقد ثارت عليه ثورات بسببها ، ولكنه كان حسن الحظ ، فأخذت الثورات ، وأضعف الخوارج حتى كاد يقضى عليهم . وقد ذهب إلى البصرة بعد الكوفة ، فخطب في أهلها خطبة شديدة كخطبته السابقة ، ومما قاله فيها :

« والله لا أمّر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه » .

فهو رجل يدين بالطاعة لولى الأمر ، وقد كان هو من خير الأمثلة لطاعة عبد الملك وابنه الوليد من بعده .

وجاءه رجل يعتذر بمرض . ويخبره أن بشر بن مروان قبل عذره . فلم يقبل منه وقتله . ففرغ أهل البصرة ، وخرجوا يتدافعون إلى المهلب كما فعل أهل الكوفة .

مخرج عبد الله بن الجارود عليه :

رأى الحجاج أن ينقص من عطاء الجند ما زاده ابن الزبير ، فأخبره ابن الجارود أن عبد الملك أقرها فهي زيادته ، وأتقذها على يد أخيه بشر . فكان رد الحجاج عليه : « ما أنت والكلام ! لتحسن حمل رأسك ، أو لاسلبك إياه . » ولكن ابن الجارود لم يحسن حمل رأسه ، ولم يسكت ، فقد تكلم الحجاج مرة ثانية في العطاء ، فرد عليه ابن الجارود مثل رده الأول ، فرأى الشر من الحجاج ، فثار هو وأهل البصرة عليه ، فاحتال عليهم ، وضم كثيراً منهم إليه ، وفرق بين أصحاب ابن الجارود ، ثم حارب من بقى فهزمهم . وحزن رءوسهم وأرسلها إلى المهلب ، لتكون نكالا لما بين يديها وما خلفها ، وموعظه للناظرين .

الخوارج والمهلب في زمن الحجاج :

ولى الحجاج العراق والناس متخاذلون عن حرب الخوارج ، وقد انتصر هؤلاء على جيوش الخليفة في أيام ولاية خالد بن عبد الله وبشر بن مروان ، فوجه إليهم عبد الملك هذا الرجل الميمون النقية ، المحرب للعروب ، البصير بأمر الخوارج وحيلهم . وهو المهلب ، ثم ولى الحجاج العراق ، فحمل الناس على حرب الخوارج حملا ، فأثروا الموت المظنون في حرب الخوارج على الموت المحقق في سجون الحجاج أو بيد شرطته ، وآثروا رفق المهلب بجنوده على بطش الحجاج بالمخلفين ، فكثرت جند المهلب وخافهم العدو . وقد كتب الحجاج إلى المهلب يظهر له حسن ثقته فيه كي يشد أزره ، فقال له :

« أما بعد . فإن بشرا امتكره نفسه عليك ، وأراك غناؤه عنك ، وأنا أريك حاجتي إليك ، فأرتى الجند في قتال عدوك . ومن خفته على المعصية ممن قبلك فأقتله . فإني قاتل من قبلى . » ثم بين سياسته التي تشبه سياسة زياد ،

فقال : « ومن كان عندك من ولى من هرب عنك ، فأعلنى مكانه ، فإنى أرى أن آخذ الولى بالولى والسسمى بالسسمى » .

فكتب إليه المهلب كتاباً يظهر فيه الفرق بين الرجلين فى معاملة الجند ، ورأى كل منهما فى الشدة والبطش : فقد كان الحجاج يرى أخذ الناس بالشدة والعنف ، حتى ليرى أخذ الولى بالولى ، والسسمى بالسسمى . أما المهلب فقد قال فى رده عليه :

« ليس قبل إلا مطيع ونادم على ذنبه ، وإن الناس إذا خافوا العقوبة أكبروا الذنب ، وإذا أمنوا العقوبة صغروا الذنب . وإذا يتسوا من العفو أكفرهم ذلك ، فهب لى هؤلاء الذين حمتهم عصاة . فإنما هم فرسان أبطال ، أرجو أن يقتل الله بهم العدو » .

وكانت طريقة المهلب فى حربهم أن يراوغهم ، فيكر عليهم ، ويفر منهم ويحذر بفساتهم ، ويرقبهم دائماً ، ويستعين عليهم بالخيال والدهاء .

وقتل ابن عتف فى حربهم فضم الحجاج جنده إلى المهلب ، ثم رأى أن يعين له شريكاً سنة ٧٦ ، فولى عتاب بن ورقاء واليه على أصفهان ، فظل مع المهلب ثمانية أشهر ، حتى ظهر شبيب الحرورى بالعراق ، فاستقدمه الحجاج لحربه . فقدم ، وقتل سنة ٧٧ .

#### عمل المهلب لتفريق بينهم :

كان المهلب يهزم الخوارج ويطاردهم فى فارس من مدينة إلى مدينة ، ولكن حيلته فى إيقاع الفرقة والشقاق بينهم كانت من أبرز ما يؤثر عنه فى حروبهم ، ولا بأس بذكر شىء منها :

قال أبو العباس المبرد : وكان سبب اختلافهم أن رجلاً حدادا من الأزارقة كان يعمل نصالاً مسمومة ، فيرمى بها أصحاب المهلب ، فرفع ذلك إلى المهلب ، فقال : أنا أكفيكموه إن شاء الله . فوجه رجلاً من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر قطرى ، فقال : ألقى هذا الكتاب فى عسكر قطرى ،

واحذر على نفسك . وكان الحداد يقال له « أبزى » — فغنى الرسول ، وكان في الكتاب :

« أما بعد ، فإن نصالك قد وصلت إلى ، وقد وجهت إليك بألف درهم ، فاقبضها ، وزدنا من هذه النصال » .

فوقع الكتاب والدرهم إلى قطرى . فدعا « أبزى » . فقال : ما هذا الكتاب ؟ قال لا أدري . قال : فهذه الدراهم ؟ قال : ما أعلم عليها . فأمر به فقتل . فجاء عبد ربه الصغير حول بنى قيس بن ثعلبة ، فقال له : أقتلت رجلا على غير ثقة ولا تبين ؟ فقال له : ما حال هذه الدراهم ؟ قال : يجوز أن يكون أمرها كذبا . ويجوز أن يكون حقا . فقال له قطرى : قتل رجل في صلاح الناس غير متكر ، وللإمام أن يحكم بما رآه صلاحا ، وليس للرعية أن تعترض عليه ، فتسكر له عبد ربه في جماعة ولم يفارقوه .

فبلغ ذلك المهلب ، فدمس إليه رجلا نصرانياً فقال له : إذا رأيت قطرياً فاسجد له ، فإذا نهاك فقل له : إنما سجدت لك . ففعل النصراني ، فقال له قطرى : إنما السجود لله . فقال : ما سجدت إلا لك . فقال له رجل من الخوارج : قد عبدك من دون الله ، وتلا : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » . فقال قطرى : إن هؤلاء النصارى قد عبدوا عيسى بن مريم ، فاضر ذلك عيسى شيئاً . فقام رجل إلى النصراني فقتله ، فأنكر ذلك عليه . وقال : أقتلت ذمياً ؟ (وكانوا يوصون بالنصارى خيراً ويقولون : احفظوا ذمة نبيكم) فاختلفت الكلمة اختلافاً ما .

فبلغ ذلك المهلب ، فوجه إليهم رجلا يسألهم عن شيء تقدم به إليه ، فأتاهم الرجل فقال : رأيتم رجلين خرجا مهاجرين إليكم ، فأت أحدهما في الطريق وبلغكم الآخر ، فامتحنموه فلم يجز المحنة<sup>(٢)</sup> ، ما تقولون فيهما ؟ فقال بعضهم : أما الميت فؤمن من أهل الجنة ، وأما الآخر الذي لم يجز

(١) وقد دعا .

(٢) الامتحان .



المحنة فكافر حتى يميزها ، وقال آخرون : بل هما كافران حتى يميزا المحنة ، فكثير الاختلاف ، فخرج قطرى إلى حدود اصطخر ، فأقام شهرا والقوم فى اختلافهم .

ثم زادت الخلافات بينهم على بعض المسائل ، وبابع قوم منهم رجلا تقدم ذكره ، هو عيدر به الصغير ، أو الكبير كما يسميه بعض الكتب . ونشبت بين الفريقين حرب ، فرأى المهلب أن يصبر حتى يرى عاقبتها ، ويأخذ المنتصر منهما ، ورأى الحجاج أن يتاجزهم المهلب وهم على خلافهم .

### الحجاج يعمى المهلب :

وكثيرا ما كان الحجاج يرى آراء وهو بعيد عن الميدان ، فيبحث بها إلى المهلب ، فينفذها وهو كاره . ويقول : رأى لمن يملكه لا لمن يبصره ، وكثيرا ما كان يرى العجلة فى حرب الخوارج . ويرى المهلب أن ينتظر الفرصة ، وجرت بينهما رسائل فى هذا الشأن ، ولولا حلم المهلب وسعة صدره . لضاق ذرعا بهذا التدخل . وثار عليه مثل ماثار ابن الأشعث . كما سيأتى ، ولكن المهلب كان رجلا سياسيا .

وجه إليه الحجاج رجلا اسمه الجراح يستحثه . وأرسل معه كتابا جاء فيه : أما بعد : فإنك جبيت الخراج بالعلل ، وتحصنت بالختناق ، وطاولت القوم . وأنت أعز ناصرا ، وأكثر عددا . وما أظن بك مع هذا معصية ولا جبنا . ولستك اتخذت ذلك أكلا . وكان يقاؤهم أسير عليك من قتالهم ، فتاجزهم ، وإلا أنكرتنى . والسلام .

فقال المهلب للجراح : « والله ما تركت حيلة إلا احتلتها ، ولا مكيدة إلا أعملتها . وما العجب من إبطاء النصر . وتراخى الظفر . ولستك العجب أن يكون رأى لمن يملكه لا لمن يبصره . »

وما حدث أن الحجاج أرسل إلى المهلب رسلا يتصلجونه . ويرون ما هو عليه فى محاربة الخوارج . فكان المهلب يخرج الرسل إلى الميدان ليروا

مايجرى بأنفسهم قتل واحد منهم ، وكان له صاحب في فرقة أخرى : فهرب حتى انتهت المعركة . قلبا كان العشي رجع ، وكان من ثقيف . فقال له أحد الشعراء :

ما زلت يا ثقيف تخطب بيتنا <sup>(١)</sup> وتغنينا بوصية الحجاج  
حتى إذا ما الموت أقبل زائرا      وسما لنا صرفا بغير مزاج  
وليت يا ثقيف غير مناظر تنساب بين أحزة وحجاج <sup>(٢)</sup>

موت قطرى :

كان أكثر الخوارج قد خلعوا قطريا ، وبايعوا عبد ربه . وكان أكثر من معه من العجم والموالي ، فخار بهم المهلب في مارك عنيفة حتى قتل عبد ربه . أما قطرى فقد سار بمن اتبعه إلى طبرستان ، ووجه إليه الحجاج جيشاً من الشام ، وأمر إسحق بن محمد بن الأشعث رئيس جيش السكوفة بطبرستان أن يعينه في قتال قطرى . فقاتله جنده حتى هزموه . ووقع هو من فوق دابته إلى أسفل شعب من شعاب طبرستان فمات . وتبع جند الحجاج من بقي من الخوارج حتى قضوا عليهم سنة ٧٧ هـ .

رسول المهلب إلى الحجاج :

ولما تمت الغلبة للمهلب على الأزارقة ، وقتل آخر زعمائهم عبد ربه الصغير سنة ٧٧ ، أوفد المهلب إلى الحجاج كعب بن معدان الأشقري ، ومرة ابن تليد الأزدي ليخبراه بالفتح ، وكتب إليه :

وبسم الله الرحمن الرحيم <sup>(١)</sup> الحمد لله الكافي بالإسلام فقد ما سواه ، المعجل الثمرة لمن بغاه ، الذي حكم بالآل ينقطع المزيد منه حتى ينقطع الشكر من عباده . أما بعد : فقد كان من أمرنا ما قد بلغك . وكنا نحن وعدونا على حالين مختلفين : يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا ، ويسوءهم منا أكثر مما

(١) الأحزة جمع حزين . وهو المكان المليط من الأرض .

يسرهم ، على اشتداد شوكتهم ، واجتماع كلمتهم . وانزعاج القلوب لمخافتهم .  
فقد كان علي<sup>(١)</sup> أمرهم حتى ارتفعت له الفتاة ، ونوم به الرضيع ، وصم  
لخوفهم السميع . فانهزت منهم الفرصة في وقت إمكانها ، وأدانت السواد  
من السواد<sup>(٢)</sup> حتى تعارفت الوجوه ، فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجله ،  
فقطعت دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .  
فذا طلعا عليه ، تقدم كعب فأثداه قصيدة جيدة في وصف الحرب ،  
فقال له الحجاج : أشاعر أم خطيب ، قال : كلاهما .

### وصف كعب الاستنري لبني المراهب :

فقال : أخبرني عن المهلب ، قال : المغيرة فارسهم وسيدهم . وكفى يزيد  
فارما نجاء ، وجوادهم وسخيم قبيصة ، ولا يستحي الشجاع أن يفر من  
مدرك . وعبد الملك سم نافع . وحبيب موت زعاف<sup>(٣)</sup> . ومحمد ليث غاب ،  
وكفالك بالمفضل نجدة .

قال : فكيف خلفت جماعة الناس ؟

قال : خلقتهم بخير . أدركوا ما أملوا وأمنوا ما خافوا .

قال : فكيف كان بنو المهلب فيكم ؟

قال : كانوا حماة السرح<sup>(٤)</sup> نهارا ، فإذا ألبوا<sup>(٥)</sup> ففرسان اليبات<sup>(٦)</sup> .

قال : فأبهم كان أنجد ؟

قال : كانوا كالحلقة المفرغة ، لا يندري أين طرفاها .

قال : فكيف كنتم أنتم وعدوكم ؟

(١) ظهور أمرهم .

(٢) السواد : قصد الكثير ، وطامة القامر .

(٣) دحاف : قاتل .

(٤) السرح : المال .

(٥) ألبوا : دنسوا في الليل .

(٦) اليبات : الاغارة ليلا .

قال : كنا إذا أخذنا عقوبتنا ، وإذا أخذوا يقبضنا منهم ، وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم .

فقال الحجاج : العاقبة للمتقين ، كيف أفلتكم قطري ؟

قال : كدناه ببعض ما كادنا به ، فصرنا منه إلى الذي نحب .

قال : فهلا اتبعتموه ؟

قال : كان الحد عندنا آثر من الفل (١) .

قال : فكيف كان لكم المهلب وكنتم له ؟

قال : كان لنا منه شفقة الوالد ، وكان له منا بر الولد .

قال : فكيف كان اغتباط الناس ؟

قال : نشأ فيهم الأمن وشملهم النفل (٢) .

قال : أكنت أعددت لي هذا الجواب ؟

قال : لا يعلم الغيب إلا الله .

قال : هكذا والله تكون الرجال ! المهلب كان أعلم بك حيث وجهك .

رد الحجاج على المهلب :

ولما قرأ الحجاج كتاب المهلب رد عليه يذكر أن الله قد فعل بالمسلمين خيراً ، ويدعوه أن يقسم القى ، ويفضل الذين يراهم أهلاً للتفضيل . ويولى على الخيل شهماً من ولده ، ويقدم عليه بمن يبق ولا يرخص لأحد في اللحاق بمنزله .

ثم جاءه المهلب فأكرمه وقال : يا أهل العراق ، أتم عيد المهلب ،

ثم قال له : أنت والله كما قال لقيط الايادي :

(١) الحد : النفع والمنع : الفل : الخزيمة .

(٢) النفل : وجهه أفاض : التهمة والحية .

وقلنوا أمركم الله دركم رجب قذراع يأمر الحرب منطلعا (١)  
لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه هم يكاه حساء يقطع الضلعا  
لامترفا إن رخاء العيش ساعده (٢) ولا إذا عض مكروده به خشعا (٣)  
ما زال يحلب هذا الدهر أشطره (٤) يكون متبعا طورا ومتبعا  
حتى استمرت على شرر مريرة (٥) مستحكما إلى أي لاقها ولا ضراعا (٥)

فقال له المهلب . إنا والله ما كنا أشد على عدونا ولا أحد ، ولكن  
دفع الحق الباطل وقهرت الجماعة الفتنة ، والعاقبة للتقوى . وكان ما كرهناه  
من المطاولة ، خيرا مما أحببناه من العجلة .

فقال الحجاج صدقت . اذكر لي القوم الذين أبلوا ، ووصف لي بلاءهم .  
فأمر الناس فكتبوا للحجاج على مراتبهم في البلاء ، وتفاضلهم في الغناء ،  
وقدم بنو المغيرة ، ويزيد ، ومدركا . وخبيبا ، وقبيصة . والمفضل ،  
وعبد الملك ، ومحمدا ، وقال : إنه والله لو تقدمهم أحد في البلاء لقدّمته عليهم .  
ولولا أن أظلمهم لأخرتهم .

قال الحجاج : صدقت ، وما أنت بأعلم بهم مني ، وإن حضرت أو غبت ،  
لأنهم لسيوف من سيوف الله .

وولى عبد الملك الحجاج خراسان سنة ٧٨ هـ . فولى عليها المهلب بعد أن  
انتهى من حرب الخوارج مكافأة له فغزا بلادا هو وأولاده ثم مات ابنه  
المغيرة سنة ٨٢ هـ ثم مرض المهلب ، ومات بمرور ورثاه نهار بن توسعة  
الشاعر بقوله :

( ١ ) رجب قذراع : كريم . منطلق : ينهض بأعيانها

( ٢ ) خشع : ذل .

( ٣ ) يحرب المهر ، وينظم من التجارب .

( ٤ ) استمرت : غريت . شرر : قتال . والمريرة الخيل ، والمقصود . قوت شكمته

( ٥ ) التعم : الكبر إلى جداء . المقترح قذليل المسكين .

ألا ذهب الغزو المقرَّب للغنى ومات الندى والجود بعد الملب  
أقاما بمرور الود رهن ضريحه } وقد غيَّبَا عن كل شرق ومغرب  
وقد نصح أولاده قبل موته بالاتحاد . وبما قاله لهم : « وعليكم بقراءة  
القرآن وتعليم السنة وأدب الصالحين . وإياكم والخفة . وكثرة الكلام  
في مجالسكم » .

اضطربنا إلى الاطالة شيئا ما في الحديث عن الملب وحروبه مع الخوارج  
والحق أن تاريخ الخوارج وأدبهم وتاريخ الملب وأولاده وحروبهم  
وفتوحهم . وعاقبة أمرهم جديرة بمؤلف خاص ولكني اكتفيت هنا بذكر  
طرف من أخبارهم وأدب الملب في رسائله ومحاوراته وحديثه ونصائحه  
وعسى أن نعود إلى ذكر شيء عن ابنه يزيد فيما بعد .

---

## ثورات العراق على الحجاج

تحدثت فيما سبق عن ثورة بن الجارود عليه ، وبينت أن الحجاج كان ظالماً له ، وقد قامت في العراق وما جاورها من بلاد فارس ثورات أخرى ، كاد بعضها يذهب بسلطانه ، من ذلك ثورة شيب الحرورى ومطرف ابن المغيرة بن شعبة ، وعبد الرحمن بن الأشعث .

### ثورة شيب :

أما شيب فقد كان من الخوارج الحرورية . وقد كان في أول أمره تابعاً لرجل اسمه صالح بن مسرح ، وكان صالح ناسكاً عاشعاً عابداً ، يقرئ أصحابه القرآن ، ويفقههم في الدين ، ويقص عليهم القصص — التاريخ — وأخبار عثمان ، ويظعن فيه ، وفي على ، ويدعو أصحابه إلى التبرئ منهما ومن الخلفاء بعدهما . ويدعو الناس إلى الخروج على الخليفة القائم ، وإلى القتال في سبيل الله حتى يلحقوا بأخوانهم الذين سبقوهم بإحسان إلى جنات النعيم .

وقد ذهب صالح إلى الحج سنة ٧٥ ، ومعه شيب ، وكان عبد الملك هناك فكاد شيب يفتك به . فلما رجع صالح إلى الموصل راسل شيباً لمبارآه من الاتفاق معه في الرأي ، فقبل شيب أن ينضم إليه على أن يكون صالح أمير المؤمنين . وخرجت الحرورية في صفر سنة ٧٦ هـ

وقاتلوا الحجاج في كثير من المواطن ، واقتحموا عليه الكوفة مرة ، وأقاموا بها ، وبنوا مسجداً لصلاتهم ، وهزمهم وهزموه . ثم مات صالح فولى أمر الحرورية شيب بن يزيد الحرورى ، فأرسل إليهم عبد الملك جيشاً من أهل الشام ، وانتدب الحجاج لحربهم عبد الرحمن بن الأشعث فهزموه وعتاب ابن ورقاء فقتلوه ، ثم ظهر جيش الحجاج عليهم ، وطاردهم من موطن إلى موطن حتى لحقهم بحسر الأهواز ، وأراه شيب أن يعبر النهر ففرق ، ويقال إن جثته أخرجت ، وشق عن قلبه فوجد صليبا متجمعا كأنه صخرة ، وكانوا

يضربون به الأرض فيرتد إلى أعلى قدر قامته الرجل ، ثم شق قلبه فوجد فيه قلب ثان ، ثم هذا القلب الثاني فوجدت فيه علقه من دم . وهذا خبر يحتمل الصدق والكذب ، وهو جدير بالقراءة . ولكن الجدير بالاعتجاب حقا أن هؤلاء الخوارج كانوا يقابلون جيوش يزيد عليهم عشرات المرات ، فيزموهم ويقتلون منهم أضعاف ما يقتل من الخوارج .

والخلاصة أن الحجاج استراح من الخوارج أزارقة وحرورية في عام واحد سنة ٧٧ أو سنة ٧٨ على اختلاف في الرواية .

وقد كان الخوارج قذائين ، فرسانا شجعانا ، أشداء . يدافعون عن عقيدتهم بإخلاص وشجاعة لم يسمع بمثلا في التاريخ إلا قليلا ، وكانوا يطلبون الشهادة ، وكثيرا ما فر الموت منهم وهابهم القتل . وأذاقوا أعدامهم الويل والنكال .

### نورة مطرف بن المغيرة :

كان للمغيرة بن شعبة عدد من الأبناء ، وكان الرجل هو وأولاده أمويين لحما ودما من عهد معاوية ، وكانوا ولاية لبي أمية ، فكان عروة بن المغيرة واليا على الكوفة ، ومطرف هذا على المدائن ، وحمزة على همدان للحجاج . فلما خرج شيب ، أرسل إليه مطرف يدعوهُ أن يرسل إليه بعض أصحابه ليجاده فلما سمع مطرف كلام الذين أرسلهم شيب قال لهم : ما دعوتكم إلا إلى حق ، وما نقعتم إلا جورا ظاهرا ، ودعا الحرورية إلى مبايعته فأبوا .

وذكر مطرف لأصحابه ظلم الحجاج وعبد الملك ، وأنه يرى مناهضتهما وخلقهما لله ولدينه ولجماعة المسلمين ، فلم يستجب له إلا نقر قليل ، تخاف العاقبة ، وسار من المدائن إلى الجبال ، وفر من بلد إلى بلد في شمال فارس فأرسل الحجاج إليه جيشا حاربه وقتله .



## ابن الأشعث :

كان عبد الرحمن بن الأشعث قائداً من قواد الحجاج في حرب الأزارقة ، وفي حرب شبيب الحروري ، وفي سنة ٧٩ هـ اضطرب الحجاج أن يحارب غير الخوارج من أمراء العجم فقد كان رُتيل ، ملك كابول مصالحا للمسلمين على جزية يدفعها ، ولكنه كان كثيراً ما يمنعها ، فتغيظ الحجاج . وأراد أن يلزمه الطاعة ، وينزله على شروط المصالحة التي كانت بينه وبين المسلمين . فعين عبيد الله بن أبي بكره ، والى سجستان ، لحربه ، فطارده جيش عبيد الله وهزمه في أكثر من موقعة ، ثم ثبت ، رتيل ، فراجع جيش عبيد الله ، فغضب الحجاج ، واستأذن عبد الملك في إعداد جيش كبير يغزو بلاده .

أعد جيشاً كبيراً يضم عشرين ألفاً من أهل البصرة ، ومثلهم من أهل السكوفة . وجيزهم بالسلاح والزاد والخيول . وجعل عليه عبد الرحمن ابن الأشعث ، فسار حتى أتى سجستان فجمع أهلها وخطب فيهم :

« إن الحجاج ولاني نعمكم ، وأمرني بمهاد عدوكم ، الذي استباح بلادكم ، فأياكم أن يتخلف منكم أحد فتعصه العقوبة ، فمسيكروا مع الناس وتجهزوا . ولما علم رتيل بجيش ابن الأشعث أظهر الطاعة ، ووعده بدفع الجزية ، فلم يقبل منه . وفر رتيل ، وسقط كثير من بلاده وحصونه في يد ابن الأشعث . فولى عمالاً على البلاد التي استولى عليها ، ووضع حراساً على الأماكن التي يظن فيها الخطر كالشعاب ، والعقاب ورواس الجبال .

ثم رأى — بعد أن كثرت فتوحه — أن يتوقف ليتعرف على البلاد التي استولى عليها ، وينظم جباية الخراج فيها ، وألف المسلمون حياتها ، ويخبروا مسالكها وطرقها . ثم يتم الفتح بعد ذلك . وكتب إلى الحجاج برأيه .

فرد عليه الحجاج يلومه على التوقف ، ويتهمة بحب المواجهة ، ومع عدو ذليل قليل ، قد أصاب من المسلمين جنداً كان بلاؤهم حسناً ، وغنائم عظيماً ،

ويدعوه أن يطارده العدو وكتب إليه ثانية وثالثة ، وهدده بالعزل وتولية أخيه اسحق بن محمد بن الأشعث مكانه .

فدعا ابن الأشعث الشام ، وبين لهم وجهة نظره ووجهة نظر الحجاج ، فثارت ثارتهم ودعوه إلى خلع الحجاج ، وبابعوه على حربه هو بدلا من رتييل ، فعلم الحجاج بذلك ، فأرسل إلى عبد الملك يستنجد به ، فأمدّه ، وخرج من البصرة إلى « تُسْتَر » فقابلّه هناك جند ابن الأشعث فهزموه ، فرجع إلى البصرة ، وكان أهلها حانقين عليه ، وبخاصة أهل الذمة منهم لأنه أخرجهم من البصرة إلى القرى وأخذ منهم الجزية كأنهم لم يسلموا .

#### يوم الزاوية :

سار بن الأشعث في أثر الحجاج إلى البصرة . والتقى جند العراق بجند الشام . فهزم جند العراق مع ابن الأشعث في يوم « الزاوية » ، <sup>(١)</sup> فانسحبوا نحو الكوفة ، فأكرموا مشايرهم ، وخرجوا معهم على الحجاج وطرّدوا عامله من الكوفة .

#### دير الجماجم سنة ٨٣ :

تبعهم الحجاج إلى الكوفة والتقى بهم في دير الجماجم قريبا منها . وكان مع ابن الأشعث عدد كبير من أهل البصرة والكوفة وأهل الثغور حتى بلغ عدهم مائة ألف يأخذون العطاء ، وثلثهم من يفضون الحجاج . وخشى عبد الملك عواقب هذه الثورة الجارحة العاصفة ، فعرض على أهل العراق أن يعزل الحجاج ، إن كان عزله يرضيهم ويردهم إلى طاعته . ويجرى عليهم العطاء كأهل الشام ، وترك لابن الأشعث أن يختار بلدا في العراق ينزله ويكون واليا عليه ما دام كل منهما حيا ، وأن يولى على العراق أخاه محمد بن مروان . وإذا أبى أهل العراق بني الحجاج واليا على العراق ، وواليا للقتال .

(١) موضع قرب البصرة .

خشى الحجاج أن يضع سلطانه . وتذهب ريحه سريعاً . وخشى شراً من العزل ، ففكر في إثارة عبد الملك على هؤلاء الناس وقال له في كتاب أرسله إليه : والله لو أعطيت أهل العراق زعي لم يلبثوا إلا قليلاً حتى يخالفوك ويسيروا إليك ولا يزيدكم ذلك إلا جراً عليك . ألم تر ، ويلغك ، وثوب أهل العراق مع الأشعث على عثمان بن عفان ، وسؤاله نزع سعيد بن العاص ، فإذا نزع لم تتم السنة حتى ساروا إلى عثمان فقتلوه ؟ وإن الحديد بالحديد يفلح .

فلم يرض أهل العراق بهذه الشروط . وأبو إلا القتال ، وإن كان عبد الرحمن بن الأشعث على غير رأيهم ، إذ كان يرى قبول هذه الشروط .

ف رأى عبد الملك ألا بد من حربهم ، واستأنف الفريقان القتال واستمر حامياً زمناً طويلاً في دير الحجاج . ثم دارت الدائرة على أهل العراق وفر ابن الأشعث في ١٤ جمادى الآخرة سنة ٨٢ هـ إلى البصرة فتبعه الحجاج ففر إلى سجستان ، فأكرم رتبيل منزله ، وكان كثير من جنده قد هرب إلى تلك البلاد أيضاً ، فجمعوا أمرهم ، وساروا إلى خراسان وعليها يزيد بن المهلب ، فأمرهم أن يعودوا من حيث أتوا وإلا حاربهم مكرهاً . فلما أبصر حاربهم وهزمهم وتفرق أصحاب ابن الأشعث .

أما هو فهرب إلى بلاد رتبيل مرة أخرى ، فأرسل الحجاج يطلبه ، ويتوعد رتبيل إن لم يسلمه ، تخاف العاقبة ، وأراد القبض على ابن الأشعث ، فألقى نفسه من فوق قصره فمات ، وقطع رتبيل رأسه وأرسله إلى الحجاج سنة ٨٥ هـ .

بهذا انتهت ثورة ابن الأشعث التي كادت تذهب بالحجاج ، وكاد عبد الملك يعزله لإرضاء للثائرين ، والحق أنه هو المسؤول عن خروج رجل كابن الأشعث ، فإن اتهامه لقواده ، وتدخله في شئونهم وهو بعيد عن الميادين والبلاد التي تدور فيها المعارك ليس من الخزم في شيء ، ولكنها طبيعة الاستبداد والطفيلان .

التي ملكت على الحجاج أمره . وقد كان هذا موقفه مع المهلب في حرب  
الحواريج ، ولولا حلم المهلب ورزاقته لثار على الحجاج أيضا .

وكان لشدة في رسالته إلى هؤلاء القواد المجريين ، واتهامه لهم بحب  
الموادة لتطول أيام الحرب ويأخذ هؤلاء القواد أجرم ، كان لهذا أثر  
سوى في نفوسهم ونفوس جندهم ، وقد نزل بعض القواد على رأيه مثل  
عبيد الله بن أبي بكر فأصابهم الوبل ، ولعل ابن الأشعث كان يرى هذه الهزيمة  
التي لحقت بعبيد الله ناشئة من استماعه لنصيحة الحجاج .

وقد خطب الحجاج بعد دير الحجاج خطبة من أشهر خطبه وأهمها مثل  
خطبته حين ولي العراق فقال : يا أهل العراق ، إن الشيطان قد استبطنكم <sup>(١)</sup>  
تخالط اللحم والدم والعصب ، والمسامع والأطراف ، والأعضاء  
والشغاف <sup>(٢)</sup> ثم أفضى إلى المخاخ والأصماغ <sup>(٣)</sup> ثم ارتفع فغشش ، ثم  
باض وفرخ فحشاكم شقاقا ونفاقا ، وأشعركم خلافا . اتخذتموه دليلا تتبعونه ،  
وقائدا تطيعونه ومسؤا مرا <sup>(٤)</sup> تستشيرونه ، فكيف تنفعكم تجربة أو تعظمكم  
وقعة ، أو يحجزكم إسلام ، أو ينفعكم يان ؟ ألسنتم أصحابي بالأهواز حيث رمت  
المسكر ، وسعيتم بالغدر ، واستجمعتم للكفر ، وظننتم أن الله يخذل دينه  
وخلافته ، وأنا أرميكم بطرفي ، وأتم تسالون لوإذا <sup>(٥)</sup> وتهزمون سراعا ؟  
ثم يوم الزاوية ، وما يوم الزاوية ؟ بها كان فشلكم ، وتنازعكم وتخاذلكم  
وبراءة الله منكم ، ونكوص <sup>(٦)</sup> وليكم عنكم ، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى  
أوطانها ، النوازع إلى أعطانها <sup>(٧)</sup> لا يسأل المرء عن أخيه ، ولا يلوى <sup>(٨)</sup>  
الشيخ على بنيه ، حتى تعضكم السلاح ، وفصمكم الرماح .

( ١ ) نزل إلى بملك وماله كل حواسك وشعورك .

( ٢ ) الشغاف غلاف القلب .

( ٣ ) الأصماغ . فصحات الأذن الداخلية التي تفضي إلى المخ .

( ٤ ) مؤامرا : مستشارا . ( ٥ ) أي يلوذ بحكم بعض . ( ٦ ) رجوع وليكم عنكم .

( ٧ ) الأعطان : مبارك الأبل ، وبضرب المثل بشدة حين الأبل إلى مباركها .

( ٨ ) لا يلتفت إليهم ولا ينتظرهم .

ثم يوم دبر الخامج ، وما يوم دبر الخامج ! بها كانت المبارك والملاحم  
بضرب يزيل الهام عن مثيله <sup>(١)</sup> ، ويذهل الخليل عن خليله .  
يا أهل العراق ، والكسرات بعد الصجرات <sup>(٢)</sup> ، والعدرات بعد  
الخصرات <sup>(٣)</sup> ، والشروات <sup>(٤)</sup> بعد الزوات ، إن بعثكم إلى ثغوركم  
غلبكم <sup>(٥)</sup> ، وخنكم ، وإن أمتكم أرجفكم <sup>(٦)</sup> ، وإن خفتم نافقتم . لا تذكرون  
حسنة ، ولا تشكرون نعمة . هل استخفكم ناكث أو استغواكم غاو ، أو  
استنصركم ظالم أو استعصمكم <sup>(٧)</sup> خالغ : إلا تبعثموه وآوتهموه ونصرتموه  
وزكيتموه ؟

يا أهل العراق ، هل شغب شاعب ، أو نعب ناعب ، أوزفر زافر ،  
إلا كنتم أنباة وأنصاره ؟

يا أهل العراق : ألم تنهكم المواقظ ؟ ولم ترجركم الوقائع ؟

ثم التفت إلى أهل الشام ، وهم حول المنبر فقال :

يا أهل الشام ، إنما أنا لكم كالظليم الراجح عن فراخه <sup>(٨)</sup> ، ينق منها

المدر <sup>(٩)</sup> ، ويباعد عنها الحجر . ويكسبها من المطر ، ويحميها من

الضباب <sup>(١٠)</sup> ، ويجرسها من الذئب . يا أهل الشام : أقيم الجنبه والرداء ،

والعدة والجلاء <sup>(١١)</sup>

( ١ ) الحام الزروس ، جمع حامة ، والمقابل : يقصد به الأعداء في هذا

( ٢ ) جمع كسرة وطرفة ، اسم المرة من كسر وتغير .

( ٣ ) والعدرات جمع عذرة ، والطرات كذلك ، ويقصد بها الخديعة والعدو .

( ٤ ) الشروات : معانها الوليت ويقصد بها التراب من أولاته والخروج عليهم .

( ٥ ) ثغور : الموضع الذي يحاذي أن يبر منها العدو ، ومن كسر : حارس .

( ٦ ) خنكم : ارشاشه حتى لا تسكنوا .

( ٧ ) استعصم : طلب مذكر مؤنثه وجعله .

( ٨ ) الظليم ذكر حمام ، وغرب : خلس في شدة الحر فحس صدره وبريح من يقرب منها أي يرفسه  
برجاء راحة أو قتله .

( ٩ ) المدر : طير نايين .

( ١٠ ) الضباب جمع ضباب .

( ١١ ) الجلاء : من سجد على الأرض ساجدا ، والعدة : أوتة .

الحجاج بعد ثورات العراق :

ولى الحجاج أمر العراق وهى نائرة ، والناس فيها متخاذلون عن الخروج  
لحرب أعدائهم ، ولا يطيعون أمراً لولايتهم . ويكثرون الفرار من ميادين  
القتال ، فأخذهم بالشدة ، وأسأء إليهم قولا وفعلًا ، وامتلأت خطبه بشتهم  
وسبهم ، وأكثر من التحدث عن كراهته لهم . وكراحتهم له ، ولم يجد فرصة  
يشئ فيها غيظ قلبه إلا فعل ، ولو أدى ذلك إلى غدره بمن أمنهم .

ولعله كان يود أن يهنا حينا بمنصبه العظيم ، ويستمتع بسلطانه الواسع ،  
فلم يدع له أولئك فرصة ، لكثرة ما شغلوه بثوراتهم . وفرارهم وتخاذلهم .

الحجاج والديسرى :

لما انهمز ابن الأشعث يوم الزاوية . أمر الحجاج مناديه فنادى : لا أمان  
لفلان وفلان ، وسبى ناساً . فظن العامة أنهم آمنون ، إلا هؤلاء الذين سبهم ،  
فجاءوا إليه ، فأمر بأحد عشر ألفاً منهم ، فقتلوا .

ورأى أن يأخذ البيعة على الناس لعبد الملك بعد وقعة دير الجماجم . .  
ولم يكن يقبلها من أحد إلا بعد أن يقر على نفسه بالكفر ، فن أقر قبل منه  
البيعة ، ومن أقر ضرب عنقه .

ويقول ابن عبد ربه فى العقد الفريد ج ٣ ص ٢٥٦ : إن عبد الملك هو  
الذى أمره أن يعرض أسرى دير الجماجم على السيف . فن أقر بالكفر  
بمخرجه مع ابن الأشعث أخذ يبعته وخلق سييله ، ومن زعم أنه مؤمن ضرب  
عنقه . ففعل .

وكان فيمن عرضهم على السيف شاب وشيخ . فقال للشاب : أكافر أنت  
أم مؤمن ؟ قال : بل كافر . فقال الحجاج : اسكن الشيخ لا يرضى بالكفر .  
فقال له الشيخ : أعن نفسى تخادعنى يا حجاج ؟ والله لو كان شيء أعظم من

الكفر لرضيت به . فضحك الحجاج وخلي سبيلهما .

وقدم إليه رجل فقال له : على دين من أنت ؟ قال : على دين إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . فقال : اضربوا عنقه . ثم قدم آخر . فقال له : على دين من أنت ؟ قال : على دين أليك الشيخ يوسف . فقال : أما والله لقد كان صواماً قواماً . خلوا عنه . فقال له الرجل : يا حجاج ، سألت صاحبي وسألتني ، فضربت عنقه لأنه قال : على دين إبراهيم حنيفاً . وخليت عني ، وقلت عن أليك : والله لقد كان صواماً قواماً . والله لو لم يكن لأليك من السيئات إلا أنه ولد مثلك لسكناه ! فأمر بالرجل ، فضرب عنقه .

ثم أتى عمران بن عاصم الغنوي . فقال : عمران ! قال : نعم ، قال : ألم أوفدك على أمير المؤمنين ولا يوفدُ ملك ؟ قال : بلى ، قال : ألم أزوجك مارية بنت مسمع سيدة قومها . ولم تسكن لها أهلاً ؟ قال : بلى . قال : فما حملك على الخروج علينا ؟ قال : أخرجني فلان . ثم أمر رجلاً فكشف عن رأسه ، فإذا هو عاوق . فقال : وعلق أيضاً ! لا أقالني الله إن لم أقتلك ، فأمر به فضرب عنقه . فسأل عبد الملك بعد ذلك عن عمران بن عاصم ، فقيل : قتله الحجاج بخروجه مع ابن الأشعث . قال : ما كان ينبغي له أن يقتله بعد قوله :

وبعثَ من ولد الأبرُّ معتبَ صقراً يلوذ حمامه بالعوسج<sup>(١)</sup>  
فإذا طبخت بنساره أنضجها وإذا طبخت بغيرها لم تنضج  
وهو الهزير إذا أراد فريسة لم ينجم منه صريرُ الهجيج<sup>(٢)</sup>

(١) معتب : من أجداد الحجاج ، وتعميع نحر من أنهار قبادية فيه شوك .

(٢) الهزير : الأسد . الهجيج : صوت زجر الغنم ، وأصله هج هج . وحركة الشاعر للضرورة .

### بعض الأسرى من كبار التابعين :

ثم أتى بعامر الشعبي ، ومطرف بن عبد الله السخيري ، وسعيد بن جبير من سادات التابعين . وكان الشعبي ومطرف يريان التورية . فلما قدم الشعبي قال له : أكافر أنت أم مؤمن ؟ قال : أصلح الله الأمير ، بنا بنا المنزل ، وأجذب بنا الجناب ، واستحلستنا الخوف<sup>(١)</sup> ، واكتحلنا بالسهر ، وخبطننا غنة لم نكن فيها بررة أتياء . ولا فجرة أقوياء . قال الحجاج : صدقت ، والله ما يروا بخروجهم علينا ولا قسوا . خلوا عنه . ثم قدم إليه مطرف . فسأله مثل سؤال الشعبي . فقال : أصلح الله الأمير ، إن من شق عصا الطاعة ونسكت البيعة ، وفارق الجماعة ، وأخاف المسلمين . لجدير بالكفر . فقال : صدق ، خلوا عنه .

ثم قدم سعيد بن جبير ، فقال له : سعيد بن جبير ! قال : نعم ، قال : يا شقي بن كسير . قال : أمي أعلم باسمي منك . قال : شقيت وشقيت أمك . قال : الشقاء لأهل النار . قال : أكافر أنت أم مؤمن ؟ قال : ما كفرت بالله مذ آمنت به . فقال : اضربوا عنقه .

ويروى الكامل ج ٢ ص ٧٧ أن سعيداً كان مولى لرجل من بني أسد بن خزيمة ، فاشتره سعيد بن العاص الكوفي في مائة عبد فأعتقهم جميعاً ، فلما خرج مع ابن الأشعث وظفر به الحجاج قال له : يا شقي بن كسير ! أما قدمت الكوفة ولا يؤم بها إلا عربي فجعلتك إماماً ؟ قال : بلى . قال : أفأولئك القضاء فضج أهل الكوفة ، وقالوا : لا يصلح للقضاء إلا عربي . فاستقضيت أبا بردة بن أبي موسى الأشعري وأمرته ألا يقطع أمراً دونك ؟ قال : بلى . قال : أو ما جعلتك في سُمّاري وكلهم من رهوس العرب ؟ قال : بلى . قال : أو ما أعطيتك مائة ألف درهم لتفرقها في أهل الحاجة ثم لم أسألك عن شيء

(١) الجناب : الناحية . واستحلستنا : ملكتنا .



منها؟ قال: بلى. قال: فما أخرجك؟ قال: ربيعة كانت لابن الأشعث في عتقي. فغضب الحجاج، ثم قال: أفا كانت ربيعة أمير المؤمنين عبد الملك قَبْلُ؟ والله لأقتلك. يا حرمي اضرب عنقه.

وقتل ابن القِرْبَةِ الخطيب المشهور كذلك.

ويقول المبرد: ونظر الحجاج فإذا جل من خرج مع عبد الرحمن من الفقهاء وغيرهم من الموالي فأحب أن يزيلهم عن موضع الفصاحة والآداب، ويغلطهم بأهل القرى والانباط<sup>(١)</sup>. فقال: إنما الموالي علوج<sup>(٢)</sup>، وإنما أتى بهم من القرى. فقراهم أولى بهم. فأمر بنسبهم من الأمصار وإقرار العرب بها. وأمر أن ينقش على يد كل منهم اسم قريته، وظالت ولايته فتواله القوم هناك، فخبثت لغات أولادهم، وفسدت طبائعهم.

### أكله الحجاج مصيباً أم مخلفاً؟

لعل هؤلاء القوم عذراً بخروجهم مع ابن الأشعث، فقد كان الحجاج يسومهم الخسف، وكانت شدته وشتائه تتجاوز الغاية إلى الخاصة والقواد. فلما حانت الفرصة للخروج عليه لم يتأخروا.

يخيل إلى أن مثل الشعبي وابن الشخير كانا يجاريان العامة خوفاً من أن يفتكوا بهما، كما أقرا على أنفسهما بالكفر خوفاً من أن يضرب الحجاج أعناقهما. أما ابن جبير فكان صاحب رأى، لهذا لم يرض أن يقر على نفسه بالكفر. ومثله مثل الرجل الذي صرح للحجاج برأيه فيه وفي أبيه؛ فقتله بعد أن عفا عنه.

ولكن للحجاج عذراً كذلك، فإنها ثورة جامحة؛ وخروج على طاعة السلطان؛ ولأنهم عليه في قتل أعدائه بعد أن خرجوا عليه؛ ونقضوا عهده

(١) الانباط: جبل من قناس كانوا يزلون بين قريتين، قريول وشعبي.

(٢) علوج: جمع علق بكسر اللام، وهو الكافر من قيس.

وخلعوا خليفته . وهل ينتظر من رجل ظفر بأعداء حاريزود : وكادوا يقتلونه ومن معه ، أن يعفو عنهم ويرق لهم ؟ فإذا كانت لهم حجة في خروجهم : فقد كانت له حجة أيقنا : وزادت حجة قوة بالانتصار عليهم ، وهل يرجو اللاعنون للحجاج أن يقول للخارجين عليه ما قال يوسف عليه السلام لإخوته : « لا تريب » عليكم اليوم : يغفر الله لكم : وهو أرحم الراحمين . ؟

أطاه بعفو عن أسراه ؟

ذكر صاحب العقد القرئيد<sup>(١)</sup> أن الحجاج أتى بأسرى من الخوارج ؛ فأمر بضرب أعناقهم فقدم فيهم شاب . فقال : والله يا حجاج لن كنا أسأنا في الذنب ؛ فما أحسنت في العفو . فقال : أف هذه الجيف . أما كان فيهم من يقول هذا القول ؟ وأمسك عن القتل .

والظاهر أن هذا القول وحده ليس كافياً للعفو عن الأسرى . ولم يكن من طبيعة الخوارج أن يعتذروا إلى الحجاج ولا إلى غيره من أعدائهم . وهم يرونهم كفاراً . ولعلها حادثة فردية ، ولعل عفوه كان بعد أن أكثر القتل وسبغت نفسه منظر الدماء . فتحركت شفقتة فعفا .

ويروى كذلك أنه أتى بأسرى فأمر بتلقيمهم ، فقال رجل منهم : لا جزاك الله يا حجاج عن السنة خيراً ؛ فإن الله تعالى يقول : « فإذا لقيتم الذين كفروا فاضربوا الرقاب . » حتى إذا أمتعتهم موتهم فقتلوا الوثاق<sup>(٢)</sup> ، فإما مناً بعد وإما فداءً . . . فهذا قول الله في كتابه . وقد قال شاعركم فيما وصف به نفسه من مكارم الأخلاق :

(١) لا يوم عليكم .

(٢) ج ١ ص ٢٤٤ .

(٣) المعنى : فإذا لقيتم الذين كفروا في الحرب فاضربوهم ثم أسروهم ، وأنتم خيرون بعد الأمر في تلقيم أو المان عليهم أو فدائهم .

وما نقتل الأسرى ولسكن نفوسهم إذا أقتل الأعناق حمل القلائد  
فقال الحجاج : وبحكم ! أعجزتم أن تخبروني بما أخبرني به هذا المنافق !  
وأملك عن يق .

وأق الحجاج بامرأة حرورية ، فقال لأصحابه : ما تقولون في هذه ؟  
قالوا : اقلها أيها الأمير ونكّل بها غيرها . فتبسّمت المرأة الحرورية ، فقال  
لها : لم تبسّمت ؟ فقالت : كان وزراء أخيك فرعون خيراً من وزراءك  
يا حجاج : استشارهم في موسى فقالوا : « أرجه وأخاه ، وهؤلاء يأمرؤك  
بتعجيل قتل . فضحك الحجاج وأمر بإطلاقها <sup>(١)</sup> .

ولعل الحجاج قد أخذته الرهبة عندما ذكره الرجل بالله وحكمه في كتابه ،  
والنفوس الإنسانية مهما تكبرت وأخذتها العزة ، تضعف وتلين إذا ذكرت  
الله أو ذكرته به وهو القوى العزيز . لهذا عفا عن الرجل .

والمرأة الحرورية كانت سريعة الجواب المشوب بالتهكم . والحجاج أديب  
ذكي يقدر الجواب السريعة . والبدية الحاضرة . فلعله عفا عنها لهذا ، كما  
يحتمل أنه عفا عن الرجل لهذا أيضاً ، إذ أحسن الاحتجاج بالقرآن الكريم  
وأجاد الاستعطاف بيوت الشعر .

فهره مع فيروز مصلح <sup>(٢)</sup> :

كان فيروز حصين هذا رجلاً من أشرف العجم ، وأسلم فوالى حصين  
ابن عبد الله العنبري ، وكان فيروز شجاعاً كريماً ، نبيل الصورة ، جدير الصوت ،  
وقد خرج في جيش المهلب وحارب الأزارقة ، ثم خرج على الحجاج مع ابن  
الأشعث . ومن مواقفه المشهورة ، أن الحجاج لما واقف ابن الأشعث في  
« رستقباذه » نادى مناديه : من أتى برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم .  
ففصل فيروز من الصف ، فصاح بالناس : من عرفني فقد اكنني ، ومن

( ١ ) يدي مثل هذه قصة مع زياد كنهك .

( ٢ ) الكامل للبيدج ٣ ص ١٩٥ .

لم يعرفني فأنا فيروز حصين ، وقد عرقم مالى ووفائى . من آتى برأس الحجاج  
فله مائة ألف . فقال الحجاج : والله لقد تركنى أكثر التلفت . وإني  
لبين خاصى .

ثم أسر فيروز ، وجيء به إلى الحجاج فقال له : أنت الجاعل فى رأس  
أميرك مائة ألف ؟ قال : قد فعلت . فقال : والله لأمهدنك ثم لأحلكك ،  
أين المال ؟ قال عندى . فهل إلى الحياة من سبيل ؟ قال : لا . قال :  
فأخرجنى إلى الناس حتى أجمع لك المال ، فلعن قلبك يرق على . ففعل  
الحجاج . فخرج فيروز ، فأحل الناس من ودائعهم . فأعنت رقيقه ، وتصدق  
بماله . ثم رد إلى الحجاج ، فقال : شأنك الآن ؛ فاصنع بى ما شئت .  
فعلبه عذاباً شديداً ، فما تأوه ولا ضجر حتى مات .

## الفتوح في ولاية الحجاج

ذهب الحجاج إلى العراق ليسط سلطان بني أمية بعد أن كثرت فيه الثورات من الشيعة والخوارج ، واضطرب الأمن بسبب الفتن التي كانت تثيرها العصابات بين القبائل النازلة فيه . فاستطاع أن يقضى على كل هذه الثورات والفتن ، وأن يعيد الأمن إلى ربوعه ، في ظلال السيوف المشرعة ، وقتل في سبيل ذلك آلاف من أهل البلاد وأخضع من بقي ، وسامهم الذل ، وأخذهم بالشدّة ، وصار سيد تلك البلاد زمناً طويلاً :

ورأى بعد القضاء على هذه الفتن أن يوجه همه إلى الفتح . واستعان بقواد نبلاء ، وفرسان مغاوير ، فساعده على نشر دين الله . وساطن الخلافة الإسلامية في شرق العراق ، حتى امتد إلى غرب الصين ، وشمل جزءاً كبيراً من شمال الهند وبلاد التركستان ، وأسلم أهل تلك البلاد ، أو دخلوا في ذمة الخلافة الإسلامية . بعد أن أعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

ومن القواد الذين استعان بهم على تلك الفتوح :

( ١ ) المهلب . ولاده الحجاج خراسان بعد أن قضى على الخوارج في سنة ٨٠ هـ فقطع نهر بلخ ، ونزل « كِسْ » ، وأغرى المهلبُ ابنه يزيد بلاد الخُتل ، فصالحه ملكها على جزية . وفي سنة ٨٢ ترك هذه البلاد ورجع إلى مرو فقات بها . وولى الأمر في خراسان بعده ابنه يزيد بن المهلب .

( ٢ ) يزيد بن المهلب . فتح « نيزك » ، وكتب إلى الحجاج بذلك . ثم حمله الحجاج وعزله وولى مكانه قتيبة بن مسلم الباهلي :

( ٣ ) قتيبة بن مسلم ،

ولى الأمر في خراسان بعد عزل يزيد بن المهلب ، ولم يعزله عبد الملك إلا بعد إلحاح من الحجاج . وتفصيل ذلك : أن الحجاج حشد يزيد لما ظهرت مناقبه

وعظمت آثاره . وقضى على ابن الأشعث والأزارقة . والحرورية . ومات المهلب . ولم يعد أمامه من يخشاه إلا يزيد . وهو يعلم فضله وجوده ومحبة الجند له . ولم يكن الحجاج يترجى النسي يقبل مناقباً ، فعمل على التخلص منه . وقد وفد على عبد الملك ، ثم عاد إلى العراق ثم في عودته بدير فزله . فقبل له : إن في هذا الدير شيخاً من أهل الكتاب — العرافين — عالماً ، فدعاه وسأله : أتعلم ما إلى ؟ قال : نعم . قال : فمن يليه بعدى ؟ قال : رجل يقال له يزيد . فوقع في نفس الحجاج أنه يزيد بن المهلب . فإذا صحت هذه القصة دلت على أن الحجاج كان شديداً الخوف على سلطانه ، وكان يظن أن مصدر الخطر عليه هم المشهورون من رجال الدولة ممن هم بلاه في خدمتها بالشرق في حرب الخوارج وغيرهم . ولم يكن هناك منهم أشهر ولا أحب إلى الناس من يزيد . فلما ذكر العراف للحجاج اسم يزيد ، انصرف ذهنه إلى يزيد بن المهلب .

أما يزيد فكان بعيداً عن التفكير في هذا الأمر . وكانت أخلاقه أسمى من هذا . فهو الذي حارب ابن الأشعث حتى رده عن خراسان . أيام ثورته على الحجاج . وقد نصحه بعض مستشاريه بالاعتلال عندما أرسل الحجاج يستدعيه فقال :

« إنا أهل بيت بورك لنا في الطاعة . وأنا أكره الخلاف والمعصية . »

ولم يكن خروجه على الخلافة في زمن يزيد بن عبد الملك إلا بسبب ما لقيه من العنت والعذاب هو وأهله على يد الحجاج . ولعل ما كان يتوقعه على يد يزيد بن عبد الملك كان أشد وأقنع .

ارتحل الحجاج من الدير إلى العراق وهو وجل ، وأخذ يفكر في عزل يزيد فلم يجد شيئاً يأخذه عليه ، فانتظر حتى قدم عليه أحد فرسان المهلب وأعوان ابنه يزيد ، واسمه الخيار بن سبرة . فسأله الحجاج عن يزيد ، فقال :

حسن الطاعة لئن السيرة . قال : كذبت اصدقنى عنه . قال : الله أجل وأعظم .  
أسرج ولم يُلجس<sup>(١)</sup> قال صدقت .

ثم كتب إلى عبد الملك يشيره على آل المهلب ، ويطلب منه عزل يزيد عن  
خراسان ، لسابق ولائهم لآل الزبير . ووفاتهم لهم .

فكتب إليه عبد الملك : إني لا أرى نقصاً بآل المهلب طاعتهم لآل الزبير .  
بل أراه وفاء منهم لهم ، وإن وفاءهم لهم ليدعوه إلى الوفاء لي .

وقد كان هذا سداد رأى من عبد الملك فإنه رأى من ولائهم له وخدمتهم  
لدولته في حرب الخوارج وفتوح خراسان زمن المهلب ما جعله يطمئن إلى  
طاعتهم . غير أن الحجاج كتب إليه يخوفه غدوهم لما أخبره به العراف ،  
فكتب إليه عبد الملك ،

« قد أكرمت في يزيد وآل المهلب قسم لي رجلاً يصلح لخراسان .

فسمي له قوماً لا يصلحون وهو يعرف أن عبد الملك لن يرضى عنهم ،  
وذلك دهاء منه . ورغبة في أن يكون اسم قتيبة بن مسلم آخرهم — وهو الذي  
كان يميل إليه الحجاج — حتى لا يعرف عبد الملك ميله إليه . فلما سماه له آخر  
الأمر كتب إليه عبد الملك : « ولته .

وبلغ يزيد أن الحجاج عزله فقال لأهل بيته : « من ترون الحجاج يولى  
خراسان ؟ قالوا ، رجلاً من ثقيف . قال : « كلا . ولكنه يكتب إلى رجل  
منكم بمعه فاذا قدمت عليه عزله يولى رجلاً من قيس ، وأخلق بقتيبة .

كان يزيد يعرف دهاء الحجاج . وقد أدرك أنه لا يولى على هذه البلاد  
بعده إلا واحداً من آل المهلب خشية أن يمتنعوا عليه بتلك البلاد البعيدة ،  
وهم في جند يحبونهم لحسن سيرتهم ولسكرتهم . وقد صدق ظنه ، فان الحجاج  
كتب إليه : « أن استخلف المفضل وأقبل . فأبطأ على الحجاج ، فكتب إلى  
المفضل : « إني قد وليتك خراسان ،

(١) أخذ يد عدته للخروج وبقيته منها .

لجعل المفضل ينسحب أعياه يزيد فقال له يزيد : « ان الحجاج لا يقرك  
بعدي ، وقد دعاه الى ما صنع مخافة أن أمتنع عليه » . قال بل حسدتي .  
فقال يزيد : « يابن بهلة أنا أحسدك استعلم ، فلما قدم عليه يزيد عزل المفضل »  
وولى قتيبة بن مسلم سنة ٨٥ هـ

وقد يروى سبب آخر لعزل يزيد ، ومهما تكن الأسباب فقد كان الحجاج  
يغشاه كما كان يخشى غيره من رجالات بني أمية فلما أذن له عبد الملك في  
عزله فعل .

ولى الحجاج قتيبة بن مسلم على خراسان بعد يزيد والمفضل ، فقدمها سنة ٨٦ هـ  
وغزا بعض بلاد طخارستان وصالحه أهلها على جزية فقبلها ، ثم رجع إلى مرو  
واستخلف على الجند أعياه صالح بن مسلم فكتب إليه الحجاج يلومه وقال له :  
« اذا غزوت فكن في مقدم الناس ، واذا قفلت فكن في أخرياتهم وساقهم »  
وتلك اشارة تدل على مبلغ حرصه على الجند ، ورغبته ألا يكون زمامهم  
في غير يد القوائد العام ذهابا وإيابا ، فانهم اذا فقدوه في الذهاب تواركوا  
وتخاذلوا ، وربما ظنوه يلقي بهم إلى التهاكة ويجعلهم درية له ، فاذا تقدمهم  
شجعوا ، وكانت لهم فيه أسوة حسنة ، واذا رجع قبلهم لغير سبب ظاهر فقد  
يصيبهم الوهن ، وقد يعلم عدوم بذلك فيظنهم بلا قيادة فيجرؤ عليهم ، وقد  
يتحرر الجند من سلطان النظام لعدم وجود القائد معهم ، فيدفعهم ذلك إلى  
المعصية ، أو الاساءة إلى أهل البلاد المفتوحة بنقض عهد أو تجاوز حدود  
اتفقوا عليها مع قائدهم .

غزو بخارى سنة ٨٩ هـ

غزا قتيبة « وَرَدَ أَنْ خُذَّاهُ » ملك بخارى سنة ٨٩ هـ فلم يقدر عليه ،  
فعاد إلى مرو ، وكتب إلى الحجاج بذلك فكتب إليه الحجاج : « أن صورها لي »  
فبعث إليه بصورتها ، فكتب إليه الحجاج ،



« ارجع إلى مراغتك<sup>(١)</sup> فب إلى الله مما كان منك وأنتها من مكان  
كذا وكذا، وقيل كتب إليه الحجاج « كس يكس<sup>(٢)</sup> » و« نسيف نسف<sup>(٣)</sup> »  
ورِدَ « وَرَدَّ أَنْ<sup>(٤)</sup> » و« أياك والتخويط<sup>(٥)</sup> » ودعني من بنيات<sup>(٦)</sup> الطريق،  
نفرج إلى بخارى ففتحها سنة ٥٩٠ هـ، وهزم جنود وردان ومن نصره  
من الترك والسغد، وتدل الرسالة الأولى على حسن تدبير الحجاج وبصره  
بالخطط الخرية، وليس عندنا كثير من الدلائل الصريحة على هذا، اللهم إلا  
انتصاراته التي قاد فيها جيوشه ضد ابن الزبير، وبعض معاركه مع الخوارية  
وابن الأشعث، وأما تدخله في أمور المهلب فلم يكن تدبيراً للخطط، وإنما  
كان في أكثر حالاته استعجالاً.

وأما بقية الرسالة فهي دعوة صالحة إلى التوبة وبها تصلح الأمور ويأتي الله  
بالمفتح، ولعله اقتدى في هذا بالسلف الصالح. أما تسمية بخارى مراغة فهي  
تسمية شعبية بالحجاج، فهو طويل اللسان سريع الشتم للناس ولأما كن أيضاً،  
فإن من معاني المراغة الأتان التي لا تمنع الفحولة، ولعله رأى أن هذا يشجع  
قتيبة على أن يطرقها مرة ثانية، فدانت له.

أما الرسالة الثانية فقد تلفت نظر الباحث الأدبي، لما فيها من ميل واضح  
إلى التجنيس مما لا نراه كثيراً عند الحجاج ولا عند كثير غيره من كتاب هذا  
العصر، وبخاصة إذا كان متكلفاً مقصوداً كما نلح هنا.

فتح سمرقند خوارزم وسمرقند سنة ٥٩٣ هـ :

وفي سنة ٥٩٣ هـ فتح قتيبة مدائن خوارزم صاجا، وغزا سمرقند ففتحها بعد  
قتال شديد، وبقي بها مسجداً وصلى فيه. وكان معه في هذه الغزوة تهمار بن

(١) المراغة : سمرقند الخراب، أو الأتان التي لا تمنع.

(٢) « كس يكس » أصل من كس يكس، وهو : « نسيف نسف ».

(٣) أي أذهب إلى وردان حاتم مثله بخارى.

(٤) أحضر الضفاف أعداءك بجندك.

(٥) بنيات الخريز : الخريز قصور والسبل الخبيثة.

توسعة ، شاعر آل المهلب ، فلما جاء نصر الله والفتح دعا نهارا فقال له :  
« يا نهار ، أين قولك » .

ألا ذهب الغزو المقرب للقي ومات الندى والجود بعد المهلب  
أقاما بمرور الروذ رهن ضريحه . وقد غشيا عن كل شرق ومغرب  
أفغزو هذا يانهار ؟ قال : لا ، هذا أحسن . وأنا الذي أقول .

وما كان مذكنا ولا كان قبلنا ولا هو فيما بعدنا كابن مسلم  
أعم لأهل الترك قتل بسيفه وأكثر فينا مقبلا بعد مقسم  
ثم رجع قتيبة إلى « مرو » فأقام بها بعد أن استخلف على سمرقند عبد الله  
ابن مسلم ، وخلف عنده جيشا كثيرا من آلات الحرب .

يون قتيبة وملك الصين :

وفي سنة ٥٤٤ هـ وصل في فتوحه إلى « قاشان » من مدن فرغانة . وفي  
سنة ٥٩٦ هـ خرج من « مرو » يريد غزو الصين لجأه وهو بفرغانة نعي الوليد  
ابن عبد الملك فلم يقعه ذلك عن الغزو وسار إلى « كسغر » أدنى مدائن الصين  
ففتحها . وكان بينه وبين ملك الصين مراسلات لا بأس بذكر حديثها لما  
تدل عليه من شجاعة أولئك الفاتحين البواسل وإيمانهم بربهم وإقدامهم على  
الموت أبطالا في سبيل غايتهم .

أرسل قتيبة وفداً إلى ملك الصين فقال لهم قولوا لقتيبة ينصرف ، فإن  
قد عرفت حرصه وقلة أصحابه وإلا بعثت إليكم من يهلككم . فقال هيرة  
ابن المشمرج الكلابي رئيس الوفد : « كيف يكون قليل الأصحاب من أول  
خيله عندك وآخرها في منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصاً من خلف  
الدنيا قادراً عليها وغزاك ؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا أجالا إذا  
حضرت فأكرمها القتل فلست نكرهه ولا نخافه » .

قال : فما الذي يرضى صاحبكم ؟ فقال هيرة : « إنه قد حلف ألا  
ينصرف حتى يظأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية » . قال : فإنا نخرجهم

من يمينه : نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيعطوه ، ونبعث ببعض أبنائنا فيختتمهم ، ونبعث إليه بحزيرة يرصاها ، ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحريز وذهب وأربعة من أبناء ملوكهم ، ثم أجاز الوفد ، فساروا حتى قدموا على قتيبة فقبل الجزية ورضى بالحلل الذي رآه ملك الصين . ثم عاد إلى مرو ، عاصمة خراسان .

وعلى مدى هذا القائد العظيم ضمت بلاد واسعة إلى الإمبراطورية الإسلامية ، ودخل أهلها في دين الله أفواجا ، فأخرجت للعالم عدداً من أعظم الكتاب والمحدثين والفقهاء ، عن لا يزال ذكرهم خالداً ، وآثارهم عظيمة في تاريخ الإسلام .

هاتم : هذا القاهر العظيم :

كان قتيبة ممن شايح الوليد في رغبته أن يعزل أخاه سليمان من ولاية العهد ويباع لابنه عبد العزيز . فأمرها له سليمان . فلما مات الوليد وولى سليمان خاف قتيبة على نفسه ، ورأى أن يخرج عليه ، ودعا الناس في خراسان إلى الخروج معه فأبوا . وولوا عليهم رجلاً من أشراف تميم اسمه « وكيع » فثار هو ومن معه على قتيبة ، فقتلوه هو وأخوته وأكثر بنيهِ . ويرى أن رجلاً من عجم خراسان أكبر ذلك ورأى فيه سوء تقدير ، فقال : يا معشر العرب ، قتلتم قتيبة ، والله لو كان منافسات فينا ، جعلناه في تابوت فسكننا نستفتح به إذا غزونا .

وقال عبد الرحمن بن جمانة من قبيلته يرثيه :

كأن أبا حفص قتيبة لم يسر      يحبس إلى جيش ولم يعمل منبرا  
ولم تحقق الرايات ، والقوم حولهُ      وقوف ، ولم يشهد له الناس عسكرا  
دعته المنايا فاستجاب لربه      وزاح إلى الجنات عفاً مطهرا

محمد بن القاسم الثقفي :

كان أميراً على ثغر السند من قبل الحجاج ، وقد فتح مدناً كثيرة وضم  
إلى الإسلام بعض بلاد الهند صلحاً وحرباً . وجبى خراجها . وأخذ الجزية  
من أهلها ، وبنى المساجد ونشر الإسلام فيها .

ولما مات الوليد وخلفه سليمان عزل محمداً ، وولى مكانه رجلاً من أعداء  
الحجاج هو يزيد بن أبي كبشة السكسكي . فأخذ محمد بن القاسم وقيده وحمله  
إلى العراق : فقال محمد متمثلاً :

أضاعوني وأى قى أضاعوا ليوم كركية وسداد ثغر  
فبكى أهل السند على عزله . ولما بلغ العراق حُبس بواسطة ، فقال :  
فلئن ثويت بواسطة وبأرضها رهن الحديد مكبلاً مغلولاً  
فلملأ قبة فارس قد رعتها ولربّ قرن قد تركت قتيلاً  
ثم عذب هو وجماعة من آل أبي عقيل ، رهط الحجاج ، حتى ماتوا في  
العذاب . وانتهت بهذا حياة قائد من أعظم قادة الجيوش في الإسلام ،  
رحمهما الله .

معاملته لإشراف الناس :

كان الحجاج من خير ولاية بني أمية : أشرف على حرب الخوارج حتى  
أضعفهم ، وتولى أمر العصاة في العراق فأدبهم . وتولى فتوح المشرق .  
فاختار طارجالاً من خير القواد كالمهلب وأبنائه . وكان الأشعث وقتيبة  
ابن مسلم الياهمي ومحمد بن القاسم الثقفي . فأخضعوا النافرين ونشروا الإسلام  
في بلاد السند وغرب الصين وجنوب التركستان .

ولكنه كان متكبراً ، لا يرى أحداً فوقه من الناس إلا الخليفة . فكان  
جريئاً على الإشراف قولاً وفعلًا ، حتى كبار الصحابة ، وولى العهد سليمان  
ابن عبد الملك . فجر على نفسه سخط الناس ، وجر على آله وقواده بعد  
حوته وبالا ونكالا في عهد سليمان بن عبد الملك .

موقف من يزيد بن المهلب :

ومن الذين أساء الظن بهم فأساء إليهم يزيد بن المهلب ، فإنه بعد أن عزله كما تقدم حبسه هو وأخوته ، وأغرهم ستة آلاف ألف وعنديهم ، وكان يزيد يصبر على عذابه صبراً جميلاً ، فكان الحجاج يعيظه ذلك ، فقليل له : إن يزيد رمى بنشابة فثبت نصلها في ساقه ، فلا يمسه شيء إلا صاح ، فإن حركت أدنى شيء سمعت صوته ، فأمر أن تغمر ساقه غمرأ شديداً . ففعل ذلك بيزيد ، فصاح . وكانت أخته هند بنت المهلب عند الحجاج ، فلما سمعت صياح أخيها ، صاحت وناحت ، فطلقها الحجاج .

ثم أعمل يزيد وأخوته الخيلة حتى هربوا من سجنه سنة ٥٩٠ هـ ، ولجأوا إلى سليمان بن عبد الملك ، فما زال سليمان بأخيه الوليد يضرع إليه ويستشفعه حتى قبلت شفاعته .

بينه وبين محمد بن الحنفية :

وقد خشي عبد الملك منه على محمد بن الحنفية ، وهو وال على الحجاز ، فكتب إليه ألا يعرض لمحمد . ولا لأحد من أصحابه كما تقدم . فلم يعرض الحجاج لأحد من الطالبين في أيامه .

بينه وبين ابن عمر :

ويروى ابن عبد ربه في العقد الفريد ، ويؤيده ابن خلكان في وفيات الأعيان أن الحجاج هو الذي قتل سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، لأن عبد الملك أمره ، وهو وال على الحجاز أن يقتدى به ، وأن يأخذ عنه الناسك ، فكره الحجاج ذلك ، وأمر رجلاً فسمم الحديد التي في أسفل الرح — الزُج — وزحم ابن عمر في الطريق ، وأصابه بالحديدة بن أصبعين من قدمه ، ويروى ابن خلكان : « أن الحجاج خطب يوماً وأخر الصلاة . فقال ابن عمر : إن الشمس لا تنتظرك . فقال له الحجاج : لقد همت أن

أضرب الذي فيه عيتاك . : فقال له : إن تفعل فإنك سفيه . ، وقيل إنه كان يتقدمه في المواقف يعرفه وغيرها . إلى الموضع التي كان النبي صلى الله عليه وسلم وقف فيها . وكان ذلك يعز على الحجاج ، فلما أصابه الرجل مرض فدخل عليه الحجاج يعود فاتهمه ابن عمر بأنه هو الذي أمر الرجل أن يصيبه ، فخرج الحجاج من عنده .

فإذا صح هذا كان دليلا على ما تقدم من تكبره ، وكرهته أن يتقدم عليه أحد وهو أمير البلاد ، ولو كان المتقدم ابن عمر ، وبأمر من الخليفة . وكان دليلا على إقدامه على الدم الطاهر البري .

بين وبين أنس بن مالك رضي الله عنه :

أما أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان بالحجاز أيام ولاية الحجاج ، وقد أمانه وختم على يده هو وغيره من الصحابة استخفافا بهم كما كان يفعل بأهل الدمة ، ولما ولي العراق اشتد على الناس كما تقدم ، فكثرت الخروج عليه . وفي إحدى المرات أرسل إلى أنس بن مالك أن يخرج معه لحرهم . وكان مقبلا بالعراق وقتئذ — فأبى أنس . فكتب إليه الحجاج يشتمه ويبقومه الأنصار . فكتب أنس إلى عبد الملك يشكوه . وأدرج كتاب الحجاج في جوف كتابه . وأرى من حق القارىء أن أذكر الأمر تفصيلا .

قال اسماعيل بن أبي المهاجر : بعث إلى عبد الملك في ساعة لم يكن يبعث إلى في مثلها ، فدخلت عليه وهو أشد ما كان غيظا وحنقا ، فقال : يا اسماعيل ما أشد على أن تقول الرعية ضعف أمير المؤمنين وضاق ذرعه في رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لا يقبل له حسنة . ولا يتجاوز له عن سيئة ، فقلت : وما ذاك يا أمير المؤمنين . قال : : أنس بن مالك ، خادم رسول الله ، كتب إلى يذكر أن الحجاج قد أضربه وأساء جواره . وقد كتبت في ذلك كتابين : كتابا إلى أنس بن مالك ، والآخر إلى الحجاج ، فاقبضهما ثم أخرج

على البريد فإذا وردت العراق فأبدأ بأنس بن مالك فادفع له كتابي وقل له :  
« اشتد على أمير المؤمنين ما كان من الحجاج إليك ، ولن يأق إليك أمر  
تكرهه إن شاء الله . ثم انت الحجاج فادفع اليه كتابه ، وقل له : « قد اغتررت  
بأمر المؤمنين غرة لا أظنه يخطئك شرها . ثم أفهم ما يتكلم به ، وما يكون  
منه ، حتى تفهمي إياه إذا قدمت على إن شاء الله .

قال اسماعيل ، فقبضت الكتابين وخرجت على البريد حتى قدمت العراق  
فبدأت بأنس بن مالك في منزله ، فدفعت اليه كتاب أمير المؤمنين ، وأبلغته  
رسالته ، فدعا له وجزاه خيرا ، فلما فرغ من قراءة الكتاب قلت له :  
« أبا حمزة ، إن الحجاج عامل ، ولو وضع لك في جامعة<sup>(١)</sup> لقدرة أن يضرك  
وينفعك ، فأنأريد أن نصالحه . قال ذلك إليك . لا أخرج عن رأيك .  
ثم أتيت الحجاج فصارني رحيب بي وقال : والله لقد كنت أحب أن أراك  
في بلدي هذا ؟ قلت وأنا والله كنت أحب أن أراك ، وأقرب إليك بغير الذي  
أرسلت به إليك . قال وما ذلك ؟ قلت : فرقة الخليفة وهو غضب الناس  
عليك . قال ولم ؟ قال فدفعت الكتاب اليه فجعل يقرؤه وجبينه يهرق ،  
فيمسحه يمينه . ثم قال : اركب بنا إلى أنس بن مالك . قلت له لا تفعل فاني  
سألتك به حتى يكون هو الذي يريك — وذلك للذي أشرت عليه من  
مصالحة — قال فألقي الكتاب فإذا فيه .

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى الحجاج  
ابن يوسف أما بعد فإنيك عبد طمعت<sup>(٢)</sup> إليك الأمان فطعيت ، وعلمت فيها  
حتى جئت قدرك ، وعبدت طورك<sup>(٣)</sup> ، وإسما الله ، بين المستنصر<sup>(٤)</sup>  
بعجسم زبيب الطائف<sup>(٥)</sup> لا غمرك كعصر غمرك التلوث الثعالب ،

(١) القيد .

(٢) عطل بك .

(٣) جاورت حنك .

(٤) اللجم كعب ، ولجأه كغراب شوى من كل شيء ، وغرم ككسر والعمرة كوردة والفرام  
ككتاب دواء تنطبق به المراد فهي دواء ومستعمرة والمغني : بيان الحق تحقيق نفسها بنوى الزبيب ،  
وهو سب وشبهة فاحشة .

ولأركضتك ركضة تدخل منها في وجارك<sup>(١)</sup>. اذكر مكاسب آبائك بالطائف ،  
إذا كانوا ينقلون الحجارة على اكتافهم ، ويحفرون المناهل<sup>(٢)</sup> والآبار بأيديهم ،  
فقد نيت ما كنت عليه أنت وآباؤك من الدنائة واللؤم والضراعة .

وقد بلغ أمير المؤمنين استظالة منك على أنس بن مالك ، خادم رسول  
الله صلى الله عليه وسلم ، جرأة منك على أمير المؤمنين ، وغرة<sup>(٣)</sup> بمعرفة  
غيره ونقصه ، وسطسوانته على من خالف سيده ، وعهد إلى غير  
محبة<sup>(٤)</sup> وتزل عند سخطه . وأظنك أردت أن ترؤزه<sup>(٥)</sup> بها لتعلم ما عنده  
من التغيير والتكثير فيها ، فإن سوء غيب<sup>(٦)</sup> مضيت قدما<sup>(٧)</sup> وإن غصصت  
بها وليت ذبراً ، فعليك لعنة الله من عبد أخفش العينين<sup>(٨)</sup> أصك الرجلين<sup>(٩)</sup>  
ممسوح الجأعرتين<sup>(١٠)</sup> .

وأيم الله لو علم أمير المؤمنين أنك اجترمت منه جرماً ، أو انتهكت له  
عرضاً فيما كتب به إلى أمير المؤمنين ، لبعث إليك من يسحبك ظهر ألبطن ، حتى  
ينتهي بك إلى أنس بن مالك ، فيحكم فيك بما أحب ، ولن يخفى على أمير  
المؤمنين نبؤك . « وَلِكُلِّ نَبِيٍّ مُنْتَقَرٌ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » .  
قال اسماعيل ، فانطلقت إلى أنس بن مالك ، فلم أزل به حتى انطلق معي  
إلى الحجاج فلما دخلنا عليه قال : « يغفر الله لك أبا حمزة ، عجلت باللائمة ،  
وأغضبت علينا أمير المؤمنين » . ثم أخذ يده فأجلسه معه على السرير .

فقال أنس : « إنك تزعم أنا الأشرار ، والله سمعنا الأنصار . وقلت : إنا  
من أبخل الناس ، والله يقول فينا : وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ  
بِهِمْ خَصَاصَةٌ . وزعمت أنا أهل نفاق والله تعالى يقول فينا : وَالَّذِينَ

(١) الوجار : الجهر . (٢) المنهل : المشرب . (٣) غرة : الفتنة .

(٤) المحبة وسط الطريق والمراد خالف طريقته . (٥) ترؤزه : جرعه واختبره .

(٦) المراد : إن قبلها أمير المؤمنين وأقره على صفك . (٧) قدما : تجاوزت .

(٨) الأخفش : الضيف الجهر لطيف العينين . (٩) أصك الرجلين .

(١٠) الجأعرتان : غنار حول أصل ثوب أو ثعبان والمراد داخل ثعبانين حول .



تَبَوُّهُ وَالِدَارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُودْرِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا . فَكَانَ الْمَخْرَجُ وَالْمُشْتَكَى فِي ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ . وَإِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَتَوَلَّى مِنْ ذَلِكَ مَا وَلَاهُ اللَّهُ ، يَعْرِفُ مِنْ حَقِّهَا مَا جَهِلْتُ ، وَحَفِظَ مِنَّا مَا ضَيَعْتُ ، وَسَيَّحَكَمُ فِي ذَلِكَ رَبُّهُ أَرْضِي لِمَرْضِي ، وَأَسْخَطَ لِمُسْخَطٍ . وَأَقْدَرُ عَلَى الْبَغْيِ فِي يَوْمٍ لَا يَشُوبُ الْحَقُّ عِنْدَهُ الْبَاطِلَ وَلَا النُّورُ الظُّلُمَةَ وَلَا الْهُدَى الضَّلَالَةَ . وَاللَّهُ لَوْ أَرَادَ الْيَهُودَ وَالتَّصَارِيءَ رَأَتْ مِنْ خِدْمَةِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ أَوْ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ يَوْمًا وَاحِدًا ، لَرَأَتْ لَهُ مَا لَمْ تَرَوْا إِلَى فِي خِدْمَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ . قَالَ : فَأَعْتَدَ إِلَيْهِ الْحِجَاجَ وَتَرْضَاهُ ، حَتَّى قَبِلَ عِزَّهُ وَرَضَى عَنْهُ ، وَكَتَبَ بِرِضَاهُ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ . وَلَمْ يَزَلِ الْحِجَاجُ لَهُ مَعْظَمَهُ هَائِلًا حَتَّى هَلَكَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وهذا سوء أدب من الحجاج ، وتجاوز على رجل من أهل الفضل والشرف ، وحدة لسان على خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في شيخوخته . وكيف يطلب منه أن يساعد في السن العالية . وهو لا يريد إلا أن يستريح . ويتعد عن قنن ربما كان رأيها فيها لا يرضى الحجاج ؟ وما هذا القذف لقوم آووا ونصروا ؟ أليسوا هم الذين يقول الله — سبحانه — فيهم : **وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** . ألم يكن الحجاج يعرف هذا ويحفظه ؟ لعل سكوت عبد الملك عنه هو الذي مد له في سفاوته ، ولورده إلى حدود الأدب لو وقف عندها .

وقد ألزمه عبد الملك هذه الحدود في بعض الحالات . وكان أولى به أن يأمره أمراً عاماً ، فيأمن أولئك الكرام بطعنه ، كما آمن محمد بن الحنفية . ولكن للخلافة والملك والخوف من ضياع السلطان ، أحكاماً على النفوس قد تنسبها فضل ذوى الفضل ، وتبيح لها دماء الأعداء وأعراضهم وأموالهم ، وقد اجترأ بنو أمية من عهد معاوية على سيدنا علي . فجعلوا سبه على المنابر جزءاً واجباً في الخطبة . واجتمعوا على دم الحسين سيد شباب أهل الجنة ،

وعلى دم ابن الزبير . حبر هذه الأكمة . واجتمعوا على البيت الحرام فرموه ،  
وعلى أعراض أهل المدينة — وأكرمها من أعراض — فاستباحوها ،  
وكافأوا من ارتكبوا هذه العتائم . فلا عجب أن يقتل عبد الملك هذه المواقف  
الليثة من الحجاج .

مرة ثانية :

كان الحجاج حديد اللسان ، فما أكثر ما سب الناس أنفراداً وجماعات  
ولم يلم من لسانه خير قادة الجيوش . من أمثال المهلب وابن الأشعث ،  
وزيد بن المهلب : فعرض نفسه لخطبهم وسبهم ، وعرض سلطانه وسلطان  
عبد الملك للخطر . بسبب خروج هؤلاء عليه : وعرض نفسه لخط  
الخلافة واستنكاره .

ولم تكن شدته وحدة لسانه على الخارجين ، أو على عامة الناس أو الخاصة  
من البعيدين عن بيت الخلافة فقط ، بل كان يتناول أبا الخليفة وذوي قرابته .  
روى صاحب العقد الفريد في أخباره أنه لما قدم عبد الملك بن مروان  
المدينة نزل بدار مروان ، قرر الحجاج بخالد بن يزيد بن معاوية ، وهو جالس  
في المسجد ، وعلى الحجاج سيف محلي ، وهو يخطر متبعثراً في المسجد ، فقال  
رجل خالد : ما هذه التختارة ، فقال : بخ بخ ، هذا عمرو بن العاص . فسمعته  
الحجاج . فقال إليه فقال : قلت : هذا عمرو بن العاص ؟ والله ما سرفني أن  
العاص ولدني ولا ولدت له ، ولكن إن شئت أخبرتك من أنا ، أنا ابن  
الاشياخ من نقيف ، والعقائل من قریش . والذي ضرب مائة بسيفه كلهم  
يشهدون على أيك بالكفر وشرب الخمر ، حتى أفروا أنه وثي .

بينه وبين ولي العهد :

كان الحجاج يهمل شأن سليمان وهو ولي عهد أخيه الوليد . وقد روى  
صاحب العقد الفريد في أخباره كذلك . أن سليمان كان يكتب إليه في أيام  
الوليد كتباً فلا ينظر له فيها فكتب إليه .

• بسم الله الرحمن الرحيم . من سليمان بن عبد الملك . إلى الحجاج بن يوسف : سلام على أهل الطاعة من عباد الله . أما بعد ، فإنك امرؤ متهوك عنه حجاب الحق . مولع بما عليك لالك ، منصرف عن منافعك ، تارك لحظاك مستخف بحق الله وحق أوليائه ، لا ما سلف لك من خير يعطفك ، ولا ما عليك — لا لك — تصرفه في مهمة أمرك . معمود<sup>(١)</sup> ، معصوم<sup>(٢)</sup> عن الحق اعصصاراً . لا تمسكت عن قبيح ، ولا ترعوى عن إساءة ، ولا ترجو الله وقاراً<sup>(٣)</sup> ، حتى دعيت فحاشا سبياً ؛ ففقس شريك بفترك<sup>(٤)</sup> واخرز زمام نعل يحدو مثله قائم<sup>(٥)</sup> . وأيم الله لن أمكني الله منك لأدوسنك دوسة تلين منها فرائصك<sup>(٦)</sup> . ولأجعلك شريداً في الجبال ، تلوذ بأطراف الشمال ، ولأعلقن الرومية الخراء بئديها<sup>(٧)</sup> . علم الله ذلك مني . وقضى لي به على ، فقدمت غررتك العافية . وانتحيت أعراض الرجال . فإنك قدرت فبذلت<sup>(٨)</sup> . وظلمت فتعديت . فروبتك حتى تنظر كيف يكون مصيرك ، إن كانت في وبك مدة أنعلق بها . وإن تكن الأخرى فأرجو أن تثول إلى مذلة ذليلة . وخزينة طويلة ، ويجعل مصيرك في الآخرة شر مصير والسلام •

### رواهاج :

فكتب إليه الحجاج . بسم الله الرحمن الرحيم من الحجاج بن يوسف ، إلى سليمان بن عبد الملك : أما بعد ، فإنك كتبت إلى تذكر أني امرؤ متهوك عن حجاب الحق ، مولع بما على لالي . منصرف عن منافي ، تارك لحظي ، مستخف

(١) مع كذبح : تردد في التخلية وتغير .

(٢) معصوم محبوس .

(٣) وقار : لا يعتقد له غلبة يخاف نصيبه . أو لا آمن أن يخطئ لأهله أو لغيره .

(٤) ففقس نفسك وقت عد حذرك . (٥) ففقس عن مثله .

(٦) أوداج الفئق .

(٧) المقصود بها زيف أخت الحجاج كما صرح هو بذلك في رده .

(٨) بذلت كقبح : تكبر وعلا .

بحق الله وحق ولي الحق. وتذكر أني ذو مصاولة. ولعمري انك لصبي حديث السن؛ تعذر بقلة عقلك، وحدائث سنك، ويرقب فيك غيرك.

فأما كتابك الى قلعمرى لقد ضعف فيه عقلك، واستخف به قلبك، فله أبوك! أفلا انتصرت بقضاء الله دون قضائك، ورجاء الله دون رجائك، وأمت غيظك. وآمنت عدوك، وسترته عنه نديرك. ولم تنبه فيلتمس من مكابذتك ما لئلمت من مكابذته؟ ولكنك لم تشف<sup>(١)</sup> بالأمور علما، ولم ترزق من أمرك عزما، جمعت أمورا دلائك فيها الشيطان على أسوأ أمرك؛ فكان الجناء من خليقتك، واخلق من طيعتك. وأقبل بك الشيطان وأدبر، وحدثك أنك لن تكون كاملا حتى تتعاطى ما يعيبك، فتحدثت<sup>(٢)</sup> حشرتك لقوله، واتسع جوانبها لكذبته.

وأما قولك لو ملكك الله لعلقت زينب ابنة يوسف بشديها، فأرجو أن يكرمها الله بهوانك، وألا يوفق ذلك لك ان كان ذلك من رأيك، مع أني أعرف أنك كتبت إلى الشيطان بين كتفك، فشرع على شر كاتب راض بالخسف، فأحر باحق ألا يدلك على هدى، ولا يردك الا الى ردى. وتغلب فوق<sup>(٣)</sup> للخلافة؛ فأنت شائن البصر. طاع النظر<sup>(٤)</sup> تظن أنك حين تملسها لا تنقطع عنك مدتها، إنها لأكسطة الله<sup>(٥)</sup>. أسأل الله أن يلمك فيها الشكر. مع أني أرجو أن ترغب فيما رغب فيه أبوك وأخوك. فأكون لك مثلي لها. وان نفخ الشيطان في منخريك، فهو أمر أراد الله نزعك عنك، واخرجه الى من هو أكل به منك. ولعمري انها النصيحة. فان تقبلها فقلها قبل، وان تردّها على اقتطعتها دونك؛ وأنا الحاجاج،

لا يعنيني من خطاب سليمان الادلائه على بعض صفات الحاجاج، كالسكر حتى على ولي العهد، فهو يعرض عن رسالته ورحمها، ولعلها كانت رجاء

(١) طاعت قوله نطقت به.

(٢) مطلع تبار.

(١) قليل تعلم بالامور.

(٣) جرى ريقك حتى سال.

(٥) المراد أنها لا يعضها من يشاء.

أو شفاعة أو شبه ذلك ؛ والحجاج لا يميل إلى المحاباة التي لا يؤيدها الحق .  
انه قد أهمل كتب ولي العهد وانه جرى ، فبسم وصفه سليمان بعد الشتم الذي  
رآه له مستحقاً وصفه بالكبر والجرأة على الاساءة إلى الناس ؛ وأن الناس  
سموه فاحشاً مبأبأ . وقد تقدم مقاله في الانتصار رضى الله عنهم ، فيما حكاه  
أنس بن مالك من كتابه إليه .

وأما رد الحجاج فهو اليأس الشديد . لا يرجو معه الأبقاء على شيء من عطف  
سليمان ومودته . بل لقد أراد أن يغري به أخاه إذ قال ، وتخلب فوقك للخلافة .  
والحجاج لا ينسى نفسه ، إذ يذكر فضله في دولة عبد الملك وابنه الوليد حين  
يقول ، فأكون لك مثلي لما ، ثم يهدده بأنه إلا يرغب فيما يرغب فيه عمل على  
حرمانه الخلافة

### محاورة الحجاج أنه يعزله عن ولاية العراق

لعل هذا كان السبب المباشر في محاولة الحجاج عند الوليد أن يخلع  
سليمان من ولاية العهد . ويولي ابنه عبد العزيز . ولعل السبب الحقيقي أن الحجاج  
كان يريد أن تكون له يد عند الخليفة الثاني ، يحفظها له مادام حي ، وقد فعل  
ذلك من قبل . فعمل عبد الملك يحاول خلع أخيه عبد العزيز ، ويجعل الوليد  
ولياً تامد مكانه . ومن حسن الحظ أن عبد العزيز مات قبل عبد الملك . فانتقلت  
ولاية العهد إلى الوليد ، وقد عرف الوليد أنه هذا الفضل ، فضل أبيه عنده طول  
حياته . وهو إذ يفعل ذلك يأس وزأ حساساً في قلب الخليفة القائم . فليس  
أعز على الإنسان من ولده ، ولا يحب الخير لأحد كما يحب له ؟ وأي خير بعد  
الخلافة ؟ ولا يستطيع أن يحمل الخليفة على ذلك حملاً ولكنه يزين له ، وما أسرع  
ما يصنى الخليفة . ويحاول التنفيذ لو ساعدته الظروف .

وقد كانت بينه وبين سليمان عداوة ، وكان سليمان أولياء من يكرههم  
الحجاج ويكرهونه . ومن أكبر هؤلاء يزيد بن المهلب وأهله وبهيم الذين شفع  
فيهم سليمان عند أخيه الوليد ، وقد لجئوا إليه بعد فرارهم من سجن الحجاج .

وكانت صلة الحجاج ببيت الوليد قوية، فقد كانت ابنته الوحيدة متزوجة من مروان بن الوليد. ولقائل أن يقول، ولم لا يدع الوليد إلى مبايعة مروان هذا؟ والجواب أنه كان أصغر من أخيه عبدالعزیز، والخليفة نفسه لا يرضى أن يبایع للأصغر دون الأكبر.

نقد هذه السياسة :

إذا كانت هذه السياسة نافعة للحجاج فإنها أثم وخطيئة. فإن فيها نقضا لبيعة بلا مبرر؛ وإذا اجترأ الخلفاء على نقض العهود فجعلوا رعيهم على الغدر، وقد لا يتم لهم ما يريدون، فيحل العذاب الشديد والانتقام ممن أعانواهم على ذلك؛ ولهذا أمثلة متعددة في الدولة الأموية والعباسية.

سيرة عبد الملك عليه أهدأ :

ولى الحجاج لعبد الملك وابنه الوليد قريبا من ربع قرن في الحجاز والعراق؛ وكان مخلصا لها أشد الاخلاص، يرى طاعتها فرضا، والفناء في سبيل ملكهم ما شرفا ودينا، وقد أسرف في ذلك حتى ارتكب شططا، وأرهق الناس في مدة ولايته، وحملهم على الطاعة حملا، وأدب الخارجين على الخلافة بالسيف والسجن، حتى كثرت القتل وامتألت السجون.

ولكن عبد الملك كان له ضمير يتيقظ أحيانا فيرى أنه مشغول عن ظلم الحجاج وعناديه، ويذكر الله وحسابه فتشور نفسه عليه، ويكتب إليه سخطا معذرا. ولكنه لا يلبث أن يغفر له ويقدرا إخلاصه لدولته، وبخاصة إذا كتب إليه الحجاج معذرا خاشعا.

روى ابن عسك ربه في العقد الفريد عن أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ قال : « كان عبد الملك بن مروان مسنان قريش وسيفها، رأيا وحرما، وعابدها قبل أن يستخلف ورعا وزهدا . فجلس يوما في خاصته . فقبض لحية فشماها هليا ، ثم اجترأ فكتمسه . ونمخ نفخة ضاحكا فقال : ماذا أقول يوم ذي المسألة

عن أمر الحجاج ، وأدخض المحتج على العلم<sup>(١)</sup> بما طوته الحجب ؟  
أما إن تملكي له قرن في لوعة يحثها التذكار ! كيف وقد علمت فتعامت ،  
وسمعت قصصنا ، وحمله المكرام الكاتبون ! والله لكائي ألف ذا الطعن  
على نفسي ، بعد أن نعت الأيام بتصرفها أنفساً حق لها الوعيد بتصرم الزوال ،  
وما أبقت الشبهة للباقي متعلقا . وما هو إلا الغل الكامن ، والغش المتدمل  
من ذى النفس بخوبها<sup>(٢)</sup> اللهم أنصني أوسع ، غير متعصير ولا معتذر ،  
رسالة عمير الملك :

يا كاتب هات الدواء والقرطاس . فمعد كاتبه بين يديه ، وأمل عليه :  
بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عبد الملك بن مروان ، إلى الحجاج  
بن يوسف ، أما بعد . فقد أصبحت بأمرك برماً<sup>(٣)</sup> يقعدني الاشفاق ،  
ويقسمني الرجاء . تجرت في دار السعة ، وتوسط الملك ، وحين المهل ،  
 واجتماع المنكر . أنس العذر في أمرك . فأنا - لعمر الله - في دار الجزاء ،  
وعدم السلطان ، واشتغال النفس ، والركون إلى الذلة من نفسي . والتوقع  
لما طويث عليه الصنف أبحر . وقد كنت أتركك فيما ضوقني الله حمله ،  
ولاث بحقوقى<sup>(٤)</sup> من أمانة الله في هذا الخلق المرعى ، فبدلت منك على  
الحزم والجدة في إمانة بدعة ، وإنعاش سنة ، فمعدت عن تلك ، ونهضت  
بما عاهدتها<sup>(٥)</sup> حتى صرت حجة الغائب . وعذر اللاعن والشاهد القائم .  
فلعن الله أبا عقيل<sup>(٦)</sup> وما نجل ! فالأم والله ، وأخيت نسل ،  
فلعمرى ما ظنكم الزمان . ولا قصدت بكم المراتب . لقد ألبستمك ملبسكم ،

( ١ ) أخصر الجميع على العلم : أطلت حجة على الله العلم .

( ٢ ) الحوب روع للقلب أى سواده ، والحوياء شقى .

( ٣ ) البرم الضجر والتقلق .

( ٤ ) اختبر بالفتح والكسر الكشح . محدد الأثار . ولات . عقد ونف . ولات الشيء أداره .

مرتين كما نظوى للهمة والأزار .

( ٥ ) عاهدنا . عانفنا .

( ٦ ) أبو عقيل . جد الحجاج لأبيه .

واقعدتكم على روابي خططكم<sup>(١)</sup> وأحلتكم على منعكم ، فمن حافر وناقل  
وما تح<sup>(٢)</sup> للفلاوات القفرة المتفيقة<sup>(٣)</sup> . ما تقدم فيكم الاسلام ، ولقد  
تأخرتم — وما الطائف منا يعيد يجهل أهله — ثم قت بنفسك ، وطمخت  
بهمتك ، وسرك انتضاء سيفك . فاستخرجك أمير المؤمنين من أعوان روح  
ابن زباع وشُرطه . وأنت على معاوته يومئذ محسود ، فهما أمير المؤمنين  
— والله يصلح بالتوبة والغفران ذلك — وكان ما لو لم يكن لسكان خيراً  
عما كان . كل ذلك من تجاسرك ، وتحاملك على المخالفة لرأى أمير المؤمنين ،  
فصدعت صفاتنا<sup>(٤)</sup> ، وهتكت حجبتنا ، وبسطت يديك تخفن بهما من  
كراثم ذوى الحقوق اللازمة ، والأرحام الواشجة<sup>(٥)</sup> في أوعية ثقيف ،  
فأستغفر الله لذنب ما له عذر . فلئن استقال<sup>(٦)</sup> أمير المؤمنين فيك الرأي ،  
لقد جالت البصيرة في ثقيف بصالح النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ اتهمته  
على الصدقات وكان عبده — فبر — بها عنه<sup>(٧)</sup> ، وما هو إلا اختيار للثمة ،  
والمطلب لمواضع الكفاية . فقد في الرجاء كما قعد بأمر المؤمنين فيما نصك  
له ، فكان هذا ألبس أمير المؤمنين نوب العزاء . ونهض بعذره إلى استئشاق

(١) الخطة بالكسر : الأرض التي تخطط ، ولم يفرها قبك نازل .

(٢) منع : ناء من لبت أخرجه بدله بشدة .

(٣) المتفيقة .

(٤) الصفاء وجمعها صفا : آخر فصله الفصح .

(٥) كراثم المال : أحسنه . والواشجة : المتشعبة للثمة .

(٦) استقال أمير المؤمنين فيك الرأي . أى طلب من رأيك أن يثبت من أخذك بذنوبك ، أى

القبس لك القدر وأحسن فظن .

(٧) ثقيف الجذ الأعلى للحجاج . وتنسب إليه فيك . وقالوا إن صالحاً صلى الله عليه وسلم يث

إلى عامل له على الصدقات كما يعمى إليه مبرك . وقد ورد ذلك في حجة لبيد . عن رضى الله عنه ،

وكان الحجاج يرد على من يقول إنه من بغايا ثود — بقوله لعل ونحوه . أى . وقال مرة أخرى .

لئن كنا من بغايا ثود لما نجا إلا غيرهم .

ودوى أن ثيفاً من هوازن وهو أرجح الأقوال ، وقبل منهم من إياه : كما أشار إلى ذلك مالك

ابن الزبب وغيرهم من الحجاج .



نسيم الرّوح ، (١) فاعتزل عمل أمير المؤمنين ، واطعن (٢) عنه بالعنة اللازمة ،  
والعقوبة الناهكة (٣) إن شاء الله ، إذ استحكم لأمير المؤمنين ما يحاول من  
رأيه ، والسلام .

هذا كتاب عبد الملك إليه ، وقد صحّ ضميره ، ورق قلبه لمن تحت يد  
الحجاج . وخاف مسألة الله له عن أمره يوم القيامة ، فهل كان جادا فيما أراد  
من عزله وإراحة الناس منه ؟ لم يكن الخليفة يقصد شيئا من هذا ، ولعله كان  
يريد تهديد الحجاج فقط ، ودليلنا على ذلك أنه أمر الرسول الذي حمل الكتاب  
( وهو مولى لعبد الملك اسمه نُبَكة ) أن ينظر إلى الحجاج في أثناء قراءته ،  
وأمره أن يعزله ويرجع به إلى دمشق إذا اضطرب وتغير ، وأن يبقيه إذا  
ثبت وتحمل العزل بشجاعة .

وقد اضطرب الحجاج كما يقول هذا الرسول . . ففك الكتاب فقرأه ،  
وجعل يئنّاب ، ويردّد تأوّه . ويسيل العرق على جبينه وصدغيه ، على شدة  
البرد . من تحت قلنسوته . وجعل يشخص إلى بصره ساعة كالمتموم إلا أنه  
واجب ، ثم يعود إلى قراءة الكتاب ، وإلى لأقول : ما أراه يثبت حروفه من  
شدة اضطراب يده . حتى استقصى قراءته . ثم مالت يده حتى وقع الكتاب  
على الفراش ، ورجع إليه ذهنه . فمسح العرق عن جبينه ، ثم قال متمثلا :  
وإذا المنية أنشبت أظفارها أُلقيت كل تيمة (٤) لا تنفع

ثم قال : قبح والله منا الحسنُ يا بُنَاة ! وتواكلنا عند أمير المؤمنين  
الأسن ، وما هذا إلا ماسخ فكرة نحمها مُرَصِدٌ يَكْبُ بقصتنا ،  
مع حسن رأى أمير المؤمنين فينا . ثم نادى : يا غلام ، فبادر الغلمان  
الصيحة فليء علينا اجلس حتى دفأتني منهم الأنفاس . فقال : الدواة

( ١ ) إراحة . ( ٢ ) ارسل . ( ٣ ) العقوبة . ( ٤ ) التهمة . الحجاب . يعلق على الصبيان لينع عنهم الأذى والبلاء . وقائل هذا البيت هو أبو ذؤيب  
الهمذلي في رثاء الولاء .

والقرطاس . فأق بنبوة وقرطاس ، فكتب يده . وما رفع القلم إلا متددا حتى سطر مثل خد الفرس . فلما فرغ قال لى : يا نبأته ، هل علت ما جئت به فسمعتك ما كتبنا ؟ قلت لا . قال : إذن حسبك منا مثله . ثم ناولنى الجواب . وأمر لى بجائزة فأجزل ، وجرد لى كساء ، ودعا لى بطعام فأكلت . ثم قال : تَبَكُّكُ إِلَى ما أمرت به من عجلة أو تَوَان . وإني لأحب مقارنتك ، والآنس بوقتتك ، فقلت : كان معي قفل مفتاحه عندك <sup>(١)</sup> ومفتاح قفلك عندى <sup>(٢)</sup> . فأحدثت لك الوافية بالأميرين ، فأقفلت المسكروه . وفتحت العافية وماساء لى ذلك . وما أحب أن أزيدك يانا ، وحسبك منى استعجال القيام . ثم نهضت . وقام مودعنا لى ، فالتزمنى وقال : أبى أنت وأبى : رب لفظة مسموعة ، ومحتقر نافع ، فكن كما أظن . فخرجت مستقبلا وجهى . حتى وردت أمير المؤمنين . فوجدته منصرفا من صلاة العصر . فلما رآنى قال : ما احتواك المضيغ يا نبأته <sup>(٣)</sup> فقلت : من خاف من وجه الصباح أدب <sup>(٤)</sup> . فليست وانتبات عنه ، فتركى حتى سكن جأشى . ثم قال : عهيم <sup>(٥)</sup> ؟ فدفعته إليه الكتاب . فقرأه متبها ، فبنا مضى فيه خحك حتى بدت له من سوداء . ثم استقصاه ، فأنصرف إلى فقال : كيف رأيت إشفاقه ؟ قال : فقصصت عليه ما رأيت منه . فقال : صلوات الله على الصادق الأمين . : إن من البيان لسحرا . ثم قذف الكتاب إلى فقال اقرأ . فقرأته . فإذا فيه :

(١) يقصد الرسالة التي أرسل بها عبد الملك .

(٢) يقصد ، ومفتاح أخبارك عندى وقد عزمت أن أقول للخليفة من هذه الأخبار ما ينفعك .

(٣) لم تمكك طويلا .

(٤) سارنى آخر الليل .

(٥) أى ما الأمر والخبر .

## رد المحتاج :

بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله أمير المؤمنين ، وخليفة رب العالمين  
المزيد بالولاية . المعصوم من خطئ<sup>(١)</sup> القول . وزلزل الفعل ، بكفالة الله  
الواجبة لذوى أمره . من عبد اكتشفته الذنبة . ومد به الصغار إلى وخيم  
المرتفع . وويل المسكرع<sup>(٢)</sup> . من جال قاذح<sup>(٣)</sup> . ومغترق قاذح<sup>(٤)</sup> . والسلام  
عليك ورحمة الله التي اتعت فوسعت . وكان بها التقوى إلى أهلها قائداً .  
فإني أحمد إليك الله الذي لا إله هو . راجياً لعطفك بعطفه . أما بعد : كان  
الله لك بالدعة<sup>(٥)</sup> في دار الزوال . والأمر في دار الزوال ، فإنه من  
عشت<sup>(٦)</sup> به<sup>(٧)</sup> ففكرتك يا أمير المؤمنين غنوصاً . فما هو إلا سعيد يؤثر .  
أو شقي يؤثر<sup>(٨)</sup> . وقد حجبتني عن نواظر السعد . لسان مرصده . وناقض  
كحيد<sup>(٩)</sup> . انتهز<sup>(١٠)</sup> به الشيطان حين الفكرة . ففتح به أبواب الوسواس ،  
بمناغريه الصدور . فواتعوا به باستعادة أمير المؤمنين من رجيم . إنما سلطانه  
على الذين يتسولون<sup>(١١)</sup> . واعتصاماً بالشوكل على من خصه بما أجزل له  
من قسم<sup>(١٢)</sup> . الإيمان ، وصادق السنة . فقد أراد اللعين أن يفتق لأوليائه فتقا  
نبا عنه كيده . وكثر عليه تحصره ، بآية قرع بها ففكر أمير المؤمنين مسابسة<sup>(١٣)</sup>  
وكادحاً ومؤرراً<sup>(١٤)</sup> . ليفل من شرابه<sup>(١٥)</sup> الذي تصنى . وبصيب ناراً لم يزل به

(١) القول القاسد المضطرب . خطئ كمرح

(٢) المشرب بالغيم كما فعل ليهائم والمنصود . حور . قفاقة .

(٣) ساع بالشرب .

(٤) مغترق بجاهه عند أمير المؤمنين . ورجح أي شرب . وبلغني بما يقربه من الأباطيل .

(٥) الدعة الخفض والسعة في العيش . دار الزوال الدنيا . ودار الزوال الآخرة .

(٦) عشت : عرضت . أي من عشت ه فكرتك

(٧) يؤثر : يظهر ويصدق . ويزور : يزيغ ويتركه مكرراً .

(٨) مرصده أي متبع لحفواتي وأهمل . ورجح : أي كاد ولا يرا في أهلاً للتعصب الذي أنا فيه .

(٩) كحيد به . (١٠) انتهم به .

(١١) يتسولوا .

(١٢) قسم : الحاد الساعي . والتكرير : الذي يغلب على الناس ويحمل بعضهم على بعض . القرب : الحد .

مُرْتَزَاً<sup>(١)</sup> وَأَذْكَرَهُ مَاعَتاً بِهِ الْأَوَّلَ قَدِيمَةً حَتَّى لَحِقَتْهُ بِمَثَلِهِ مِنْهُمْ، مَا كُنْتُ  
أَبْلُوهُ مِنْ خِصَّةِ أَقْدَارٍ، وَمَزَاوِلَةِ أَعْمَالٍ، إِلَى أَنْ وَصَلْتُ إِلَى ذَلِكَ بِالشَّرْطِ<sup>(٢)</sup>  
لِرُوحِ بْنِ زُبَاعٍ، وَقَدْ عَلِمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - بِفَضْلِ مَا اخْتَارَ اللَّهُ لَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى  
مِنَ الْعِلْمِ الْمَأْتُورِ الْمَاضِي - بِأَنَّ الَّذِي عَمِرَ بِهِ الْقَوْمَ مَصَابِعُهُمْ<sup>(٣)</sup> مِنْ أَشَدِّ  
مَا كَانَ يَزَاوِلُهُ أَهْلُ الْقُدَمَةِ<sup>(٤)</sup> الَّذِينَ أَجَبَتِ اللَّهُ مِنْهُمْ، وَقَدْ اعْتَصَمُوا  
وَامْتَعَصُوا<sup>(٥)</sup> بِذِكْرِ مَا كَانَ : وَارْتَضَعُوا بِمَا يَصْكُونُ، وَمَا جَهْلُ أَمِيرِ  
الْمُؤْمِنِينَ - وَلِإِبْيَانِ مَوْقِعِهِ، غَيْرَ مُجْتَمِعٍ وَلَا مُتَّحِدٍ<sup>(٦)</sup> - أَنَّ مَتَابَعَةَ رُوحِ  
ابْنِ زُبَاعٍ طَرِيقٌ إِلَى الْوَسِيلَةِ لِمَنْ أَرَادَ مِنْ فَوْقِهِ، وَأَنَّ رُوحاً لَمْ يَلْبَسْنِي الْعَزَمَ  
الَّذِي بِهِ رَفَعَنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى خُصْرِهِ<sup>(٧)</sup>، وَقَدْ أَلْصَقَنِي بِرُوحِ بْنِ زُبَاعٍ هَمَّةٌ لَمْ  
تَزَلْ نَوَاطِرُهَا تَرْمِي فِي الْبَعِيدِ، وَتَطَالِعُ الْأَعْلَامَ، وَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ  
نَصِيحاً أَقْسَمُهُ الْإِشْفَاقُ مِنْ سَخَطِهِ، وَالْمَوَاطَبَةُ عَلَى مَوَافَقَتِهِ فَمَا بَقِيَ لَنَا  
إِلَّا صَبَابَةٌ<sup>(٨)</sup> وَإِرْثٌ يَجُولُ بِهِ النَّفْسُ، وَتَطْرِيفُ النَوَاطِرِ.

وَلَقَدْ سَرَتْ بَعِينَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ سِيرَ الْمُتَبَسِّطِ لِمَنْ يَتْلُوهُ، الْمُتَطَاوِلِ لِمَنْ  
يَقْدُمُهُ، غَيْرَ مُبَيَّنٍّ<sup>(٩)</sup> وَلَا مُوجِبٍ، وَلَا مُتَاقِلٍ وَلَا مُجْهِفٍ، فَفُتُّتُ  
الطَّالِبَ، وَلَحِقْتُ الْهَارِبَ، حَتَّى ثَارَتِ السَّنَةُ، وَبَادَتِ الْبَدْعَةُ، وَخَسِيءُ  
الشَّيْطَانِ، وَحَمَلَتِ الْأَدْيَانُ إِلَى الْجُنَادِ الْعَظِيمِ وَالطَّرِيقَةِ الْمَثَلِ، فَهَذَا يَا أَمِيرَ  
الْمُؤْمِنِينَ تَحْصِبُ الْمَسْأَلَةَ لِمَنْ رَاعَى، وَقَدْ عَقَدْتُ الْحَبْسَةَ، وَقَرَنْتِ  
الْوُظَافِينَ<sup>(١٠)</sup> لِقَاتِلِ مُجْتَمِعٍ - أَوْلَاثِمِ مَلَجٍ، وَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيِ الْمَظْلُومِ،

(١) المَلَزَمُ: الشَّدِيدُ الْغَلِيانَ.

(٢) التَّحَرُّطُ: الْقِيَامُ بِالْعَمَلِ فِي شَرِطِهِ وَكَانَ الْحَاجَّاجُ وَبَسّاً لَشَرِّهِ رُوحَ.

(٣) الْمَصَابِعُ جَمْعُ مَصْبَةٍ، مَا يَحْتَمِلُهُ نَاسٌ مِنَ الْأَبَارِ وَالْأَبْنِيَةِ، وَهَذَا جَرْدُ عَبْدِ الْمُنْكَ بِذَلِكَ فِي كِتَابِهِ.

(٤) الْقَدَمَةُ: السَّابِقَةُ وَالْأَثَرُ الْحَسَنُ.

(٥) شَقَّ عَلَيْهِمْ وَغَضِبُوا.

(٦) جَوَّازٌ لِحُدُودِ الْأَدَبِ الْوَاجِبَةِ فِي عَاطِلَةِ الْخَلِيقَةِ.

(٧) خُدْمُهُ. (٨) بَقِيَّةُ سِيرَةٍ مِنَ الْأَوَّلِ: الْمَرَادُ: الْبَقِيَّةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

(٩) ثَلَاثِي يَجْمَدُ وَكَوْنُهُ فِي الْبَرْدِ - مَرَجِفٌ - مَرَجِفٌ - مَحْجَفٌ - مَحْجَفٌ. (١٠) الْمَقْصُودُ: فَتْلَتُهُ.

ومعقل الخائف . ويظهر له الحق نياً ، أمرى ولكل نياً مستقر .  
وما حَفَنْتُ يا أمير المؤمنين في أوعية ثقيف حتى رَوَى الظلمان ،  
وبطن الغرثان ، وغصت الأوعية ، وانقدت الأوكية في آل مروان ، فأخذت  
ثقيف فضلاً صار لها ، لولاهم لقطته السائلة . ولقد كان ما أنكره أمير  
المؤمنين من تحاملي . وكان ما لم يكن تعاضم الخطب فوق ما كان .

وإن أمير المؤمنين لرابع أربعة : أحدهم ابنة شبيب النبي ، صلى الله عليه  
وسلم ، إذ رمت بالظن غرض اليقين ، تفرساً في الشجى المصطنى بالرسالة .  
لحق لها فيه الرجاء ، وزالت شبهة الشك بالاختبار ، وقبلها العزيز في يوسف ،  
ثم الصديق في الفاروق رحمة الله عليهما ، وأمير المؤمنين في الحجاج .

وما حسد الشيطان يا أمير المؤمنين خاملاً ، ولا شرف بغير سجاكم ،  
غبطة يا أمير المؤمنين الرجيم أدبر منها ، وله غواة ومرساة ، وقد قلقت حياته ،  
ووهن كيده يوم كيت وكيت ، ولا أظن أذكر لها من أمير المؤمنين . ولقد  
سمعت لأمير المؤمنين في صالح صلوات الله عليه . وفي ثقيف مقالاً ، بهم في  
الرجاء لعدله عليه ، بالحجة في رده بمحكم التنزيل ، على لسان ابن عمه خاتم النبيين  
 والمرسلين ، صلى الله عليه وسلم ، فقد أخبر عن الله عز وجل ، حكاية غر الملائكة  
من قريش عند الاختيار والافتخار ، وقد نفخ الشيطان في مناخرهم ، فلم  
يَسْتَعُوا خَلْفَ مَا قَصَدُوا إِلَيْهِ مُوَأْسَى . « وَقَالُوا لِمَوْلَا نَزَّلَ هَذَا  
الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرَبَاتِ عَظِيمٍ ، فَوَقَعَ اخْتِبَارُهُمْ عِنْدَ  
الْمُبَاهَاةِ بِنَفْخَةِ الْكَبِيرِ ، وَكَبَرِ الْجَاهِلِيَّةِ — عَلَى الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْخَزَوِيِّ ، وَأَبِي  
مُسْعُودِ الثَّقَفِيِّ ، فَصَارَا فِي الْاِفْتِخَارِ بَهُمَا صُنُوفَيْنِ ، مَا أَنْكَرَ اجْتِمَاعُهُمَا مِنْ  
الْأَمَةِ مَتَكَرَّرَ فِي مَدِّ صَوْتِ الْقُرْآنِ ، وَبَلَغَ الْوَحْيُ ، وَإِنْ كَانَ لِيَقَالَ لِلْوَلِيدِ  
فِي الْأَمَةِ يَوْمَ مَذْرِيحَاتِ قُرَيْشٍ ، وَمَارِدَ ذَلِكَ الْعَزِيزُ تَعَالَى إِلَّا بِالرَّحْمَةِ الشَّامِلَةِ  
فِي الْقِسْمِ السَّابِقِ . فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ . « أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟  
تَحْنُ قَسَمْنَا يَسْمَهُمْ مَعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَا قَدَّمْتَنِي

يا أمير المؤمنين ثقيف في الاحتجاج لها . وإن لها مقالا رجباً ، ومعاذة قديمة . إلا إن هذا من أيسر ما يحتج به العبد المشفق ، على سيده المغضب ، والأمر إلى أمير المؤمنين عزرك أم أقر . وكلاهما عدل متبع ، وصوابه معتدل . والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله .

تعليق :

هذه رسالة في الاعتذار أو التنصل من اتهام ، أو البراءة من عيوب ، ولكنها لم تقتصر على ذلك . بل شملت الغمض الضمى والصريح ، والفخر بالقبيلة ، وبأهمة العالية ، مع حسن التلطف . وجودة التنصل ، وقوة الحججة .

فهو يقدم بين يدي الاعتذار طاعة وولاء لا مزيد عليهما ، ويظهر أمام خليفته ذلة وخضوعاً ليس بعدهما . فهو يكتب إليه . من عبد اكتشفه الذلة ، ومد به الصغار إلى وبيل المرتع ووخيم المسكرخ . ويعظم من سلطان عبد الملك فيجعله لا يفكر في أحد مخصوصاً إلا أشقاء أو أسعد .

ولا يرى سبباً لسخطه إلا وشاية هماز شاء بنميم ، حسده على قربه من الخليفة ، ونفس عليه تقدمه في المنزلة ، بل يجعل ذلك الحاسد شيطاناً رجيماً .

أدبه مع عبد الملك :

ثم يرد على عبد الملك رد التابع المؤدب . ولكنه قوى اللسان ، حسن التخلص . فإذا عبره عبد الملك بعمل آياته قديماً ، قال له ، إن ذلك من أشد ما كان يزاوله أهل القدمة الذين اجتبى الله منهم .

ويفخر بنفسه . وأنه كان على أهمة . فلم يخدم روحاً إلا ليصل إلى الخليفة ، وأن روحاً لم يرفعه من خمول ، وإنما ألصقته بروح همة لم تزل تواظرها ترى في البعد ، وأن روحاً لم يلبه العزم الذي رفعه به أمير المؤمنين ، وأنه أعيا من يريد اللحاق به ، برعاية أمير المؤمنين ، حتى أقر الأمور ، وأجيا السنة ، وأمات البدعة .

ثم يرد التهمة التي رجاه بها الخليفة من جهة المال ، فيقول إنه لم يأخذ له ولأهله إلا ما فضل عن آل مروان ، ولو لم يأخذه للقطعة السائلة .

أما أقوى بيانه ، وأوضح برهانه ، فهو في جعل أمير المؤمنين رابع أربعة في صدق الفراسة ، وحسن الاختيار ، ابنة شعيب ، إذ قالت لأبيها عن سيدنا موسى يا أبت داسأ جره إن خير من استأجرت القوي الأمين ، والعزير إذ قال لأمرأته عن يوسف بعدما اشتراه : ، أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وأبو بكر الصديق إذ عهد إلى عمر بن الخطاب ، وقال : فإن بر وعدك ، فذلك على به ورأي فيه ، ، وقد صدقت الأيام فراسة هؤلاء الثلاثة ، ودلت على حسن اختيارهم ، أما الرابع فهو عبد الملك في اختيار الحجاج ، فانظر كيف جعل خليفته كـ هؤلاء الكرام ، وكيف مدح نفسه إذ صدق الظن فيه .

وأما رده لتحقير الخليفة من شأن ثقيف ، فهو رد أقوى . وأي رد أقوى من شهادة القرآن ؟

هذا وجه من أوجه القوة في كتابة الحجاج ، يظهر في تفنيد حجج خصمه ، والرد على اتهامه ، والدفاع عن نفسه ، ببيان واضح ، وحجة دامغة . وقد سبق مثل ذلك في رده على سليمان بن عبد الملك .

ويضيف إلى ذلك غاية الأدب في خطاب الخليفة : يعرف له منزلته ، ويقدره حق قدره ، ويدعوله بما يناسب الموضوع : ويسلم عليه ، ويرجوه رحمة الله التي اتسعت فوسعت ، أليس هذا استرحاماً للخليفة كذلك ؟

واحترامه في التعبير إذ يقول : ولليان موقعة غير محتج ولا متعذر يعني أن الإبانة لا بد منها ، وإن كان في هذا لا يحتج على أمير المؤمنين ، ولا يتعدى ما يجب عليه له من التعظيم والتوقير ،

وإذا كان قد تقدم سريعاً في المناصب حتى أعيان من وراءه ، أو سار كما يقول هو ، سير المثبط لمن يتلوه ، فذلك بعين أمير المؤمنين .

أما الكتاب فتدقق ، وأما الأسلوب فأسلوب خطابي مفحيم ، ويزيده  
إلحاما الاحتجاج بالقرآن والاستشهاد بالتاريخ ، والتليح المؤدب بالفضل  
الذى للحجاج على دولة عبد الملك وسلطانه .

وقد جاء فيه بالفقرات المسجوعة القصيرة ، والجل ، المتوازنة فزادته قوة  
لفظية ، بجانب قوته المعنوية ، وإذا كان فيه بعض الألفاظ الغريبة بالنسبة لنا  
فليس ذلك بحجة عليه ، فهو لم يكتب لنا ، وإنما كتب لعبد الملك الراوية الأديب  
الفقيه البلق الناقد ، وإذا كان يظفر من عبد الملك بالتقدير العظيم ويستميل قلبه  
ببيانه ، حتى يقول : صلوات الله على الصادق الأمين : « إن من البيان لسحرا »  
فتلك شهادة من ناقد خبير ، قد أيدتها شهادة غيره في الحجاج بوجه عام ،  
خطيبا وكاتباً وأديباً .



## صفات الحجاج

قد يندم الحجاج لشدة ، وعدم تفرقه بين أقدار الناس ، فقد يكون للشدة موضع ، وللين موضع ، أما الحجاج فقد كان شديداً حتى في موضع اللين ، كما في حالة أنس بن مالك ، وكان عجولاً متسرعاً مع قواده ، وكان يتدخل في أمورهم وهو بعيد ولا يعرف أن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب . كما في موقفه من المهلب ومن ابن الأشعث .

وكان جريئاً على أقدار الرجال ، ولا يحجب في ذلك بعد جراته على سفك الدماء ، حتى لقد روى التاريخ أنه اجترأ على أسمى مقام ، فقال عن بطوفون بقبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، إنما بطوفون برمة وأعواد ، وهذا سوء أدب لا مثيل له ، وقد كفره بعض الناس من أجله ، وكان جريئاً على البيت الحرام فرماه بالمنجنيق ، وإن كان اعتذاره عن هذا اعتذاراً قوياً في خطبته التي رويها فيما سبق .

وكان خافياً سبباً ، كما يبين ذلك في أول خطبة من خطبه في أهل العراق ، ومن رسائله إلى سليمان بن عبد الملك ، وفي كتابه إلى ابن الأشعث وهو يحارب رتيلاً وفي كتابه إلى أنس بن مالك .

ويروى ابن عبد ربه في العقد ٢ ص ٢٥٤ : قال عبد الملك بن مروان للحجاج ليس من أحد إلا وهو يعرف عيب نقه ، فصف لي عيوبك ، قال أعفني يا أمير المؤمنين . قال : لا بد أن تقول : قال : أنا لجوج حَسود حقود . قال ما في إبليس شر من هذا .

ويروى صاحب الأمالى : أنه أجابه بقوله : أنا حديد حَسود حقود ذوقسوة . فبلغ هذا الكلام خالد بن صفوان ، فقال : لقد اتحل الشر بخذافيره ، والمروق من جميع الخير بزواتره ، ولقد تأتق في ذم نفسه ، وتجوّد في الدلالة على لؤم

طبعه ، وفي اقامة البرهان على إقراط كفره ، والخروج من كنف ربه ،  
وشدة المشاكلة لسيطانه الذي أغواه .

وهذا حكم قاس من خالد ، وإن كان عيب الحجاج كبيراً ، فالحسد  
والخقد من أقبح الصفات . ولكنها ليست كفراً ولا خروجاً من كنف الله .  
وقد كانت فيه صفات محمودة . منها الإخلاص لولى نعمته عبد الملك ،  
وحرصه على رضاه . وفعله كل ما يمكن لتثبيت ملكه . وقد تقدمت لذلك  
أمثلة كثيرة .

ومنها أنه كان يكره المحاباة على حساب المصلحة العامة ، فقد روى أنه  
بعد ما دخل العراق ، طلب رجلاً يوليه أمر شرطته فقبل له : أى الرجال  
تريد ؟ قال : أريد دائم العبوس ، طويل الجاوس ، سمين الأمانة ، أعجم الحيانة  
لا يحنق في الحق على حرة ، يهون عليه سؤال الأشراف في الشفاعة . فقبل له  
عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمي . فأرسل إليه فاستعمله ، فقال له : لست  
أقبلها إلا أن تسكفني عمالك وولدك وحاشيتك . فقال الحجاج : يا غلام ،  
ناد : من طلب إليه منهم حاجة فقد برئت الذمة منه .

والحق أن من تعجبه هذه الصفات يكون متخلفاً بها ، وأن هذه الصفات  
لازمة لمن يلى أمراً عاماً . ثم إن الحجاج لا يترك عبد الرحمن بن عبيد التميمي لعماله  
وولده وحاشيته ، بل يتأذى فيهم أن ذمت بريئة عن يطلب حاجة من عبد الرحمن .  
يمثل هذه الصفات يصل الحق إلى أصحابه . وتقل الجرائم ، ولا يفلت المجرم  
بشفاعة قريب أو صاحب جاه . وطول التعليق على مزايا هذه الصفات في  
صلاح أمر المحكومين ، وهى من غير شك تحمد للحجاج في إدارته ، فقد كان  
لا يحابي ولا يميل مع الصديق أو القريب أو الشريف على الحق .

وقد كتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج أن يصف سيرته ، فكتب إليه :  
«إن أيقظت رأى وأتمت هواى ، فأدنت السيد المطاع في قومه ، ووليت  
الحرب الجازم في أمره ، وقلدت الخراج الموفر لأمانته ، وقسمت لكل خصم

من نَفْسِي قَدَمَا أُعْطِيَهُ حَتْلًا مِنْ لَطِيفِ عَنَائَتِي ، وَصَرَفْتَ السَّيْفَ إِلَى السَّطِيفِ  
الْمَسِيءِ ، وَالثَّوَابَ إِلَى الْمُحْسِنِ الْبَرِيِّ ، خَافَ الْمُرِيبَ صَوْلَةَ الْعِقَابِ ، وَتَمَكَّنَ  
الْمُحْسِنُ بِحِظِّهِ مِنَ الثَّوَابِ ،

وَيُظْهِرُ مِنْ سِيرَتِهِ أَنَّهُ كَانَ مُتَمَسِّكًا بِهَذِهِ السِّيَاسَةِ . فِي الْجُمْلَةِ اللَّهُمَّ إِلَّا الْأَمْرَ  
الْأَوَّلَ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا لِمَنْ عَلَى مِثْلِ وَلَائِهِ لِلْخَلَاقَةِ ، ثُمَّ  
لِأَوْلِيَائِهِ هُوَ .

وَلَكِنْ يُؤْخَذُ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَعَ اخْتِيَارِهِ لِلْحَرْبِ رِجَالًا مِنْ ذَوِي الْحِزْمِ  
وَالسَّكْفَايَةِ ، كَانَ لَا يَتْرَكُهُمْ أَحْرَارًا ، بَلْ كَانَ يَتَدَخَّلُ فِي عَمَلِهِمْ ، وَكَانَ الْأَوَّلُ  
أَنْ يَتْرَكَهُمْ يَتَصَرَّفُونَ بِمَا دَامُوا مَوْضِعَ ثَقَّتِهِ .

وَهَاكَ مِثَالًا لِأَحَدِ مَنْ صَفَاتِهِ : دَخَلَ عَلَيْهِ سَلِيكٌ بِنَسْلِكَ ، فَقَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ  
الْأَمِيرَ : أَعَرَفِي سَمْعَكَ وَانْغَضَضَ عَنِّي بَصْرَكَ ، وَانْكَفَفَ عَنِّي حَزْبَكَ . فَإِنْ  
سَمِعْتَ نَخَطًا أَوْ زَلْزَلًا فَدُونَكَ وَالْعُقُوبَةُ ، فَقَالَ قُلُ : فَقَالَ : عَصَى عَاصٍ مِنْ  
عَرْضِ الْعَشِيرَةِ فَخَلَّتْ عَنِّي أَسْمِي ، وَهَدَمْتَ دَارِي ، وَحَرَمْتَ عَطَائِي .  
قَالَ : هِيَاتِ ! أَمَّا سَمِعْتَ قَوْلَ الشَّاعِرِ :

جَانِيكَ مَنْ يَجْنِي عَلَيْكَ وَقَدْ تَعْنَدَى الصَّحَّاحَ مَبَارِكُ الْجُرْبِ  
وَلَرَبِّ مَا تُخَوِّذُ بِذَنْبِ عَشِيرَةٍ وَنَجَا الْمُقَارِفَ صَاحِبَ الذَّنْبِ

قَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، سَمِعْتَ اللَّهُ قَالَ غَيْرَ هَذَا . قَالَ : وَمَا ذَاكَ أَقَالَ :  
قَالَ : يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنْ لَمْ أَهَبْ شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ، إِنْ  
تَرَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ . قَالَ مُعَاذُ اللَّهِ أَنْ نَتَّخِذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مُتَاعِنًا  
عِنْدَهُ إِنْ إِذَا لَمْ نَلِكْ الْمُرُوءَةَ .

فَقَالَ الْحُجَّاجُ : عَلَيَّ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ فَإِنَّ بِهِ . فَنُتِلَ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَقَالَ :  
لَا تُصَلِّحُكَ لِهَذَا عَنْ اسْمِهِ ، وَاصْصَلِّحْكَ لَهُ بِعَطَايِهِ ، وَابْنُ لَهُ مَرْزَلَهُ .

وَأَمْرٌ مُنَادِيًا يَتَادَى فِي الثَّمَامِ ، صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَبَ الشَّاعِرُ .  
وَقَدْ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَيْنِ مِنْ هَذِهِ الْأَخْيَارِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ كَمَا تَصِفُهُ كُتُبُ التَّارِيخِ

ظالماً كافراً ، فلو كان كذلك لما أمر يزيد بن مسلم أن يعفو عن سليلك بن سلكه ، ولما رق قلبه للقرآن وقوة حجته في الحالة الأولى . وقد يكون ذلك من إعجابه بالجواب السديد ، والمنطق الصائب ، والحجة القوية بصرف النظر عن صدقها أو كذبها .

امضاء . عمن الشراب :

وَفَدَّ الحجاج على الوليد ، وأضافه ، فلما أكاد دعاه الوليد إلى الشراب . فقال : يا أمير المؤمنين : ليس بحرام ما أحلته ، ولست أمتنع أهل عملي منه ، وأكره أن أخالف قول العبد الصالح <sup>الك</sup> وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، فأعفاه الوليد .

كرمه :

قالوا إن الحجاج كان كريماً ، وليس ذلك بغريب على عربي مثله ، روى أنه كان يضع في كل يوم ألف خوان في رمضان ، وفي سائر الأيام خمسمائة خوان ، على كل خوان عشرة أنفس ؛ وعشرة ألوان ؛ ولكن صاحب العقد يقول إنه كان يخص بها أهل الشام . فإن صح هذا لم يكن كرماً عاماً ، وإنما يكون ليشتري بها حبة أهل الشام كي ينصروه ، إذا جد الجدد ، على أهل العراق . وعم من جهة أخرى جند الخلافة المخلصون فهم جديرون بالتكريم والسخاء . ولكن هناك خبراً آخر يدلنا على أنه كان يطمع في كرمه ، وذلك إذ فرق الأموال في أهل مكة بعد مقتل ابن الزبير ، واعتذر بقلة المال ، فقال له رجل من الناس . إذاً والله لا نعذك ، وأنت أمير العراقيين ، وابن عظيم القرينين كما تقدم ، وما سيأتي في وفادة ليلى الأخيلية عليه .

أعماله :

وقالوا إنه كان مصلحاً إدارياً كذلك فقد اشتهر عهده بإصلاح الموازين والخراج والزراعة ، واتخذ داراً لصك النقود في العراق بأمر من عبد الملك .

## ومن أشهر أعمامه :

١ — الامام عجمي : كان له الفضل في تطور الكتابة الخطية ، فقد زاد الاهتمام بها من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وكثر استعمالها وتعلها ، ولكنها كانت لا تزال في أولى مراحلها ، ليس لها قواعد ، والشكل لم يكن معروفا . والنقط التي تميز الحروف المتشابهة بعضها من بعض لم تكن معروفة ، أو لم تكن شائعة وعامة ، فكثير الاختلاف والخطأ والتصحيح . فوضع أبو الأسود علامات للشكل ، نقطا بعداد أحمر يخالف المعداد الأصلي الذي تكتب به الكلمات . ولم تكن التصحيح بقي ، وأحسن الناس بضرره ، وبخاصة في القرآن . فهو يغير المعنى ، ورويت آيات قرئت خطأ لعدم وجود ما يميز الحروف المتشابهة ، فاختل المعنى وتغير . كقراءة : جبار ، في قوله تعالى : وما يحمد بآياتنا إلا كل ختار كفور ، وأساء : في قوله : قال عذابي أصيب به من أشاء ، ، وزيا في قوله تعالى : وم أهله كنا من قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورينا ، وكانت تكتب هكذا : رما ، بلا نقط ، وغرة في قوله تعالى : بل الذين كفروا في عزة وشقاق . وقوله : وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه . قرئت أباه ، وقوله تعالى : لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . قرئت يغنيه . وهذه القراءة الجديدة لا يفسد معنا المعنى ولكنها ليست الرواية التي يحفظها القراء . فارتاع الناس . وخافوا على القرآن أن يتبدل ، وأن يدخله التحريف ، وتضيع الأحكام . وفسد الدين بتغير أهم أصل من أصوله وهو القرآن ، وكان أكثر البلاد قرعا من ذلك العراق ، فطلب الناس من الحجاج علاجا سريعا . وكان الحجاج أحد الحفاظ المهتمين بأمر القرآن ، ففرع إلى الكتاب يأهم وضع علامات تميز هذه الحروف المتشابهة ، لكي تقرأ كباريها الحفاظ ، واستعان على ذلك برجلين من تلاميذ أبي الأسود ، هما نصر بن عاصم ومحيي بن يمر . فوضعا علامات تميز الحروف المتشابهة ، نقطا تكتب بنفس المعداد الذي تكتب به الحروف ، وبقي الشكل نقطا تكتب باللون الأحمر .

وظل الأمر كذلك حتى جاء الخليل بن أحمد في الدولة العباسية . وأدرك ما يلقاه الكتاب من الصعوبات في استعمال مدادين في كتابة كل كلمة ، فاهتدى إلى طريقة الكتابة المعروفة الآن : فجعل الحركات أجزاء من الحروف التي تنشأ عنها : وجعل السكون دائرة ، وعدل بقية العلامات التي تميز الشكل والحروف ، كالمدّة والشدة والهمزة والتنوين ، فكان له فضل عظيم في تهذيب الكتابة العربية . كما كان للحجّاج .

## ٢ — نقل الدواوين إلى عربية :

معنى الديوان الكتاب ، والكلمة فارسية . وأول ما وضع من الدواوين في الإسلام هو ديوان الجند . أو ديوان المقاتلة في زمن عمر رضي الله عنه . والمقصود به سجلات تكون فيها أسماء الجند ، وعطاء كل واحد منهم . وأما ديوان الخراج . وهو الذي تخصّص فيه الأموال الآتية من البلاد المفتوحة ، والضرائب المفروضة على أموالها . والجزية المضروبة على أهل الذمة ، أو ما يشبه وزارة المالية عندنا ، فيه كل حساب الدولة من دخل وخرج . فقد كان في كل إقليم بلغة أهله . فكان في مصر بالقبطية . وفي الشام بالرومية وفي العراق بالفارسية . وكان يلى أمره قوم من أهل تلك البلاد المفتوحة ، ولسكن بعض هؤلاء الناس أسلبوا وتعلّوا العربية . وكان من الضروري أن يحىء يوم تنتقل فيه هذه الدواوين إلى العربية . وقد حدث بعض ذلك في زمن عبد الملك بن مروان .

وكان رئيس ديوان الخراج في عهد الحجّاج بالعراق ، رجل يقال له زاذان فروخ وكان معه في الديوان رجل يقال له صالح بن عبد الرحمن ، مولى بني تميم وكان أبوه من بني سبجستان ، قرأه الحجّاج يكتب بالفارسية والعربية تخف على قلبه ، ويقال إنه خشي من زاذان — إذا أحس بهذا — أن يدبر له مكيّة فقال له : أنت الذي رقيتني حتى وصلت إلى الأمير . وأراء قد استخفني ، ولا آمن أن يقدمني عليك فتسقط منزلك . فقال زاذان لا تظن ذلك ، هو

أحوج إلى منى إليه ، لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيرى . فقال له صالح :  
والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لحولته ، قال زاذان : لحول منه  
أسطراً حتى أرى . ففعل ، فقال له زاذان : تمارض ، فتمارض ، فبعث إليه  
الحجاج بطييبه ، فشق ذلك على زاذان . وأمره ألا يظهر للحجاج ، واتفق  
عقب ذلك أن قُتِل زاذان في حرب ابن الأشعث . فاستكتب الحجاج  
بعده صالحاً ، فأعلم الحجاج بما جرى له مع زاذان في نقل الديوان ، فأعجبه  
ذلك ، وعزم عليه في إمضائه . فنقله من الفارسية إلى العربية ، وشق ذلك على  
الفرس . حتى قيل أنهم بذلوا لصاح مئة ألف درهم على ألا يتم النقل ، فأبى عليهم .  
والمهم في كل هذا أن الظروف ساعدت على نقل الديوان من الفارسية  
إلى العربية في زمن الحجاج ، وبتشجيع منه .

أما في الشام فقد تم ذلك في عهد الوليد بن عبد الملك . ونقل الديوان  
من الرومية إلى العربية .

وفي مصر تم ذلك في أيام الوليد بن عبد الملك أيضاً سنة ٨٧ هـ . وبذلك  
أصبح ضبط الحساب للدخل والخرج — أعمال ديوان الخراج — بالعربية .

٣ — بناء واسط :

لحق الحجاج في ثورة ابن الأشعث كثيراً من تنكر أهل العراق  
وتخاذلهم ؛ لسكراهم له . وكانت البصرة والكوفة أهم مراكزهم ، وهما  
المصران اللذان يضمان أكثر أعدائه . وقد أصبح يخشاهم بعد أن قتل كثيراً  
من كبارهم ، فرأى أن يبني مدينة يقيم فيها مع جند الشام ، خصوصاً بعد أن  
كثر النزاع والاشتباك بين جند الشام وأهل العراق .

ويقال إنه فكر في بنائها سنة ٨٣ هـ في زمن عبد الملك ، وإنه بعث  
ال أطباء لفحص الأمكنة كي يختاروا لها أحسنها في وسط العراق ، فاختاروا  
له مكاناً دواسط ، لطيب ماها ، واعتدائ إقليمها .

وقد يكون اختيارهم مينا على مزايا عسكرية ، فإنها بين البصرة والكوفة  
ويتيسر للقيم فيها أن يكون قريبا منهما ، ويطر على العراق كله .  
ويقال إنه أنفق على بنائها كثيرا من الأموال ، حتى إنه أنفق على قصر  
الامارة والمسجد والصور الخارجى لها ، ما لا يقل عن ثلاثة وأربعين مليونا  
من الدراهم .

وقالوا إن كاتب الحجاج بين له ما يحتمل من إنكار عبد الملك لإسرافه  
فى الإنفاق عليها ، فطلب منه أن يضيف من هذا المبلغ جزءا إلى  
نفقات الحرب .

أما الذين تخبرهم للإقامة معه فيها ، فهم جند الشام . وبعض الأجانب  
من أسارى الحروب من بلاد الشرق البعيدة ، مثل بخارى وما وراء النهر .  
وظلت « واسطه » مركزا للعامل الأموى على العراق .

---



## الحجاج والأدب

### الخطابة

خطبة أول ما ولي العراق

لا يتحدث مؤرخ من مؤرخي الأدب، عن مصافح الخطباء في عصور العربية التي ازدهرت فيها الخطابة، إلا ذكر الحجاج بالغصاحة النادرة، والبيان الساحر، ولا يذكر مؤرخ عيون الآثار الأدبية في اللغة العربية، إلا ذكر خطبة الحجاج في أول ولايته العراق. وهي على ما فيها من الشدة، مناسبة كل المناسبة للمقام، والاستشهاد فيها بالشعر من أدق ما عرف عن الحجاج وأمثاله من مصافح الخطباء، كعبد الملك من خلفاء بني أمية وكرعماء الخوارج وشيعة سيدنا علي وحزب ابن الزبير.

ودقة هذا الاستشهاد تحتاج من الخطيب المرتجل أن يكون راوية للأدب، يتخير ما يناسب غرضه من جيد الشعر الذي يملك على الناس شعورهم، أو يذهلهم عن أنفسهم، أو يلعب بأهوائهم وعقولهم.

ولم يقتصر الحجاج فيها على هذا الشعر المنذر بالشعر، الذي قدمه بين يدي أقواله الخاصة؛ فإنه أورد فيه عبارات من نار. معانيها مخيفة مفرعة، وألفاظها كأنها سياط تمزق الجلود، وتندى الظهور، والتهديد فيها متواتر، والوعيد فيها قد وليه التنفيذ.

والبدأة العربية القاسية فاشية في عباراتها، من أولها إلى آخرها؛ اللهم إلا تشبيههم بأهل قرية كانت آمنة مطمئة، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.

نعوذ بالله عن سخطه وغضبه.

الحجاج يسخر منهم ويذكر خشونة علبه. فلا هو عن يقعقع له بالشان

ولامن يغمر جانبته كغمار التين . ولكنه رجل قد جُرب ، فدلّت التجربة على أنه سواق حُطَم . وأنه عَصِي . أروع خراج من الدَّوَى ، وأنه مر المذاق . صلب المكسّر . فرماهم به الخليفة .

ولم يكن ذلك عنتا من الخليفة . ولا تحنيا عليهم ، فانظر إلى يانه الذي يلزمهم به الوزر . ، ويلقى عليهم نعمة اشتداده وقسوته : « لأنكم طالما أو ضعتم في الفتنة . واضطجعتم في مرافد الضلال ، وليس عقابهم بهذا يظلم منه ضم . وإنما هم أهل له ولكل نكال . فيقول :

« والله لأحزنكم حزم السلة . ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، لأنها صورة بدوية للشدة . يفهمها أهل المسجد . لأنها أشد ما يتصورون من الضرب . ضرب أغصان السلة المختمة بعصا غليظة . لينفض شوكتها . وضرب غرائب الإبل ليتفهمها الراعي عن إبله .

أما شجنته . ونبرات صوته . وحركاته وإشارات . فإني لا أتخيلها أقل قسوة من ألفاظه . وليس عندنا أسطوانات لصوت الحجاج نبين ذلك . ولكن المرء يحس به إحساسا شديدا وهو يقرأ هذه الخطبة .

علائقه في مقامه :

تجدها واضحة في المنظر الذي صعد به المنبر : قومه على كتفه . ولثامه على وجهه . وصمته زمنا حتى يسترعى انتباه الناس ، ويصفوا إليهم قلوبهم . ويرهفوا آذانهم . ثم يصب فوق رؤوسهم من هذا الخيم الذي يغلي ويفور .

ويروي صاحب العقد ٣ ص ٢٤٢ أن الحجاج كان إذا صعد المنبر تلعف بمطرفه . ثم تكلم رويدا فلا يكاد يسمع حتى يتزايد في الكلام ، فيخرج يده من مطرفه . ثم يزجر الزجرة فيقرع بها أقصى من في المسجد . أكان كلامه رويدا من خوف أو وجل ؟ كلا . وأغلب الظن أنه كان يفعل ذلك وهو يتلو المديح الأولى . من حمد الله . والصلاة والسلام على رسوله . وأما بعد .

إنه خطيب ممتاز ، يذهل الناس فلا يدرون ما يصنعون ، ولا يقف أحد معترضا على هذا الوعيد القاسى .

وربما كان لهيئة المنصب ما يدعو إلى الإحجام عن الرد على الحجاج ؛ ولكن لخطبته وقع الصواعق ؛ فلا عجب أن يقابلها الحاضرون بالصمت الناشئ عن الدهول من شدة وقعها ، وما تعذمت منه من بيان شديد ، على الرغم من قصرها ، وإنها لبرهان صادق على أن صاحبها كان خطيبا ؛

وفى الحق أن الحجاج كان خطيبا موهوبا ، فالخطابة كامنة فى نفسه ، تستثيرها المناسبات ، والرجل ذكى حاضر البديهة ، راوية للأدب حافظ للقرآن ، عالم بالسنة ، خبير بالجاهير ، يدرى كيف يتكلم وكيف يستشهد ، وكيف يحتج ، وكيف يبرهن على صواب فعله ، فيتميل السامعون ويفرحهم .

رأى فى عصره الخطابية :

يقول مالك بن دينار من سادات التابعين عن الحجاج : ما رأيت أحدا أبين من الحجاج : إنه كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحته عنهم ، وإسماهم إليه ، حتى إنى لأحسبه صادق وأظنهم كاذبين .

وله خطب تروىها كتب الأدب ، ولكنها قليلة بالنسبة لشهرته ، والواقع أن هذه الخطب التى حفظت ، ولم يُسَـفَّ عليها النسيان ، هى أشد خطبه وأقواها ، وأبرزها ، ولكن ظروفه تحتم أنه كان خطيبا ممتازا ومكثرا ، فالحوادث كثيرة ، وقد خاض غمار فتن متعددة ، وولى مناصب عظم أن يعتلى المنبر آلاف المرات ، أو على الأقل مئات المرات ؛ فقد حكم العراق عشرين عاما ، وكان من واجباته أن يؤم الناس فى الجمعة والعيدى ، والخطبة شرط فيهما ، وولى الحج لبنى أمية . وهذه مواقف لا يتقدم فيها عليه أحد بحكم منصبه ، فلا بد من أن تكون أكثر خطبه فيها قد ضاعت ، إذ أن عصره لم يكن عصر تدوين للخطب ، بل كان عصر حفظ ورواية . وحفظ النثر وروايته

أصعب من حفظ الشعر وروايته . فإن القافية والوزن في الشعر يساعدان كثيراً على حفظه ، ومع هذا فقد ضاع كثير منه ، وروى روايات مختلفة ، فما بالك بالخطب ، وهي غير خاضعة لقواعد فنية من الوزن والموسيقى خضوع الشعر . لقد كان من الطبيعي أن ينسى بعضها ، وأن يتغير كثير من ألفاظ بعضها ، وأن تروى روايات متعددة ، وهذا ظاهر حتى في أشهر خطبه ، وهي أول خطبة له بالعراق . فهي على قصرها وموسيقاها ، وابتدائها بالشعر قد رويت بأكثر من رواية . ذلك لأن الحواظ مهمما قوي . والروايات مهما دقت ، لا بد أن يندب عنها بعض الألفاظ . وأن يفر منها بعض العبارات ، وأن تذكر المعنى ثم لا تذكر اللفظ بنصه . فترويه بالمعنى . ونعده الروايات للخطبة الواحدة ، ليس معناه أنه كان يخطب الخطبة الواحدة مرتين أو أكثر ، ولم يقل بذلك أحد ، ولكن تفسيره أن الرواة كانوا يحفظون بقدر ما يستطيعون ، ثم يروون فتختلف رواياتهم باختلاف قوة الحواظ .

وقد حدث هذا في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو أعلى الخلق مقاما ، والناس أحرص على نقل آثاره لقيمتها ، واحتياجهم إليها في تفهم أمور دينهم ، فلا غرابة أن ينسى كثير من خطب الراشدين والخلفاء والحجاج وزباد والملب ، ومزلاتهم عند المسلمين أقل من منزلة الرسول الكريم .

ومن الأشياء التي تؤيد أن الحجاج كان خطيباً . أنه كان من أظهر رجالات بني أمية ، وأقوى أعوانهم ، ومن شروط الظهور في تلك العصور أن يكون الرجل ذا لسان ومنطق ، في عصر لا تعرف فيه الصحف ، ولا تدافع فيه المنشورات عن سياسة . أو تبين وجهة نظر . فكان الاعتماد على اللسان ، وعلى الحديث إلى الجماهير من أهم المزايا التي يتقدم بها الرجل . في عصر يقدر الكلام . ويرفع من شأن المتكلم إذا كان فصيحاً مؤثراً ، ولم يكن الحجاج شاعراً ، ولكنه كان رجل دولة . فكانت مقدرة الخطابية من أهم

الصفات التي قدمته في دولة عبد الملك والوليد ، ورفعت له في الأدب ذكراً وأبعدت له صيتاً .

وما بقي بين أيدينا منها برهان واضح على أنه كان يتمتع بكل الصفات التي تلزم الخطيب المصقع : كان راوية للأدب ، وللشعر بوجه خاص ، وكان حافظاً للقرآن ، وكان حاضر البديهة سريع الجواب ، وكان قوى الحجة شديد المعارضة ، فإنك لا تقرأ خطبة من خطبه الباقية ، إلا لت فيها كل هذه الصفات أو أكثرها : من استشهد بالقرآن أو احتجاج به ، أو انتفاع بأسلوبه ، ومن قوة حجة يدحض بها حجة خصومه ، ويرر عمله ، ويؤيد بها سياسته .

والأما شهد له مالك بن دينار شهادته المتقدمة ، ألم يقل صلى الله عليه وسلم : إن من البيان لسحراً ، ؟ وقد كان بيان الحجاج كذلك . ورأى عبد الملك هذا السحر في أحد كتب الحجاج إليه ، فقال ذلك لنسيبته كما تقدم ثم استشهاده بالخطابة في زمن يكون فيه قطري بن الفجاءة . ونافع بن الأزرق ومصعب بن الزبير . وعبد الملك بن مروان ، والحسن البصري ، من مشاهير خطباء بني أمية لا يمكن إلا أن يكون دليلاً على تقدمه واهترازه أعواد المنابر من صولته وقوته كخطيب مصقع .

وإذا أردت برهاناً من أدبه على علو كعبه في الخطابة ، فاقرا خطبته بعد وقعة دير الجماجم ، أو خطبته بعد دخوله البصرة ، أو خطبته بعد قتل ابن الزبير ، أو خطبته ، وهي من نوع آخر ، في ضم الدنيا ، أو خطبته في رثاء عبد الملك بن مروان ، أو خطبته عندما أصيب بولده وأخيه ، أو خطبته الوعظية <sup>(١)</sup> فانك ترى فيها كل ما ذكرناه من الصفات ، وتكتفي ما تقدم من تحليل خطبته الأولى في العراق لتكون شاهداً على ما نقول .

(١) جمهرة خطيب العرب ٢٠٠ للامام صفوح .

كتابه :

أما شهرته في الكتابة فهي أقل من شهرته في الخطابة ، وإن كانت آثاره فيها أكثر من آثاره في الخطابة ، وسبب كثرتها أن المكتوب أبقى على الزمن من المروى شفاهاً وحفظاً ، وطابعه في الكتابة هو الذي عرفناه في الخطابة ، فهو حين يكتب ، وبخاصة فيما يتعلق بالحرب أو العصيان ، إلى من دونه من العمال والولاة ، يؤثر التهديد والوعيد ، ويشتم ويبس . وإذا كان المكتوب إليه عبد الملك أو الوليد ، رق الكتاب ، وخضع الكاتب في كتابته خضوع العبد المخلص لمولاه .

وكان يؤثر الإيجاز وبخاصة إذا كتب إلى قواده في حرب الخوارج أو في فتوح المشرق ، وذلك لأن الإيجاز أليق بالأوامر والنواهي ، وأجدر بالرؤساء ، إذ أن طول الكلام قد يكشف عن ناحية ضعيفة في الكاتب ، أو يؤدي به إلى أن يذكر ما لا يجب أن يذكره . وهو صفة من صفات الاستبداد ، التي لا يحس صاحبها بحاجة إلى تبرير عمله بالحجة والبرهان ، أو الاستشهاد أو بيان الأسباب ؛ مما يكون عادة في الكتب المطولة . إلى الرؤساء الذين يحبون من مروضيهم التفصيل ليقنعوا . وعلى هؤلاء المرءوسين أن يفصلوا ، ليبرروا أعمالهم .

وانظر إلى كتابه إلى الملقب وعبد الرحمن بن عتف الذي أرسله مدداً له بعد أن ولي العراق : « أما بعد ، إذا أنا كم كتابي هذا فناهضوا الخوارج ، والسلام . » وقد وجه البراءة بن قبيصة إلى الملقب يستحثه في مناجزة الخوارج . وكتب معه إلى الملقب : « انك لتحب بقاءهم لنا كل بهم ، »

سبب الإيجاز في عصر بني أمية :

وقد يكون من أسباب الإيجاز أن الكتابة صنعة ماتزال جديدة ، ليس لهم فيها رسوم ولا تقاليد ، ولم تتنوع أبوابها ، ولم تعدد موضوعاتها . ولم تصبح صناعة إلا في أواخر عهد هذه الدولة ، بعد أن طال عليها الزمن ، ودخلها كثير

من لم تقاليد سابقة فيها كالفرس ، وتخصص رجال في القيام بأعبائها ، فصار لها من كل ذلك تقاليد ورسوم مؤسسة على قواعد ، يراعها الكاتب .

أما في عهد الحجاج فكان الإيجاز من وحي الفطرة ، والتطويل من وحي الذوق كذلك . وليس عنده قواعد ولا تقاليد تقول : الإيجاز في موضع كذا واجب أو مستحسن ، والتطويل في موضع كذا فرض أو مستحب .

**رسوم الكتابة في عهد بني أمية :**

وأما رسومها في البدء والختام من البدء بالبسملة ، وحمد الله . وأما بعد ، والسلام ، وختامها بالسلام . فهي رسوم جاءت في كتبه صلى الله عليه وسلم ، وكتب أصحابه رضوان الله عليهم ، وهي رسوم دينية . أما الرسوم الفنية التي تنزل الناس منازل ، والموضوعات درجات وأنواعا ، وتخصص كل نوع بطريقة ، وتؤثر كل موضوع ، أو كل جملة من الموضوعات ، بتطويل أو إيجاز أو غير ذلك ، فهذه مازالت غير منظمة ولا مرعية .

ونستطيع أن نقول أن مراعاة هذه الرسوم كانت اجتهداً وذوقاً ، ولم يتغير بما كان موجوداً في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والراشدين إلا القليل ، عندما صارت الخلافة ملكاً ، ورأى الخلفاء والولاة لأنفسهم مكانة أعلى من مكانة غيرهم ، فكان من الذوق أن يبدأ بأسمائهم في الكتابة إليهم ، فيقال : إلى فلان من فلان .

والواقع أن ذلك قد بدأ منذ عهد معاوية ، ولكنه لم يكن سنة متبعة . ولا رسماً مفروضاً ، وإنما كان أمراً فيه رخصة ، وإن كان بعض الخلفاء والولاة يحب أن يبدأ باسمه فيما يرسد عليه من الكتاب ، كالنبي كان من الحسن بن علي إلى زياد . فقد أغضبه أن يبدأ باسمه ، ولا ينسب إلى أبي سفيان ، فلما رده عليه زياد جفا في رده ، فقال : من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن بن فاطمة ، فأرسل الحسن رده هذا إلى معاوية ، فعاب معاوية زيادا وأغلظ له في القول .

وعلى كل فقد كانت الكتابة سائرة في طريق التدرج . من الإيجاز إلى التظويل ، ومن مراعاة المقامات . والبدء باسم المكتوب إليه إن كان عظيماً يكتب إليه من دونه ، ومن زيادة الألقاب والتعظيمات ، والميل إلى الزخرفة ، والاستعانة عليها بالاستعارات والمجازات والتشبيهات ، ثم استخدام المحسنات البديعية كالجناس والمطابقة ، والتحليل واستيفاء أقسام الموضوع ، وترتيب عناصره ، والميل إلى التسجع ، وكل ذلك ناشئ عن تطور العرب ، وزيادة تحضرهم . وللحضارة مقتضيات . ومن اتساع الفرق بين الحاكم والمحكوم ، ولذلك أثره في زيادة الألقاب . وكثرة الدعاء بالتأييد والتوفيق ، والبدء باسمه العظيم في الكتب التي ترفع إلى مقامه ، ومخاطبته بضمير الغائب .

#### مزايا بين كتاب عصره :

كان الحجاج معدوداً من رجال بني أمية ، وكان معدوداً من فصحاء زمانه . ومن أشهر خطباء العربية ، وقد قدمنا أن الصفحات التي أعاتته على ذلك : نشأته بالطائف أو بالبادية إن شئت . فليس بين الطائف والبادية -- معدن الفصاحة ومعدن البلاغة -- إلا قليل ، ثم حفظه القرآن ، ومقدرته على الاستعانة به في خطبه وكتبه ، ثم ذكاء الرجل وشدة عارضته ، وقوة حجته ، ثم اطلاعه على المأثور من آداب العرب شعراً وخطابة ، وروايته لتاريخ قومه ، ومعرفته بقبائل العرب وأقدارها ، ومحاسنها وعيوبها . وهذه الصفات استطاع أن يكون من أخطب ولادة بني أمية ، وأن يكون كاتباً من كتاب عصره الذين لا يغفل ذكرهم ، إذا ذكر كتاب هذه الدولة ، من أمثال معاوية وعبد الملك والحسن البصري .

وكانت كتابته أشبه شيء بخطابته . فهي بدوية جافية . مملوءة بالحشونة والتهديد . وفيها استشهاد بالشعر . وإيثار للتسجع أو الأزجاج أو اتران الفواصل ، من غير تكلف ولا إجهاد للنفس ، وفيها صورة البداوة في اتراع التشبيهات ، وماآخذ الاستعارات ، ومضارب الأمثال ، واقتباس الشعر ،



وقد أفادت من الدين استهادا بالقرآن والحديث . واحتجاجاً بهما ، وأخذت من رسوم الكتابة في عهده صلى الله عليه وسلم وعهد الراشدين ، ابتداءً منها واختتامها ؛ ومن ذكاء الرجل وروايته : قوة الحجة ، ووضوح المنطق ، وشدة الغارضة ؛ ومن حالة العصر : مراعاته لمن يكتب إليهم ، فهو حين يكتب إلى عبد الملك في حاجة يريد بها ، مؤدب لبق . وحين يعتذر إليه عبد مخلص خاضع .

ولكنه أسد ضار حين يكتب إلى خارج على سلطان الخليفة . شتام فحاش سباب حين يكتب إلى عدو أو مقصر في عمل . ولم يلم منه حتى ولى العهد سليمان بن عبد الملك . وقرأ كتابه إلى قوم من الأعراب من عمرو بن تميم وحظلة ، بلغه أنهم يفسدون الطريق :

« من الحجاج بن يوسف : أما بعد فإنكم قد استخفستكم الفتنة ، فلا عن حق تقاتلون ، ولا عن منكر تشبهون . وإيم الله ، إني لألم أن يكون أول ما يرد عليكم من فحش خيل تنسف الطارف والثالد<sup>(١)</sup> ، وتدع النساء أيام<sup>(٢)</sup> ، والأبناء يتامى . والديار خراباً ، والسواد بياضاً . فأبما رفقة مرت بأهل ماء فأهل ذلك الماء ضاعنون لها حتى تصير إلى الماء الذي يليه ، تقدمه مني إليكم ، والسعيد من وعظ بغيره . والسلام . »

فلما جاءهم كتابه كفوا عن الطريق :

أهذه رسالة من كلمات وعبارات ، أم قذائف من لخب ، وصواعق من نار ؟ يرسل عليهم خيلاً تنسف الطارد والثالد ! ولا يكنى هذا ، بل ترك النساء أيامى . والأبناء يتامى ! وليس كل هذا ، بل ترك الديار خراباً ، والسواد بياضاً ؟

ولا ينسى أن يكون دقيقاً في قوله . فهو يحدد المسؤولية ، ويلزم أهل

(١) الطارف الجديد . والثالد القديم .

(٢) الأباى جمع أيام . وهو الذي لا زوج له من الرجال ونساء .

كل ماء أن يضمّنوا من يربهم من رُقّة ، حتى يصلو إلى الماء الذي بعدهم ،  
ليعرف من يأخذهم بذنب من يُقتل أو يلب .

ويختم ذلك بقوله الذي يذهب بالظنون مذاهب شتى ، « والسعيد من  
وعظ بغيره » ، فليحفظوا بسوابقه ، وبشهرته في الشدة ، ليسعدوا ، فإذا لم يفعلوا  
حقق عليهم عقابه . لقد كان هؤلاء سعداء حقاً إذ كفوا عن قطع الطريق ،  
ولم يتبادوا فيحل بهم ما أنذرم به ، ونصيهم بما صنعوا قارعة .

وقد كتب إلى قطري بن الفجاءة ، زعيم الخوارج بعد نافع بن الأزرق ،  
وأحد الخطباء الشعراء الأفاضل : كتب إليه يدعو إلى الدخول في الطاعة ،  
ولم ينس شدة عسى أن تنفع ، ولكنه كان مخطئاً ، أو كان يائساً ، فلم يتلطف  
بل كتب إليه يهدده ويوعده . وبه ويستمه .

روى الجاحظ في اليان واليتين . قال :

كتب الحجاج بن يوسف إلى قطري بن الفجاءة :

« سلام عليك ، أما بعد ، فإنك مرّقت<sup>(١)</sup> من الدين مروق الدهم من  
الرمية ، قد علمت حين تجرّسمنت ذلك<sup>(٢)</sup> أنك عاصيت الله ، ولولا أمره .  
غير أنك أعراني جلف أُمي ، تستطعم الكسرة ، وتشقى بالثرة ، والأمور  
عليك حسرة . خرجت لتناول شَبْعَةٍ فلهق بك طَعَامٌ<sup>(٣)</sup> صَلُّوا بمثل  
ما صَلَّيتَ به من العيش ، يهزون الرماح ويستنشون الرياح ، على خوف  
وجهد من أمورهم ، وما أصبحوا ينتظرون أعظم مما جهلوا معرفته ، ثم  
أهلكهم الله بنزحتين والسلام . »

ولكنه كان يكتب إلى قواد الجند من أهل الشام . وهم الذين جاءوا  
لنصرته في قن شبيب . فيتلطف . فقد كتب إلى الجزل بن سعيد رداً على  
كتاب منه :

(١) مرق : خرج . (٢) تجرّسنت الشيء : أخذ معظمه .

(٣) الطعام : أساطيل الناس .

« أما بعد ، فقد أتاني كتابك ، وقرأته وفهمت كل ما ذكرت فيه ،  
وقد صدقتك في كل ما وصفت به نفسك ، من نصيحتك لأميرك ، وحيطتك  
على أهل مصرك ، وشدتك على عدوك . وقد فهمت ما ذكرت من أمر  
سعيد وعجالتك به إلى عدوه . فقد رضيت عجالتك وتؤدتك . فأما  
عجلته فإنها أفضت به إلى الجنة ؛ وأما تؤدتك فإنها لم تدع الفرصة إذا أمكنت ،  
وترك الفرصة إذا لم تتمكن حزم . وقد أصبت وأحسنت البلاء وأجرت .  
وأنت عندي من أهل السمع والطاعة والنصيحة . وقد أشخصت إليك حيان  
ابن أبيجريد داويك ويعالج جراحك . وبعثت إليك بالثمن درهم ، فألقها في  
حاجتك وما ينوبك ، والسلام . »

والفرق ظاهر بين كتابه إلى هؤلاء القواد من أهل الشام ، وكتابته إلى  
المهلب وابن الأشعث ، فقد كان دائماً يهتمهما بالتباطؤ ، والقفور عن حرب  
عدوهم مع إمكان الفرصه ، وكان يلومهم على هذا ، حتى عزل ابن الأشعث  
فأثاره عليه ، وهدد المهلب بالعزل . وقد سبق ما كان منه إلى المهلب بعد أن  
انتصر على الأزارقة . فقد عرف فضله وأكرمه .

رسائل إلى عبد الملك :

وكانت كتابته إلى عبد الملك أكثر خضوعاً وذلة ، إذا غضب عبد الملك ،  
أو أبدى له سخطه وعدم رضاه ، كما تقدم في كتابه في شأن أنس بن مالك .  
وفي كتابه إليه ، يظهر له برّ مئة بأمره . وخوفه من حساب الله على أن سلطه  
على الناس .

ولكنه كان ذا دالة على عبد الملك ، يعرف منزلته عنده ، فكان يكتب إليه  
لأنما أحياناً ، ويحذر كل الحذر أن يصرح بهذا اللوم . ويجعل لومه  
في صيغة نصيحة لأمر المؤمنين . أو يبين له خطر ما يراه ولا يوافق عليه  
الحجاج . وذلك واضح في كتابه إليه في شأن عمرو بن الزبير : فقد كان عمرو

عاملا على اليمن لعبد الملك بن مراون ، فأتصل به أن الحجاج يجمع على مطالبته بالأموال التي يده ، وعزله عن عمله ، ففر إلى عبد الملك . وعاذ به خوفا من الحجاج ، واستدفاعا لضرره وشره . فلما بلغ ذلك الحجاج كتب إلى عبد الملك .

« أما بعد ، فأني ليوأذ<sup>(١)</sup> المعترضين بك ، وحلول الجائحين إلى المسكن بساحتك ، واستلاتهم دمك<sup>(٢)</sup> أخلاقك ، وسعة عفوك ، كالعارض<sup>(٣)</sup> المبرق لأعدائه ، لا يعدم له شائعا<sup>(٤)</sup> ، رجاء استمالة عفوك . وإذا أدنى الناس بالصفح عن الجرائم ، كان ذلك تمرينا لهم على اضعاف الحقوق مع كل ضال ، والناس عبيد العصا ، وهم على الشدة أشد استباقا منهم على اللين . ولنا قبل عروة بن الزبير مال من مال الله ، وفي استخراجهم منه قطع لطمع غيره ، فليبحث به أمير المؤمنين أن رأى ذلك . والسلام . »

فلما قرأ عبد الملك الكتاب بعث إلى عروة . ثم قال له : إن كتاب الحجاج قد ورد فيك ، وقد أبي إلا إشتصاصك إليه ، ثم قال لرسول الحجاج : شأئك به . فالتفت إليه عروة مقبلا عليه وقال : أما والله ما ذل وخسزى من مات ، ولكن ذل وخسزى من كملكتهموه ! والله لئن كان الملك بجواز الأمر ، ونفاذ التهي ، إن الحجاج لسلطان عليك ، ينفذ أموره دون أمرك . إنك لتريد الأمر بيزينك عاجله ، ويبقى لك أكرؤمة آجله ، فيجذبك عنه ، ويلتاه دونك ، ليتولى من ذلك الحكم فيه ، فيحظى بشرف عفوك إن كان ، أو يحرم عقوبة إن كانت ، وما حاربك من حاربك إلا على أمر هذا بعضه . »

فنظر في كتاب الحجاج مرة ، ورفع بصره إلى عروة مرة . ثم دعا بدواة وقرطاس فكتب إليه :

(١) القواذ : الاتعاء . جمرة الخطب = ٢ صفحت (٢) دمك الأخلاق : سبوتها ودرتها .

(٣) العارض : شهاب المعترض في الأفق .

(٤) شام البرق : راقبه ليبرق أين يذوق الضر .

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين رآك — مع ثقته بنصيحتك — خاطباً في السياسة خطب عشواء الليل <sup>(١)</sup> ، فإن رأيك الذي يسول لك أن الناس عبيد العصا ، هو الذي أخرج رجالاً العرب إلى الوثوب عليك ، وإذا أخرجت العامة بعنف الرئاسة ، كانوا أوشك وثوباً عليك عند الفرصة . ثم لا يلتفتون إلى ضلال الداعي ولا هداه ؛ إذا رجّوا بذلك إدراك الثأر منك .

وقد وليت العراق قبلك ساسة ، وهم يومئذ أحق أنوفاً ، وأقرب من عمياء الجاهلية ، وكانوا عليهم أصلح منك عليهم ، وللشدة واللين أهلون . والإفراط في العفو أفضل من الإفراط في العقوبة ، والسلام ،

ولكنه كان خير مستشار لعبد الملك ؛ فكان لا يشتد عليه إلا ليمفو عنه ، ولا يهيم به إلا ليغفر له ، وقد ولاه أعظم ولاياته في العراق وفي المشرق ، وظل كذلك حتى مات عبد الملك ، فكانت منزله عند الوليد كنزته عند أبيه .

وقد شهد له عبد الملك بأن يئانه ساحر بعد أن اعتذر إليه من إسمائه إلى أنس بن مالك ، وكفى برأي عبد الملك شهادة للحجاج .

وإن أردت أن تشهد مع عبد الملك بأن يئان الحجاج كان سحراً حقاً ، فأقرأ رده على عبد الملك واعتذاره ، ولينه وخضوعه ، واحتراسه ، ومعرفته بمخاطبة الملوك من غير أن يخفى شيئاً مما في نفسه ، ولأن يتر بصفة تنقصه بها عبد الملك ، ولقد دافع عن نفسه ، ولم يقتصر على الدفاع ، بل مدح نفسه وهو يمدح عبد الملك ، ومدح نفسه بما عابه به الخليفة ؛ فانظر كيف اتخذ من العيب في نظر عبد الملك صفة غير له ؛ قال له عبد الملك إنه لم يكن شيئاً حتى رفعه من شرطة روح بن زباع ، فرد عليه بأن الذي رفعه إلى شرطة روح هو همة لم تزل تسمو به إلى ما فوق روح ، فلما جربه أمير المؤمنين محمد بلاءه ،

(١) عشواء الليل : ساعة قبل أن تضيئ النجوم في سحرها .

وعرف دهاءه ، وأدرك مضاهه ، فقدمه لأنه أهل للتقديم ، لا لأنه دعى على المناصب أو زعيم .

ولعل هذا كان من صفاته في الكتابة والخطابة كما يؤيد ذلك شهادة مالك ابن دينار ، وكما تشهد بذلك خطبته في الحجاز بعد قتل ابن الزبير ، ورسالته إلى عبد الملك في الاعتذار . وإليه في شأن عروة بن الزبير .

### أطال الحجاج من السابقين إلى الزمرفة :

لعل من طبيعة الخطابة أن تعتمد على الزخرف اللفظي إلى حد كبير ، لتلعب بعقول السامعين ، فالسجع مطلوب فيها ، وقصر الفقرات ، وقوة الحجة ، وحضور البديهة ، وحسن الاستشهاد ليكون الخطيب أملك لنفوس الجمهور ، وليكون له سلطان على هواهم فيزولون عند رأيه ، ويستمعون لقوله ، ويدبنون بزمجه ، لا يعصونه ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .

وكان الحجاج خطيباً بفطرته ، فكانت متممة بهذه الصفات من حسن الاستشهاد ، وقوة الاحتجاج ، ووضوح الدليل . وسجع القول بلا تكلف ، وحضور البديهة في الرد على الخصوم . وشدة المعارضة عند إرادة الهجوم على عدو .

فلما عرضت للحجاج مواطن الكتابة كان فيها خطيباً أكثر منه كاتباً . ولا فرق بين خطبه ورسائله : وسبب ذلك أنه كان يملئ على كاتبه ، فهو يرتجل والطبع غلاب . فجاءت رسائله خطباً .

### خطب في غير الزمير :

وليس خطبه كلها تهديداً ووعيداً كخطبته المشهورة في أول عهده بولاية العراق ، وليس رسائله كلها شتاً وسباً كرسائله إلى ابن الأشعث أو سليمان ابن عبد الملك . فإن له من الخطب الرقيقة الوعظية مايصيل الدموع ، ويذيب القلوب الخاشعة ، وحديثه عن الدنيا جدير بأكبر رجاء الورع والزهد من أمثال الحسن البصري وعمر بن عبد العزيز .

خطب يوماً فقال :

« أيها الناس ؛ قد أصبحتم في أجل منقوص ، وعمل محفوظ ، رُبَّ دائب مُضَيِّع ، وساعٍ لغيرد ، والموت في أعناقكم ، والتاريخ بين أيديكم ، والجنة أمامكم ؛ خُذُوا مِنْ أَنْفُسِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ . ومن غناكم لفقركم ، وعافى أيديكم . لما بين أيديكم . فكان ما قد مضى من الدنيا لم يكن ، وكان الأموات لم يكونوا أحياء . وكل ما ترونه فإنه ذاهب . هذه شمس عاد وثمود . وقرون كثيرة بين ذلك هذه الشمس التي طلعت على التابعة والأكسرة . وخزائهم السائرة بين أيديهم ، وقصورهم المشيدة . ثم طلعت على قبورهم .

أين الملوك الأولون ؟ أين الجبابرة المتكبرون ؟ المحاسبُ الله ، والصراط منصوب . وجهنم ترفر وتتوقد ، وأهل الجنة ينعمون ، في روضة يُخْبَرُونَ . جعلنا الله وإياكم من الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يَخِرُّوا عليها مُصْغَاً وَغَمِيحَاناً . »

ويكنى تعليقاً على هذه أن تذكر ما كان يقوله الحسن البصري فيه . كان رحمه الله يقول :

« ألا تسمعون لهذا الفاجر ؟ يرقى عتبات المنبر ، فيتكلم بكلام الأنبياء ، وينزل فيفتك فتك الجبارين ، ويوافق الله في قوله ، ويخالفه في فعله ، وقريب من هذه الشهادة فيه شهادة بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري في أول خلافة سليمان بن عبد الملك (١) »

وكانت له رسائل في وصف بعض ظواهر الطبيعة ، « جفاف ثم غيث » ، أبدع فيها على الرغم من أنه ليس معنياً بهذا النوع من الكتابة الوصفية ، فقد كتب إلى عبد الملك :

« أما بعد : فانا نخبر أمير المؤمنين أنه لم يصب أرضنا وابل (٢) منذ

( ١ ) جملة خطب العرب . ص ٢٩١ للاستاذ صفوت .

( ٢ ) الرابل : المطر الكثير القطرات .

كُتِبَتْ أَخْبَرَهُ عَنْ سَقْيَا اللَّهِ إِيَّانَا ، إِلَّا مَا بَلَّ وَجْهَ الْأَرْضِ مِنَ الطُّشِّ <sup>(١)</sup> وَالرَّشِّ وَالرَّذَاذِ ، حَتَّى دَفَعَتْ <sup>(٢)</sup> الْأَرْضُ . وَأَقْشَعَرَّتْ <sup>(٣)</sup> ، وَاغْبَرَتْ ، وَثَارَتْ فِي نَوَاحِيهَا أَعَاصِيرٌ تَذُرُّوْ دَقَاقَ الْأَرْضِ مِنْ تَرَابِهَا ، وَأَمْسَكَ الْفَلَاحُونَ بِأَيْدِيهِمْ ، مِنْ شِدَّةِ الْأَرْضِ وَاعْتِرَازِهَا <sup>(٤)</sup> ، وَامْتِنَاعِهَا . وَأَرْضُنَا أَرْضٌ سَرِيعٌ تَغْيِيرُهَا ، وَشَيْكَ تَنَكُّرُهَا . سَيَّءٌ ظَنُّ أَهْلِهَا عِنْدَ قَحْطِ الْمَطَرِ . حَتَّى أَرْسَلَ اللَّهُ بِالْقَبُولِ <sup>(٥)</sup> يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فَأَثَارَتْ زَبْرُجًا مُتَقَطِّعًا مُتَمَصِّرًا <sup>(٦)</sup> . ثُمَّ أَعْقَبَهُ الشَّيَالُ يَوْمَ السَّبْتِ ، فَطَحَّطَحَتْ عَنْهُ جَهَامُهُ <sup>(٧)</sup> ، وَأَلْفَقَتْ مُتَقَطِّعَةً ، وَجُمِعَتْ مَتَمَصِّرَةً ، حَتَّى انْتَضَدَ <sup>(٨)</sup> ، فَاسْتَوَى وَطَمَسَ وَطَحَّى ، وَكَانَ جَوَانًا مُرْتَعَنًا <sup>(٩)</sup> قَرِيبًا رَوَاعِدُهُ . وَاعْتَدَتْ عَوَائِدُهُ بِوَابِلٍ مُنْهَمِلٍ مُنْسَجِلٍ <sup>(١٠)</sup> يَرْدَفُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، كَلِمًا ارْتَدَفَ شَوْبُؤَبَ <sup>(١١)</sup> ارْتَدَفَتْهُ شَأْيِبٌ لَشِدَّةِ وَقْعِهِ فِي الْعَرْضِ .

وَكُتِبَتْ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَهِيَ تَرَى بِمِثْلِ قَطْعِ الْقَطَنِ ، قَدَمًا لِلْيَابِ <sup>(١٢)</sup> وَسِدَّ الشَّعَابِ <sup>(١٣)</sup> ، وَسَقَى مِنْهَا كُلُّ سَاقٍ ، فَالْحَدَّثَ الَّذِي أُنْزِلَ غَيْثُهُ ، وَنَشَرَ رَحْمَتَهُ مِنْ بَعْدِ مَا قَسَطُوا ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْخَلِيدُ .

هذه رسالة لطيفة غريبة على الأدب الذي عهدناه من الحجاج ، فقد يكون خطيباً ممتازاً يتحدث عن الفتن وإخمادها ، والعصيان ورد أصحابه إلى الطاعة ، ويمكن أن يكون خطيباً واعظاً يذكر باليوم الآخر ، ويخوف الناس عذاب السعير ، ويزهدهم في الدنيا بما يزينه لهم من نعيم الآخرة ، ويدعوهم إلى مراقبة

(١) الطش المطر الضيف .

(٢) دفعت : خلعت من الزرع . (٣) أقشعت : تجعجت وتقبعت من الجمل والجذب .

(٤) الاعتزاز أصلاية . (٥) قبول : رخ تعباً .

(٦) الزوج : السحاب فيه رقة وأحرار . المنصر : تقليل المتفرق .

(٧) طمطح : فرق وبدد . الجهام : سحاب لأماء فيه . (٨) انتضد : تراكم .

(٩) طمس : امتلا . وطحى : اتبع . والجون : الأسود . والموتن : الثابت .

(١٠) المنجل : المنجب . (١١) قشوريب : القلعة من المطر .

(١٢) ثياب : الخراب . (١٣) شعاب : حطرق في الجبل .



النفس ومحاسبتها . وقد يكون كاتباً يدعو الى طاعة الخليفة ، ويخوف عاقبة الخروج على الجماعة ، ويأمر قواده بالعجلة ، ويلوهم على البطء في الفتح . والفتك بالاعداء ، وهكذا .

ولكن الغريب أن يكون كاتباً يصف الطليعة في بعض حالاتها فيجيد هذه الإفادة ، فيوفي الموضوع حقه مع الإيجاز ، ويكون دقيقاً في وصف حالاته ، ضيعاً في تنقله من جزء الى جزء . وليس هذا الخطاب وحده هو ماجاءت به عبقرية الكاتب الممتاز ، الحجاج ، بل يشير هو نفسه الى أنه قد كتب من قبل الى الخليفة بخبرهم عن سقيا الله ايامهم في صدر الخطاب . ولعل ذلك كان ضرورياً من أجل تقدير الخراج أو فرض الزكاة وجباية الأموال . ومقدار مايجب .

وكثير من هذه الرسائل قد ضاع . ولم يبق منه إلا القليل مسطوراً في كتب الأدب أحياناً ، وفي كتب الفقه والأموال ، أحياناً أخرى . ولكن كتب الفقه لا تعنى برسائل الحجاج في مسائل الدين . لأنها تعنى بمن هو أرفع ذكراً ، وأرسخ قدماً في الفقه من كبار الصحابة والتابعين ، أما الحجاج فهو سعيد إن لم يظفر منهم ببعض اللعنات أو السخط .

والخلاصة أن هذه الرسالة ، على غرابة موضوعها بين ما طرقته الكتابة في ذلك العصر ، رسالة ممتازة في أسلوبها وترتيب معانيها . وإن كان أسلوبها شبيهاً بأسلوب العصر في الوصف ، من ألفاظ تبدو لنا غريبة ، أو جاهلية في طابعها ، ومن عبارات موجزة ، خالية من التخييل والزخرف والمحسنات المعنوية واللفظية ، بعيدة عن إغراق العباسيين وزخرفة الأندلس ، ثم إن أسلوب القرآن الذي تحتم به ليس غريباً على الحجاج ، لا في خطابه ولا في كتابته .

ونستطيع من كل ما بأيدينا من آثار الحجاج الأدبية في كتابته وخطابه أن نقول إنه كان كاتباً وخطيباً ممتازاً . وأن خلوده في الأدب لم يكن

بخطبه المشهورة عندما ولي العراق وحدها . ولا بخطبته بعد دير الحجاج ، ولا بخطبه التي بأيدينا ، ولم يكن رسالته القاسية إلى سليمان بن عبد الملك . ولا رسالته الضارعة الخاشعة إلى عبد الملك . ولكن يضاف إلى ذلك شهادة من عاصروه كالحسن البصري ومالك بن دينار ، وناهيك بقول عبد الملك بعد إذا قرأ رسالته : « صلوات الله على الصادق الأمين : » إن من البيان لسحراً .

ونستطيع أن نقول كذلك إن آثاره الباقية قل من كثير . وإن كثيراً من آثاره قد ضاع ، فأين خطبه في الجمعة والعديد ، وقد ظل والياً قريباً من ربع قرن في الحجاز والعراق وكان يؤم فيهما ؟ وأين بقية خطبه في الفن والثورات ؟ وما أكثرها في عهده !

نستطيع أن نجزم بأن ما ضاع من آثاره أكثر كثيراً مما بقي . وأن العصر كان عصر رواية لا عصر تدوين بالمعنى الصحيح ، وأن الحوافظ مهما قويت لا تستطيع أن تقي كل ما قاله الحجاج ، وما وعته منها قد أصابه شيء من التغير ، ودليلنا على ذلك رواية الخطبة الواحدة بطرق مختلفة ، أو على الأقل بروايتين مختلفتين شيئاً ما . حتى رسائله قد رويت كذلك بأكثر من رواية ، كما في الرسائل التي دارت بينه وبين قطرى <sup>(١)</sup>

### التوقعات :

وما يلحق بالكتابة . التوقعات ، وللحجاج توقعات تجعله — على قلتها — من بين كبار الموقعين .

والمراد بالتوقيع أن يعلق ذو الأمر بما يراه ، أسفل الكتب التي ترفع إليه في غرض من الأغراض . وما يعتمد في شأنها ، بعبارة بليغة موجزة ، تؤثر عنه ، ويشبه اليوم في دوائر الحكومة عندنا ما يسمى « التأشير » ، وذلك الشبه في الغاية لا في البلاغة .

(١) جملة رسائل قهراب ٢٠ من ١٧٩ .

وقد امتاز كثير من كتاب العصر العباسي ، واشتهروا بتوقعاتهم ، ولعل أشهرهم جعفر بن يحيى البرمكي .

ولكن التوقعات قد عرفت منذ عهد سيدنا عمر ، قالوا إن سيدنا سعد ابن أبي وقاص كتب إليه يتأذنه في بناء دار فوق في أسفل كتابه : « ابن ما يسكنك من الهواجر وأذى المطر ، وشكا قوم إلى سيدنا عثمان من مروان ابن الحكم . وذكروا أنه أمر بوجع أعناقهم . فوق في ذلك الكتاب . فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون » .

وأثر لسيدنا علي ومعاوية ، وليزيد بن معاوية توقعات ، وكتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يخبره بسوء طاعة أهل للعراق ، ويتأذنه في قتل أشrafهم ، فوق له : « إن من بين السائس أن يأتلف به المختلفون . ومن شؤمه أن يختلف به المؤتلفون » .

وكتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك يلومه في تبذيره ، وكثرة إنفاقه ، فوق في كتابه : « لاجمع المال جمع من يعيش أبدا ، ولافرقه نفريق من يموت غدا » . وأثرت لخلق بني أمية وخلفاء الصدر الأول من الدولة والعباسية توقعات لطيفة الإشارة غزيرة الدلالة . قليلة المبني كثيرة المعنى .

وأثرت لرجال الدولة توقعات كذلك . لكنها كانت في عهد بني أمية قليلة كقلة الكتابة الإنشائية إذا قيست بالعصر العباسي .

والحجاج من المعدودين في كتاب التوقعات في عصر بني أمية ، ولكن توقعاته قليلة كما قلت . وهي تدل على مرماء البعيد . ورغبته المقصودة ، دلالة لا لبس فيها ، فقد كتب إليه قتيبة بن مسلم ، يشكو كثرة الجراد ، وذهاب الغلال ، وما حل بالناس من القحط ، فوق إليه :

إذا أُرِفَ خراجك ، فانظر لرعينك في مصالحها ، فبت المال أشد اطلاءاً<sup>(١)</sup> لذلك من الأرملة واليتيم وذوي العسيلة<sup>(٢)</sup> .

(١) احتالا .

(٢) كفروا الحاجة .

ووقع إلى قتيبة : « خذ أهل عسكرك بتلاوة القرآن ، فإنه  
أمنع حصونيك » .

ووقع في قصة محبوب ذكرها أنه ناب « ما على المحسنين من سيل » .  
والتوقيعات المقتبسة من القرآن أو الشعر أو الأمثال : تشبه استعارة  
التحليل : ومن بلاغتها توضيحها للنقص من طريق التشبيه ، والتشبيه عادة يزيد  
المشبه وضوحاً ، والاستعارة نوع من التشبيه كما هو معروف في علم البيان .  
والتوقيعات في جملتها ممتازة ، لقلة ألفاظها وكثرة معانيها ، يدل قليلها على  
كثيرها ، ويغني موجزها عن طوال الرسائل ، ويشهد ظاهرها - على قصره -  
بما فيها من كثير الأغراض والدلالات ، وكأنها الإشارة تغني عن العبارة .  
وهي تدل في عمومها على سرعة خاطر ، وذكاء وحسن فهم ، وعلى رواية  
واستشهاد صائب إن كانت منقولة ، أو علو كعب في الأدب إن كانت مبتدعة .  
ورجال الدولة أخرج إليها من غيرهم يصرفون بها الأمور ، ويقضون بها  
في الحقوق والمظالم ، ويخصمون بها في القضايا والشكايات . ويسرون بها  
أمور الدولة ، مع قلة ألفاظها ، وحسن وقعها ، وعظيم تأثيرها .

وانظر إلى توقيع الحجاج : « ما على المحسنين من سيل » . هذا اقتباس  
من القرآن الكريم <sup>(١)</sup> : وكأنه قياس منطقي : ما على المحسنين  
من سيل . وهذا الرجل قد صار محمداً بتوبته ، فليس لكم عليه من سيل ،  
فأطلقوا سراحه .

ولكن التوقيع قد أغنى عن كل هذا التطويل ، وشهد للحجاج بسرعة  
الخاطر : وإصابة الغرض ، وحسن الاختيار .

أطهر يقول الشعر ؟

لم يثر في كتب الأدب شيء للحجاج من الشعر ، ولكن هناك كتبا  
دار بينه وبين عبد الملك قد يفهم منهما أن كلا من الرجلين كان شاعراً .  
ولا غرابة في أن يكون أحدهما أو كلاهما شاعراً ، ولكن المسألة مسألة

(١) سورة الشورى .

وقائع . فليس لها مشرة ولا ذكرين الشعراء ، ولكن الروايتين ترويان هكذا :  
ولما أسرف الحجاج في قتل أسارى دير الجاهج ، وأعطى الأموال  
بلغ ذلك عبد الملك فكتب إليه :

« أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين سرقك في سفك الدماء ، وتبذيرك  
في الأموال بالباطل ، ومنعك الحق ، ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين  
الخصلتين لأحد من الناس . »

وقد حكم عليك أمير المؤمنين في الدماء : في الخطأ الدية ، وفي العمد  
القَوَد ، وفي الأموال ردها إلى مواضعها . ثم العمل فيها برأيه ، فإنما  
أمير المؤمنين أمين الله ، وسَيِّان عنده منع حق وإعطاء باطل . فإن كنت  
أردت الناس له فإغناهم عنك ، وإن كنت أردتهم لنفسك فإغناك عنهم .  
وسياتيك من أمير المؤمنين لين وشدة ، فلا يؤنسك إلا الطاعة ، ولا  
يروحنك إلا المعصية ، وظنن بأمر المؤمنين كل شيء إلا احتمالك على الخطأ ،  
وإذا أعطاك الظفر على قوم فلا تقتلن جاثماً ولا أسيراً .  
وكتب في أسفل كتابه .

إذا أنت لم تطلب أموراً كرهتها	وتطلب رضائى بالذى أنت طالبه
وتخشى الذى يخشاه مثلى هارباً	إلى الله منه . ضييع الدَّرَّ حاليه
فإن تَرَّ منى غفلة فرشية	فإربما قد غص بالماء شاربه
وإن تَرَّ منى وثبة أموية	فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبه
فلاتأخىنى والحوادث جِسمه	فإنك مجزى بما أنت كاسبه
ولا تعد ما يأتيك منى ، وإن تعد	يقوم بها يوماً عليك نواديه
ولا تدفعن للناس حقاً علمته	ولا تعطين ما ليس لله جانبه

رد المحجاج :

فلما قرأ الحجاج كتابه كتب إليه :

أما بعد فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرقى في الدماء ، وتبذيرى

في الأموال ، ولعمرى ما بلغت في عقوبة أهل المعصية ما هم أهلها . وما قضيت  
حق أهل الطاعة بما استحقوه ، فإن كان قتلى أولئك العصاة سرفاء ، وإعطائي  
أولئك المطيعين تذكيرا ، فليؤغنى <sup>(١)</sup> أمير المؤمنين ما سلف .  
وليحدثني حدا أنتهى إليه إن شاء الله تعالى . ولا قوة إلا بالله ، والله  
ما على من عقل <sup>(٢)</sup> ولا قود : ما أصبت القوم خطأ فأفديهم . ولا أعطيتهم  
إلا لك . ولا قتلت إلا فيك . وأما ما أنا منتظره من أمريك : فألينهما  
عدةً وأعظمهما محنة . فقد عبتأت للعدة الجلاد ، وللحنة الصبر .  
وكتب في أسفل كتابه .

إذا أنا لم أتبع رضاك وأتقى  
وما لأمرى بعد الخليفة جنة  
أسألم من سلمت من ذى قرابة  
إذا قارف الحجاج منك خطيئة  
إذا أنا لم أدن الشفيق لنصحه  
فمن ذا الذى يرجو نوالى ويتقى  
فقف بى على حد الرضا لا أجوز  
ولا فدعنى والأمور فأتى  
فلما انتهى كتابه إلى عبد الملك قال : غاف أبو محمد صوتى . ولن أعود  
لشئ يكرهه .

### رأى في الكتابين

الظاهر من رواية المسعودى في مروج الذهب ، وأبى بكر محمد بن يحيى  
الصولى فى أدب الكتاب . أن الشعر فى آخر هذين الكتابين من شعر  
عبد الملك والحجاج . ويؤيد ذلك أن أبيات كل منهما توافق الأخرى فى

البحر والقافية ، فكان الحجاج أراد بآياته معارضة عبد الملك ، أو اقتفاء أثره في جعل نهاية كتابه شعرا ، وليس مستحيلا على كل منهما أن يقول شعرا كما قدمت ، ولكنه بعيد لأسباب .

منها ضعف الشعر ، وقد يقال : الشعر لهما مع الإقرار بما فيه من ضعف لأنهما ليسا من كبار الشعراء ، ومنها أن العادة لم تجر بين كتاب ذلك العصر بالكتابة تراثا ثم شعرا إلا ما جرى به للاستشهاد ، وليس هذا الشعر استشهادا ، فإن التصريح باسم الحجاج في قوله ، إذا قارف الحجاج منك خطيئة ، يدل على أن المقصود نسبتها إلى عبد الملك والحجاج ، ومنها أثر الصنعة البادى في نظم معاني الكتاب شعرا بعد كتابتها تراثا ، والقوم إلى ذلك العهد يميلون إلى الإيجاز الوافي بالحاجة ، ولم نعهد فيهم أن يكتبوا ما في نفوسهم تراثا ثم يعيدوه شعرا .

وقد يكون الكتابان ، بشعرهما وتراثهما ، عرضة للطعن فيهما ، وأن يكونا منحولين ، فإن عبد الملك قد كتب إلى الحجاج بعد دير الجاهم يأمره أن يعرض الأسرى على السيف ، فمن أقر منهم بالكفر بخروجه على الخليفة نخل سبيله ، ومن زعم أنه مؤمن ضرب عنقه . فكان الحجاج لا يبايعه أحد إلا قال له : أشهد أنك قد كفرت ؟ فإن قال نعم بايعه ، وإلا قتله :

فكان عبد الملك قد رأى في خروج هؤلاء القوم عليه كفرا لا يمحوه إلا البيعة بشرطها أو القتل ، ومن أجل هذا قتل سعيد بن جبير ؛ إذ أبى أن يقر على نفسه بالكفر . وليس بينه وبين القوم ميثاق ، فكيف يطلب من الحجاج الدية في القتل الخطأ ؟ والقصاص في العمد ؟ وليس هذا واردا في آية القتل الخطأ في سورة النساء ؟ أكان عبد الملك يجهل الحكم ؟ هذا غير ممكن . فالآية صريحة في أن :

( ١ ) قتل المؤمن خطأ فيه تحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا . وهذا ما لم يطلبه عبد الملك ؛ لأنه كان يرى في خروجهم كفرا .

( ٢ ) قتل مؤمن من الأعداء فيه تحرير رقبة مؤمنة . وهذا ما لم يطلبه عبد الملك .

( ٣ ) قتل مُعَاهِدٍ فِيهِ دِيَّةٌ مُسَلَّاةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، وَهَؤُلَاءِ كَانُوا مُحَارِبِينَ .

والذي أرجحه أن الكتّابين على هذه الصورة منحولين شعرا ونثرا ولم يكن الحجاج شاعرا ، ولا عبد الملك شاعرا . وإن كانا من أهل الذوق والحفظ والاستشهاد .

### الحجاج والشعراء :

كان لبني أمية سياسة بدأها معاوية وسار عليها خلفاؤه وولاتهم من بعده ؛ يقصدون بها شغل الناس عنهم ، وصرقهم إلى أمور أخرى غير سياستهم ليطمئن ملكهم . ويبدأ بهم ، وينعموا بالعز والسلطان ، ولكنهم لم ينالوا كل ما أملوا ، بل كانت هذه السياسة خطرا عليهم في بعض الأحيان . ومن أغراض هذه السياسة .

( ١ ) العمل على إحياء العصبية الجاهلية . وتذكير الناس بما كان لقبائلهم في الجاهلية من أيام . وبما كان لهم من ثارات ؛ وذلك ليشغلوا تلك القبائل بأنفسها عن سياستهم ، وليستعينوا ببعض القبائل على بعض ، إذا بدا من بعضها خروج أو رغبة في التمرد والعصيان .

واستتبع ذلك إحياء الشعر الجاهلي الذي قيل في العصبية ، وعنى به وبدراسته وروايته أهل تلك القبائل ؛ ليكون لهم سلاحاً يوم الفخار أو الشجار .

( ٢ ) إغراء الشعراء بعضهم ببعض ، لأن بني أمية يتقدرون أثرهم في تأليف القلوب أو تنفيرها . فأرادوا أن يشغلهم بالتهاجي والتعاضض والتفاخر ؛ لكيلا تنحصر أنظارهم إلى الخلافة بتقد . أو إلى سياستها بتجريح أو طعن . فيسلم لبني أمية ملكهم ويحققون سياستهم ، من غير أن يعرض لهم هؤلاء الشعراء . مثل ذلك ما كان بين جرير والفرزدق والأخطل ، وما فعله



بشر بن مروان في حمل الأخطل على الحكم بن جرير والقرزديق . فكان ذلك بدء التهاجي بين جرير والأخطل .

( ٣ ) الاستعانة ببعض هؤلاء الشعراء بمدحون سياستهم ويدعون الناس إلى مذهبهم ويهجون أعداءهم ، ويظهرون ضعفهم فيما ليس لهم بحق ، كما استعانوا بأبي العباس الأعمى فدحهم ومجأ آل الزبير ، وبأعشى ربيعة الذي فعل مثله تماما فأعطاه عبد الملك عشرة آلاف درهم وعشرة آلاف نخوت ثياب ، وعشر قرائض من الإبل . وأقطعهم ألف جريب وغير ذلك . ولكنهم إذا كانوا قد نجحوا في إحياء العصيات الجاهلية فإنهم لم ينجحوا في القضاء على المذاهب السياسية الدينية ؛ فقد ناهضهم الخوارج والزيريون والشيعة واثرت عليهم ثورات كبيرة في العراق والحجاز . وكادت تذهب بدولتهم ، واستعانوا عليها باليف والأدب ، واستعان أعداؤهم بهذين السلاحين كذلك .

وكان الفوز للسيف الأموي ، فزال دولة بن الزبير ، ولقي الشيعة مصائب جمة في العراق ، وضعف شأن الخوارج على يد المهلب في زمن الحجاج ، ولكن بقي للأدب دولة تناهض بني أمية حتى بعد أن دانت لهم أكثرية الأمم الإسلامية .

وكان هؤلاء الشعراء من أنصار بني أمية ، وآل الزبير ، وشيعة آل الرسول صلى الله عليه وسلم ، منزلة الصحف الحزبية تقريبا في أيامنا : تدع آراءهم ومذاهبهم وتدافع عنهم ، وتدعو الناس إلى صفهم ، فلا عجب أن استعان بنو أمية بالشعراء ، كما استعان بهم مناهضوهم . واعتمد كل فريق على شعرائه ، وخطبائه كذلك . في الدفاع عن حقه ، والدعوة إلى مذهبه وهجر أعدائه ، بل استعانوا بهم كذلك في جس النبض ، وتهية الرأي العام لما يريدون من سياسة أو شبه ذلك . وأول من فعل ذلك معاوية عندما أراد البيعة لابنه يزيد ، إذ دعا مسكينا الدارمي أن يقول شعرا يحيد فيه هذه البيعة بمشهد من رجال

بنى أمية ، فقال . فلم يتكلم أحد من الحاضرين إلا مؤيدا ، فعرف معاوية أنجاهم .  
وفعل مثله عبد الملك عندما أراد البيعة لابنه الوليد ، وخلع أخيه عبد العزيز ،  
إذ أوحى إلى نابغة بنى شيان أن يؤيد سياسته ويحتج لها ففعل وقال :

داودُ عدلٌ فاحكم بسننه      ثم أين حرب فانهم نصَحُوا

( ٤ ) اشتراه هذه الألسنة الحادة ، والقوافي السائرة بالمال أو طلبها  
للقطع حيثما وجدت ؛ فأجزلوا العطاء لمن نصرهم ، وحرّموا من مال عنهم  
— وكذلك فعل أعداؤهم — حتى لقد أهدر بنو أمية وعملهم دماء بعض  
الشعراء لمعارضتهم لهم ، كما فعل الحجاج بأعشى همدان .

أما حديث العطاء فهو حديث طويل ، وكان عطاء جزيلًا حقًا ، فباع  
الشعراء مذاهبهم وعقائدهم وانضموا إليهم ، أو سكتوا عنهم خوفا من  
سلطانهم وسيوفهم ؛ بل ومدحوم كما فعل ابن قيس الرقيات من أنصار ابن الزبير ،  
والكيت بن زيد من أنصار بنى هاشم .

ومن الشعراء من كان يسكت خوفا ، أو ينصرف إلى المدح تكسبا ، مع  
إخفاء مذهبه ؛ فالقرزدي كان يتشيع ، ولكنه انصرف إلى الفخر وسكت  
عن هجاء بنى أمية وعن الدعوة إلى التشيع خوفا على حياته ، وانصرف كثير  
— وكان يتشيع — إلى الغزل ومدح الخلفاء

وكان لبعض هؤلاء الشعراء أعطيات مقررّة يأخذونها بنظام ، ولم تقطع  
هذه إلا في زمن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه . وقصة  
وفودهم عليه وعلى غيره من السكّيار مذكورة مفصلة في الجزء الأول من  
العقد القرين .

وكانت الأحوال العامة تساعد على رقي الشعر وتحمل الشعراء حملا على  
تجويد أشعارهم من حيث الأساليب والقوافي والأبجر والمعاني والحجج ،  
فكثر الشعر الياسي وكثر رجاله .

لقد كان رجال الدولة عرباً من هامة العرب ، لسانهم فصيح وذوقهم خالص صاف ، وحوافظهم واعية لأكثر ما سبق من أدب في الجاهلية والإسلام ، وكانوا رواة للأشعار والأخبار ، علماء بالأيام والأنساب ، فلا يقصدهم إلا من وثق بنفسه ، ولا يطمع في برهم إلا من سهر على شعره ، فارتقى الشعر ونهض نهضة كبيرة في هذه الحقبة من التاريخ ، وكان سيره إلى المدى العظيم الذي بلغه في عصر العباسيين سيرا حثيثاً .

وكان لولاية بني أمية وعماهم ، ولرجال العرب من ليسوا ولاية ولا عمالاً شعراء يقصدونهم ، يتجمعون فواضلهم ، ويرجون نائلهم ، فاشتهر هؤلاء الولاية بمن يمدحهم كما اشتهر آل المهلب بشعراء ، والحجاج بشعراء .

### الحجاج :

كان الحجاج ممتازاً بين ولاية بني أمية — ولهم جميعاً مزايا عظيمة — يقصده الشعراء ويمدحونه بالكرم أو بحسن السياسة أو بالحزم والعزم ، يطعمون في معرفه أو يتقون سطونه وبطشه ، يقصده منهم كثيرون كليل الأخيلية ، وجري بن عطية ، ووقف الشعراء ببابه . وساروا في ركابه . ونقم عليه بعضهم ، فمسابه ، فطلبه الحجاج فأدركه ، فسجنه أو قتله ، وهرب بعضهم من سجنه ، أو طلبه فقاته وهجاه .

### الروافد عنه عليه :

ومن وفد على الحجاج مادحا جرير بن عطية بن الخطمي ، وقد ذكر الأغانى روايتين في وفادته على الحجاج : الأولى <sup>(١)</sup> ، وثيئده فيها الكامل للبرد <sup>(٢)</sup> : أن جريراً قدم على الحكم بن أيوب بن أبي عقيل الثقفي ابن عم الحجاج وعامله على البصرة فدحه بقوله :

أقبلن من تهملان أو أودى خيم  
على قلاص مثل خيطان السلم

قد طويبت بطونها على الأدم . يحثن بحثا كفضلات الخدم .  
 إذا قطعن علساً بدا علم . حتى أنتخاها إلى باب الحكم  
 خليفة الحجاج غير المتهم . في معقيد العز وبجبوح الكرم  
 فلما حادته أنجيحه ظرفه وشعره . فكتب إلى الحجاج — وذلك في أول  
 سنه بالعراق — إنه قدم على أعرابي شيطان من الشياطين . فكتب إليه  
 الحجاج أن يرسله ففعل . فلما قدم على الحجاج أكرمه . وكساه ، وأزله . ثم  
 يقول الأغاني في الرواية الأولى أنه تركه أيلما ، ثم أرسل إليه بعد نومه ،  
 فقال له الرسل : أجب الأمير ، فقال : أليس ثيابي ، فقالوا : لا والله ،  
 لقد أمرنا أن نأثيه بك على الحال التي نجدك عليها ، ففرع جرير وعليه فيص  
 غليظ وملاءة صفراء . فلما رأى ما به رجل من الرسل دنا ، وقال لا بأس  
 عليك ، إنما دعاك للحديث . قال جرير . فلما دخلت عليه قال : إيه يا عدو  
 الله ، علام تشتم الناس وتظلمهم ؟ فقلت : جعلني الله فداء الأمير . والله إنني  
 ما أظلمهم ، ولكنهم يظلموني فأتصر . مالي ولا ابن أم غسان . ومالي  
 وللميث ، ومالي وللفرزدق . ومالي للأخطل ، ومالي وللنبي ؟ حتى عدتم  
 واحدا واحدا . فقال الحجاج : ما أدرى مالك ولهم . قال . أخبر الأمير  
 أعزه الله . . وأخبره سبب التهاجي بينه وبين هؤلاء وغيرهم من الشعراء .  
 أما الكامل فيقول : إنه لما دخل عليه قال له : بلغني أنك ذو بديهة ،  
 فنزل في هذه — لجارية قائمة على رأسه — فقال جرير : مالي أن أقول فيها  
 حتى أتأملها ، ومالي أن أتأمل جارية الأمير . فقال : بلى فنأملها واسألها ،  
 فقال : ما اسمك يا جارية ، فأمكنك . فقال لها الحجاج : خبريه يا الحناء .  
 فقالت : أمانة . فقال جرير :

ودع أمانة . حان منك رحيل	إن الوداع لمن تحب قليل
مثل الكتيب تمايلت أعطافه	فالريح تجبر ممتنه وتبيل
هذي القلوب صوادياتي ممتها	وأرى الشفاء وما إليها سيل

فَقَالَ لَهُ الْحُجَّاجُ : قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكَ السَّبِيلَ إِلَيْهَا ؛ خُذْهَا مِنْ يَدِي ، فَغَضِبَ بِهِ إِلَى يَدَيْهَا ، فَتَضَعَتْ عَلَيْهِ . فَقَالَ :

إِنْ كَانَ طِبِّكُمْ<sup>(١)</sup> الدَّلَالُ فَإِنَّهُ حَسَنٌ ذَلِكَ يَا أَمَامَ جَمِيلٍ  
فَاسْتَضَحَكَ الْحُجَّاجُ وَأَمَرَ بِتَجْنِيزِهَا مَعَهُ إِلَى النِّمَامَةِ . وَخُيِّبَتْ أَنَّهَا كَانَتْ  
مِنْ أَهْلِ الرِّى . وَكَانَ إِخْوَتُهَا أَحْرَارًا ، فَاتَّبَعُوهُ فَأَعْطَوْهُ بِهَا حَتَّى  
بَلَغُوا عَشْرِينَ أَلْفًا فَلَمْ يَقْبَلْ ، فَبَقِيَ ذَلِكَ يَقُولُ :

إِذَا عَرَضُوا عَشْرِينَ أَلْفًا تَعَرَّضْتُ لِأَمِّ حَكِيمٍ حَاجَةٍ هِيَ مَا هِيَ  
لَقَدْ رَدَّتْ أَهْلَ الرِّى عِنْدِي مُودَّةً وَحَبِيبَةً أَضْعَافًا إِلَى الْمَوَالِيَا  
فَأَوْلَدَهَا حَكِيمًا وَبِلَالًا وَحَزْرَةَ وَغَيْرَهُمْ .

وَلَا بَأْسَ أَنْ تَذَكَرَ بَقِيَّةَ الْخَبَرِ فَقِيهِ دَلَالَةً عَلَى مَا كَانَ بَيْنَ الشُّعْرَاءِ مِنْ  
التَّهَاجِي وَالتَّسَابُحِ ، وَمَا كَانَ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنْ فُخْرٍ بِأَنْتِ الْأُمِّ عَرَبِيَّةً ، وَعِنْدَ  
أَوْلَادِ الْإِمَامِ مِنْ لِبَاقَةٍ فِي التَّهَاجِي بِأَمْهَاتِهِمُ الْجِيلَاتِ أَوِ الْمَهْدَبَاتِ ، أَوِ السَّكْرِيَّاتِ  
الْأَصُولِ مِنْ بَنَاتِ الْأَعَاجِمِ :

يَقُولُ الْمُبَرَّدُ فِي الْكَامِلِ : وَيُقَالُ إِنْ الْخَنَاءِ قَاوِلٌ بِلَالًا ذَاتَ يَوْمٍ فِيمَا كَانَ  
بَيْنَهُمَا مِنَ الشَّرِّ ، فَقَالَ : يَا ابْنَ أُمِّ حَكِيمٍ ! . فَقَالَ لَهُ بِلَالُ : مَا تَذَكَرُ مِنْ ابْنَةِ  
دَهْقَانَ ، وَأَخِيذَةَ رِمَاحَ ، وَعُطْيَةَ مَلِكٍ ؟ لَيْسَتْ كَأَمِّكَ الَّتِي بَالَسْرُوتِ<sup>(٢)</sup> .  
تَغْدُو عَلَى أَثَرِ ضَائِنِهَا كَأَنَّمَا عَسَقَبَاهَا حَافِرًا حِمَارًا . فَقَالَ لَهُ الْخَنَاءُ :

أَنَا أَعْلَمُ بِأَمِّكَ : إِنَّمَا عَتَبَ عَلَيْهَا الْحُجَّاجُ فِي أَمْرِ اللَّهِ أَعْلَمُ بِهِ ، فَخَلَفَ  
أَنْ يَدْفَعَهَا إِلَى الْأُمِّ الْعَرَبِ ، فَلَمَّا رَأَى أَبَاكَ لَمْ يَشْكُكَ فِيهِ .

أَمَّا الرُّوَايَةُ الْأُخْرَى فَهِيَ أَنَّ جَرِيرًا نَزَلَ عَلَى عُنْبَسَةَ بِنْتِ سَعِيدِ بْنِ وَاسِطٍ ،  
وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَدْخُلُهَا إِلَّا يَأْخُذُ مِنَ الْحُجَّاجِ . فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى عُنْبَسَةَ قَالَ لَهُ :  
وَيْحَكَ لَقَدْ غَرَرْتَ بِنَفْسِكَ ، فَمَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ ؟ قَالَ شَعَرَ قَلْبِي اعْتَلَجَ فِي

( ١ ) الطَّبِّ : الْعَادَةُ وَالطَّبْعُ .

( ٢ ) الْمُرُوتُ : الْمَقَاذِيرُ ، أَوْ الْأَرْضُ الَّتِي لَا يَنْجِفُ تَرَاثُهَا وَلَا يَنْقُتُ مَرَجُهَا .

صدرى ، وجاشت به نفسى ، وأحسبت أن يسمعه الأمير . فغضه عنبسة ، وأدخله بيتا فى جانب داره . وقال لا تطلحن رأسك حتى ننظر كيف تكون الحيلة . ثم أتاه رسول الحجاج من ساعته يدعوه فى يوم قانظ ، وهو قائم فى الحضراء وقد صب فيها ماء حتى استنقع فى أسفلها ، وهو قاعد على سرير ، وكرسى موضوع ناحية . قال عنيسة فقعدت على الكرسي ، وأقبل الحجاج يحدثنى . فلما رأيت تَضَلَّكَهُ . وطيب نفسه ، قلت : أصاح الله الأمير ، رجل من شعراء العرب ، قال فيك شعرا أبجاده ، فاستخفه بحبه به حتى دعاه إلى أن رحل إليك<sup>(١)</sup> ، ودخل مدينتك من غير أن يستأذن له . قال : ومن هو ؟ قلت : ابن الخطي<sup>(٢)</sup> . قال : وأين هو ؟ قلت : فى المنزل . قال : يا غلام ! فأقبل الغلمان يتسارعون . قال : صف لهم موضعه فى دارك . فوصفت لهم البيت الذى هو فيه . فانطلقوا حتى جاءوا به فأدخل عليه وهو مأخوذ بضبعيه . حتى رى به فى الحضراء ، فوقع على وجهه فى الماء ، ثم قام يستنفض<sup>(٣)</sup> كما يتنفض الفرخ . فقال له : هيه ! ما أقدمك علينا بغير إذننا لا أم لك ؟ قال : أصاح الله الأمير . قلت فى الأمير شعرا لم يقل مثله أحد ، فجاش به صدرى وأحسبت أن يسمعه منى الأمير ، فاقبلت به إليه . قال : فتطلق الحجاج وسكن ، واستنشد<sup>(٤)</sup> فأنشده . ثم قال : يا غلام ! فجاءوا يسمعون ، فقال : على بالجارية التى بعث بها إلينا عامل النمامة . فأتى بجارية بيضاء مديدة القامة . فقال : إن أصبت صفتها فبى لك ، فقال : ما اسمها . قال : أمانة . فأنشأ يقول الأبيات السابقة .

فقال له الحجاج خذ يدها فيكك الجارية وانتحبت . فقلل . ادفعوها إليه بمتاعها ورحالها .

وسواء أكانت وفادته إليه فى أول سنه بالعراق من عند الحكم ابن عمه وعامله على البصرة ، أم كانت بعد أن بنى واسطاً سنة ٨٢ هـ ، فالروايتان

متفتتان على أنه وقد عليه نجدحه . وأنه أجازاه بعد أن سمع شعره ،  
وتزيد الرواية الأولى في الأغاني أنه كان قد سمع بحريز وأخبار تهاجيه مع  
الشعراء ، وأنه استمع إليه طويلاً ، حتى أخبره بقصة تهاجيه وسببه مع  
هؤلاء الشعراء ، ولا يفعل ذلك إلا رجل يقدر الأدب وبرو به ، ويعجب به  
وبأحاديثه وأخباره .

ونخلص من هذه الأخبار كذلك إلى أن الحجاج كان مقصد الشعراء ،  
وأن العمال كانوا يزورون الولاة الأدباء بالمجدين من الشعراء ليدحومهم ،  
ويأخذوا جوائزهم ، بعد أن يطمئنون إلى أنهم أهل لمدح الولاة ولأن يأخذوا  
عطائهم ، كما فعل الحكم في رواية الكامل . وكما فعل الحجاج نفسه في إرسال  
جرير إلى عبد الملك كما يذكره الأغاني ص ٧٢ مما سنقصه بعد قليل :

أما جرير فقد مدح الحجاج بقصائد جيدة أصاب صفتها فيها ، وأحسن  
مدحه بما هو فيه ، وبخاصة موقفه في العراق ، من أهل العراق والخوارج ،  
فقد برزه جرير تبريراً قوياً ، واعتذر للحجاج عن شدته مع هؤلاء القوم ،  
ووصفه بصفات عامة ، يش لها العربي ويضطرب ، وبصفات خاصة ، يش لها  
الحجاج ويضطرب . وسارت هذه المدائح حتى وصلت إلى سمع الخليفة فحفظها  
ودرواها ، فأثارت حفيظته على جرير : حتى إنه لما وفد عليه مع محمد بن الحجاج  
أبى أن يسمع منه مدحه فيه . وأرغمه على أن ينشده مدائمه في الحجاج .  
وقال له : وما عساك أن تقول فينا بعد قولك في الحجاج :

من سد مطلق<sup>(١)</sup> النفاق عليهم أم من يصول كصوله الحجاج ؟  
إن الله لم ينصرنى بالحجاج وإنما نصر دينه وخليفته ، أولست ألقائل  
أم من يغار على النساء حفيظة ؟ إذ لا يقن بغيرة الأزواج ؟  
يا عاض كذا وكذا من أمه ، والله لهنممت أن أطير بك طيرة  
بطيئاً سقوطها . ثم طرده وجعل الأخطل ينشده ، ثم أمره أن يركب جريراً ،

(١) المطلق : المكان الذي يطلع منه النفاق : والمقصود هنا النفاق

فقال جرير إنه مسلم والأخطال نصراني<sup>(١)</sup> ! ولولا أن شفع محمد بن الحجاج لجرير ، وطلب من الخليفة أن يهب كل ذنب له لعبد الحجاج ، وقبل يد الخليفة ورجله حتى أذن لجرير أن يمدحه ، بسامت عاقبه فدحه بقصيدته المشهورة التي مطلعها

أتصحو أم فؤادك غير صَاحٍ عشيّة هَمٍّ صَحْبِكَ بالرواح  
والتي يقول فيها :

ألستم خيرَ من ركب المطايا وأنشدَى العالين بطونَ رَاحٍ  
واستمنح عبد الملك ، فأعطاه وأكرمه وصار في عدد شعرائه بعد ذلك .  
ونقمهم من هذا الخبر مبلغ عناية القوم ، وعلى رأسهم الخلفاء ، بالشعر ، وتقديرهم له ، وكرهه الخلفاء أن يقصد الشعراء غيرهم بالشعر الجيد ، حتى ولو كان هؤلاء المقصودون من رجالهم وتخدام دولتهم مثل الحجاج .

ونقمهم كذلك أن الولاة كانوا يعرفون هذه العناية من خلفائهم ، بالأدباء عامة ، والشعراء خاصة . وأنهم يحرصون على أن يكون هؤلاء الشعراء لهم وحدهم : يذكرون مناقبهم ، ويدفعون عنهم كيد أعدائهم ، ويدبرون هجاء من يحرصون لهم من الشعراء . وأنهم كانوا يفضيئون من يميل إلى أعدائهم ، أو يقصد بابا غير بابهم ، ولو كان المقصود من مواليهم وولائهم ، كما أدرك الحجاج ذلك كله ، فأوقف جريراً على عبد الملك كأنه هدية يقدمها إليه ، وخشى أن يرفض عبد الملك هديته لأنها جاءت متأخرة ، فأرسل معه ابنه عمداً يشفع لجرير عند الخليفة ، فقبلت شفاعته ، وصار بعدُ من شعراء الأمويين وألستهم المادحة ، المنطلقة بالحمد والثناء .

ومن مدائح جرير في الحجاج :

دعا الحجاج مثل دعاء نوح فأسمع ذا المعارج فاستجابا : (٢)

( ١ ) ص ٤٢ ذيل الأمان

( ٢ ) دعاء نوح دعب لا تخذ على الأرض من الكافرين دياراه وذو المعارج : الله سبحانه وتعالى قال سبحانه في سورة المعارج ، من الله ذي المعارج ،



صَبَرَتِ النَّفْسَ بِأَنْ أُنِيَ عَقِيلٌ  
وَلَوْ لَمْ يَرْضَ رَبُّكَ لَمْ يَنْزِلْ  
إِذَا سَعَرَ الْخَلِيفَةُ نَارَ حَرْبٍ <sup>(١)</sup>  
تَرَى نَصْرَ الْإِمَامِ عَلَيْكَ حَقًّا  
تَشُدُّ فَلَا تَكْذِبُ يَوْمَ زَحْفٍ  
وَقَالُوا لَنْ يَجَامِعَنَا أَمِيرٌ <sup>(٢)</sup>  
وَأَشْمَطُ قَدْ تَرَدَّدَ فِي عَمَاهُ <sup>(٣)</sup>  
إِذَا عَصَاكَتْ حِبَالُكَ حَبْلَ عَصَا  
كَأَنَّكَ قَدْ رَأَيْتَ مَقْدَمَاتٍ  
جَعَلْتَ لِكُلِّ مُحْتَرَسٍ خُوفٌ  
وَقَالَ مِنْ قَصِيدَتِهِ الْجِيمِيَّةِ فِي مَدْحِ الْحِجَابِ .

مَنْ سَدَ مَطْلَعُ النِّفَاقِ عَلَيْهِمْ  
أَمْ مِنْ يَغَارِ عَلَى النِّسَاءِ حَفِيفَةٌ  
إِنْ ابْنَ يَوْسُفَ فَاعْلَمُوا وَتَقِنُوا  
مَاضٍ عَلَى الْغُمَرَاتِ يَمْضِي مَعَهُ  
مَنْعَ الرُّشَا وَأَرَاكُمْ سَبِيلَ الْهُدَى  
قَاسَتْوَسَقُوا وَتَيَّنُوا سَبِيلَ الْهُدَى  
يَارِبِ نَاكثٍ يَبْعَثُ تَرْكَنَهُ  
إِنْ الْعَدُوَّ إِذَا رَمَوْكَ رَمِيْنَهُ  
وَإِذَا رَأَيْتَ مُنَاقِقِينَ تَخَيَّرُوا  
أَمْ مِنْ يَصُولِ كِصُولَةِ الْحِجَابِ  
إِذَا لَا يَثِقُ بِغَيْرَةِ الْأَزْوَاجِ  
مَاضٍ الْبَصِيرَةَ وَاضِحَ الْمُنْهَاجِ  
وَاللَّيْلُ مُخْتَلَفُ الطَّرَاقِ دَاجِي  
وَاللَّصُّ نَكَلَتُهُ عَنِ الْإِدْلَاجِ <sup>(٤)</sup>  
وَدَعُوا التَّجِيَّ فُلَيْسَ حِينَ تَنَاجٍ <sup>(٥)</sup>  
وَحَضَابِ لَحِيَّتِهِ دَمَ الْأَوْدَاجِ <sup>(٦)</sup>  
بَنْدِي عِمَاةٍ أَوْ يَهْضُبُ سَوَاجٍ <sup>(٧)</sup>  
سَبِيلَ الضَّحَّاجِ أَقْتِ كُلَّ ضَحَّاجٍ <sup>(٨)</sup>

(١) سر : أوفد . (٢) لن يجتمع منا . (٣) الأشمط الذي في شعر رأسه ياض

(٤) الرشا : جمع رشوة : نكته : نكته : منه بشدة والإدلاج : خفاوة بالليل .

(٥) استسقوا : استقيموا . تجي : الحديث سرا لصهر مكاب .

(٦) الناكث : النافض . الأوداج : جمع وديج يفتح الدال . وهي عروق في السمك .

(٧) عماية وسراج جلان بالناية . (٨) الضحاج : الباطل والمنشأ .

داويتهم وشفيتهم من فته  
إني لمرتقب لما خوفني  
ولقد كسرت سنان كل منافق  
وقال في قصيدة أخرى :

رأى الخجاج عافية ونصراً  
دعا أهل العراق دعاء هود  
كان المرّجفين وعم نساوى  
وظنوا في اللقاء لهم رواحاً  
لجأوا إلى خاطمين ظليم ففر  
لقتهم وخيلهم سمان  
أفت لهم بمسكن سوق موت  
نرى نفس المنافق في حمام  
تقتلهم السيوف كما تسمى  
وما الخجاج ، فاحتضروا نداه  
ألا تشككو إليك زمان علي  
ومعينة العيال وهم سقاب  
زمانا يترك التفريجات سوداً

على رغم المنافق والحسود  
وقد ضلوا ضلالة قوم هود  
نصارى يلبعون غداة عيد  
وكأنوا يصعقون من الوعيد  
إلى الخجاج في أجم الأسود (١)  
بساهمة النواظر والحدود  
وأخرى يوم زاوية الجنود (٢)  
تعارض كل جافة عنود (٣)  
حريق النار في أجم الحصيد (٤)  
بجاذى المرفقين ولا تسكود (٥)  
وسرب الماء في زمن الجليد  
على درّ المثجالة الرقود (٦)  
وقد كان المحاسن غير سود

(١) النواظر : السمان والخجاج : تطلب قنار .

(٢) خاطمين ظلم ففر : راغبون فيهم انكروا من خطاهم .

(٣) يوم مسكن كان بين عبد الملك ومعه ، يوم الزاوية كان بين الخجاج وابن الأشعث ، وكاد الخجاج يهزم فيه .

(٤) الخجاج : الخناقة : الخناقة قنطرة ، ونحوه ، التي يرمى منها الدم .

(٥) تهمهم : تفتلهم . الأجم : شجر تكثيف والحصيد : الحصيد .

(٦) احتضروا : احتضروا . جاذى المرفقين : قصير ثياب . فتكود : الشجع .

(٧) سقاب : جمع ساقب . وهو الخناقة . والمثجالة : الخناقة يدورها في الشاة ، والرقود التي تملأ القدر الضخم بحلة واحدة .

وقال يمدحه :

ومن يأمن الحجاج ؟ أما عقابه  
وماذقت طعم اليوم إلا مفترعا  
وخفتك حتى استزلتني مخافتي  
يُسر لك البغضاء كل منافق  
وأظفأت نيران العراق وقد علأ  
وإن أمره أيرجو الغول وقد رأى  
وأنت لنا نور وغيث وعصمة  
ألا رب عاص ظالم تركته  
فمُرْ . وأما عقده فوثيق  
وما ساغ لي بين الحيازم ريق<sup>(١)</sup>  
وقد حال دوني من عماية نيق<sup>(٢)</sup>  
كما كل ذي دين عليك شفيق  
لمن دخان ساطع وحريق  
نكالك فيما قد مضى لسروق<sup>(٣)</sup>  
ونسبت لمن يرجو نذاك وريق  
لاوداجه المستزقات شبيق

هذه أكثر قصائد جرير في مدح الحجاج كما وردت في الديوان . ولم نعدف منها إلا البدء بالغزل . وذكر الرحلة إلى الممدوح ، وغير ذلك ، بما كان شائعا في عصر بني أمية . وما بق بعد ذلك في مدح الحجاج يؤيد ما سبق أن ماذكرناه . من أن الولاة كانوا كالحلفاء ، يحرسون على أن يكون لهم شعراء يدافعون عن سياستهم — وفي قول جرير كثير من هذا الدفاع ، وكأنه صدى لخطب الحجاج ورسائله — ويمدحونهم بمجيد أفعالهم ليسير في الآفاق ذكرهم ، والولاة يعطونهم أجزل العطاء .

لبلى الدُّمْبِلَةُ والحجاج :

ومن وفد على الحجاج من الشعراء لبلى الأخيلية ، وفدت مادحة ومستمجة ، وشاكية فأجابها الحجاج إلى كل ما سألت ، فأعطاهما لها ولقومها ، وأجاب شكاتها ، فمزل العامل الذي شككت منه ، ولم يفعل الحجاج ذلك لسواد عيونها ، فلم تكن له بها حاجة ، وقد كانت عجوزاً وكان لها هوى قديم في غيره .

ولكنها مدحته فأصاب صفتها ، وتحدثت فلأنت نفسه ، وبعث إعجابه

(١) الحيازم جمع حيزم . وهو ما حاطه بالخضرم من ناحية مصدر .

(٢) النيق أعلى مكان في الجبل . (٣) تقول : عميانه .

بحضور بيتها ، وفرة حجتها ، ولطيف أخبارها ، وحو ذكرياتها .  
حدث الثعالبي في كتابه الأمل في رواية طويلة : عن مولى عتبة بن سعيد  
ابن العاص أنها دخلت عليه وهي مسنة . ثم سألتها عن نسبها فأنشبت ، وعمما  
جاء بها . فقالت إنه القحط والجفاف وسوء العيش .

ثم قالت : إني قلت في الأمير قولا . قال : هات . فأنشأت تقول :  
أحجاج لا يفلسك سلاحك إنما النسيان بكف الله حيث تراها  
أحجاج لا تعطى العصاة مناسم ولا الله يعطي للعصاة منها  
إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دائها قشفاها  
شفاها من الداء العتال الذي بها غلام إذا هر القناة سقاها  
سقاها فرواها بشرب سجاله (١) دماء رجال حيث مال حشاها  
إذا سمح الحجاج رزاً كتيبة (٢) أعد لها قبل النزول قرأها (٣)  
أعد لها مسمومة فارسية بأيدي رجال يحلبون حراها (٤)  
فاولد الأ Bakar والعون مثله (٥) يسر ولا أرض يحف تراها  
قال : فلما قالت هذا الشعر قال الحجاج : قاتلها الله ! والله ما أصاب صفتي

شاعر مذ دخلت العراق غيرها .

ثم التفت إلى عتبة بن سعيد فقال : والله إني لأعد للأمر عسى ألا يكون  
أبدا . ثم التفت إليها فقال : حسبك . قالت : إني قد قلت أكثر من هذا ،  
قال : حسبك ويحك ، حسبك . ثم قال : يا غلام . اذهب إلى فلان فقل له :  
اقطع لسانها . قال : فأمر بإحضار الحجام . فالتفت إليه ، فقالت : نكلك أمك !  
أما سمعت ما قال ؟ إنما أمرك أن تقطع لسانى بالصلة ، فبعث إليه يستثبه ،  
فاستشاط الحجاج غضبا ، وهم بقطع لسانه . وقال : اردها ، فلما دخلت عليه  
قانت : كاد والله يقطع مقولى . ثم أنشأت تقول :

( ١ ) تعولي جمع سجن . وهو القدر العظيم . ( ٢ ) أنزل : تصوت الذي يسمع من ميد .

( ٣ ) تقري ما بعد لتعريف . ( ٤ ) يحلبون ما تبقى من حراها من اللبن .

( ٥ ) العون : جمع عون ، وهي التي وثقت مرة .

حجاج أنت الذى ما فوقه أحدٌ <sup>(١)</sup> الا الخليفة والمستغفر الصمد

حجاج أنت شهاب الحرب إن قصه <sup>(٢)</sup> وأنت للناس نورٌ فى الدجى يقدر

ثم أقبل الحجاج على جلسائه فقال : أتدرون من هذه ؟ قالوا : لا والله  
أيها الأمير ، الا أنا لم نر قط أفضع لسانا ، ولا أحسن مخاورة ، ولا أملح  
وجها ، ولا أراضن شعرا أقال : هذه ليلي الأخيلية التى ماتت توبة الخفاجي  
من حبها ، ثم التفت اليها فقال : أنشدنا يا ليلي بعض ما قاله فيك توبة .  
قالت نعم أيها الأمير : هو الذى يقول :

وهل تبكين ليلي إذا مُتَ قبلها      وقام على قبري النساء الذوايحُ  
كما لو أصاب الموتُ ليلي بكيتها      وجادَ لها دمعٌ من العين سافح  
وأغبط من ليلي بما لا أنا له      بلى كل ما قُرتُ به العين طائِحُ  
ولو أن ليلي الأخيلية سلَّمتُ      على ودوني جندك وصفائحُ  
لسلتُ تسليم البشاشة أوزقا <sup>(٣)</sup>      اليها صدى من جانب القبر صائح

فقال : زيدتنا من شعره يا ليلي . قالت : هو الذى يقول :

حمامة بطن الوادين نرني      سقاك من الغر الفوادي مطيرها  
أبني لنا لا زال ريشك ناعما <sup>(٤)</sup>      ولا زلت في خضراء غصن نصيرها  
وكنت اذا ما زرت ليلي تبرقعت      فقد رايت منها الغداة سفورها  
وقد رايت منها صدود رأيت      واعراضها عن حاجتي وبسورها <sup>(٥)</sup>  
وأشرف بالقور اليفاع <sup>(٦)</sup> لعلي      أرى نار ليلي أو يراى بصيرها  
يقول رجال لا يضيرك نأها      بلى ، كل ما شفت النفوس بصيرها  
بلى ، قد يضير العين أن تكثر البكا      ويمنع منها نومها وسورها  
وقد زعمت ليلي بأنى فاجر      انفسى تقاها أو عليها فجورها

(١) إن جاء بشرا . (٢) صاح .

(٣) البسود : الاعراض .

(٤) قور واليفاع : الجبال تعلية الارتفاع .

فقال الحجاج : يا ليلى ، ما الذى رآه من سفورك ، فقالت : أياها الأمير ،  
كان يلم بى كثيراً ، فأرسل الى يومئذ : انى آتيك ، وفطن الحى فأرصدوا له ؛  
فلما أتاني سفرت عن وجهى ، فعلم أن ذلك لشراً ، فلم يزد على التسليم  
والرجوع . فقال : لله درك ، قبل رأيت منه شيئاً تكرهينه ؟ فقالت : لا والله  
الذى أسأله أن يصلحك ، غير أنه قال مرة قولاً ظننت أنه قد خضع لبعض  
الأمير ، وأنشأت تقول :

وذى حاجة قلنا له لا تبج بها      فليس اليها ما حيت سبيل  
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه      وأنت لأخرى صاحب وحليل  
فلا والله الذى أسأله أن يصلحك . ما رأيت منه شيئاً حتى فرق الموت  
بينى وبينه . قال : ثم مه ؟ قالت : ثم لم يلبث أن خرج فى غزاة له ، فأوصى  
ابن عم له : اذا أتيت الحاضرين من بى عبادة فناد بأعلى صوتك :  
عفا الله عنها ، هل أيتن ليلة من الدهر لا يسرى الى خيالها ؟  
وأنا أقول :

وعنه عفار بى وأحسن حاله      فمررت علينا حاجة لا ينالها  
قال : ثم مه ؟ قالت : ثم لم يلبث أن مات فأتانا نعشه ، قال : فأنشدينا بعض  
مراثيك فيه ، فأنشدت :

لتبك عليه من خفاجة نسوة      بماء شتون العبرة المتحد  
ثم استزادها ، فأنشدته .

كأن قى الفتيان توبة لم ينح      فلا نص يفحصن الحصى بالكر اكر<sup>(١)</sup>  
فلما فرغت من القصيدة قال محسن الفقهسى — وكان من جلساء الحجاج ،  
من الذى تقول هذه هذا فيه ؟ فوالله انى لأظنها كاذبة . فنظرت إليه ثم قالت :  
أياها الأمير إن هذا القائل لو رأى توبة لسهه ألا تكون فى داره عذراء إلا  
هى حامل منه . فقال الحجاج ، هذا وأبيك الجواب ، وقد كشت عنه غيباً .

ثم قال لها : سلى يا ليل تعطى ، قالت : أعط فثلك أعطى فأحسن ؛ قال : لك عشرون ، قالت زد فثلك زاد فأجل . قال : لك أربعون . قالت : زد فثلك زاد فأكل ، قال : لك ثمانون ، قالت زد فثلك زاد قسم ، قال : لك مائة ، واعطى أنها غتم . قالت : معاذ الله أيها الأمير ، أنت أجود جوداً وأجند مجدداً ، وأورى زندا من أن تجعلها غنيا قال . فاهى ويحك يا ليل ؟ قالت مائة من الإبل برعاتها ، فأمر لها بها ثم قال : ألك حاجة بعدها ؟ قالت تدفع إلى النابغة الجعدى ، قال : قد فعلت . وقد كانت تهجوه ويهجوها ، فبلغ النابغة ذلك ، فخرج هارباً عائداً بعبد الملك ، فاتبته إلى الشام فهرب إلى قتيبة بن مسلم بخراسان ، فاتبته على البريد بكتاب من الحجاج إلى قتيبة . فأتى بقومس ويقال بخلوان :

هذه رواية الأمامى لوفادة ليل الأخيلية على الحجاج . ويغلب على الظن أنها وفدت عليه وهو بواسط كما وفد عليه جرير هناك فى بعض الروايات . أما الذى يعيننا من هذه الوفاة فهو أن الحجاج كان مقصد الوفود ومطلع الجود ، وكان عارفاً بالأخبار ؛ فقد سألها عن توبة وأخبر جلساءه أنه مات من حبسها . وعرف أنه قال فيها شعراً واستنشد بها هذا الشعر . فهو أديب مطلع ، ولا تقونه الإشارات الحقيقية فى الشعر . فانه لما سمع قوله فيها : وكنت إذا ما زرت ليلي تبرعت فقد رايتى منها الغداة سفورها سألتها : ما الذى رايت من سفورك ؟

ثم سألتها أن تنشده بعض مرثياتها فيه ، ثم أعجب بردها القامى على محسن الفقهسى ثم أعطاها ، ثم وهب لها النابغة الجعدى ( وهو صحابى دعا له النبي بخير وقال له ، وقال : لافض قوك بعد أن أنشده قصيدته الرائية التى مطلعها :

خليلى عوجاً ساعة وتهجراً

وقال فيها بلغنا السماء مجدنا ووجدودنا وأنا لترجو فوق ذلك مظهرأ فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم . فأين المظهر يا أبا ليل . قال الجنة ، فقال له صلى الله عليه وسلم : إن شاء الله .

وروايات الأغاني متعددة ، ولكنها جميعاً تتحدث عن انشادها للحجاج ، واستزادته من شعرها ومجآزاتها . وبعضها يقول انه لما سمع قولها :  
غلام اذا هز القنأة سقاها

قال لها لا تقول « غلام » ، ولكن قولى « حمام » . وكذلك فى الكامل ص ١٠٨ . وذلك دليل على حساسية الرجل وذوقه ، فلفظه من غير شك خير من لفظ لى الاخيلية .  
ثم أدخلها إلى بعض نساته فأكرمها ووصانها ، ووصلها ابنه محمد كذلك .  
اجتماع الشعر عنده :

وكان الشعراء يجتمعون ببابه فقد روى القالى فى الجزء الثانى من أماليه ص ٢٦٠ أن الشعراء اجتمعوا بباب الحجاج ، وفيهم الحكم بن عبدل الأسدى فقالوا : أصلح الله الأمير . إنما شعر هذا فى الفأر وما أشبهه : قال : ما يقول هؤلاء يابن عبدل . قال اسمع أيها الأمير . قال هات . فأنشده :  
وإني لأستغنى فما أبطرَ البغنى وأعرض مبسورى لمن يبتغى عرضى  
ونفر فيها كثيراً بأخلاقه وصفاته حتى قال :

ولست بذى وجهين فيمن عرفته ولا يخل فاعلم من سمى ولا أرضى  
قال ، فلما سمع الحجاج هذا البيت :  
ولست بذى وجهين فيمن عرفته :

فضله على الشعراء بجائزة ألف درهم فى كل مرة يعطيهم ، ولست أرى فى البيت غرابة ، اللهم إلا الصراحة ، ولعل الحجاج أعجب به من أجل صراحته وبعده عن التفاق . وهذا يرشدنا إلى أخلاق الحجاج نفسه ، فقد كان صريحاً كذلك .

جبرير والفرزدق عنده :

وكان يجتمع عنده كبار الشعراء . كجبرير والفرزدق . وقد روى أنهما



اجتمعوا يوما عنده في قصره بالبصرة فقال لها : اتياي بلباس أيكافى الجاهلية فليس الفرزدق الدياج والخرز وقد في قبة . وشاور جرير دهاة بنى يربوع فقالوا له : ما لباس آياتنا إلا الحديد ، فليس جرير درعا ، وتقلد سيفاً ، وأخذ ربحاً ، وركب فرساً لعباد بن الحصين يقال له المشحاز ، وأقبل في أربعين فارساً من بنى يربوع ، وجاء الفرزدق في هيئته . فقال جرير :

ليست سلاحي والفرزدق لعبة<sup>(١)</sup> عليه وشاحاً كثر جى<sup>(٢)</sup> وخلاخله  
أعدت مع الحلى الملائب<sup>(٣)</sup> فإنما جرير لكم لعل وأتم حللاته  
وقد أراد جرير بهذا أنه فارس من فرسان ، وأن الفرزدق غنث يتحلى  
بما يتحلى به النساء .

وماذا يريد الحجاج بذلك ؟ إنه لم يكن يعرف على وجه الدقة ماذا سيفعل كل منهما : ولكن كان لا يشك في أن طلبه هذا سيثير بينهما مشادة ويبعث في نفس أحدهما أو كليهما معاني . وسيؤدى بينهما إلى هجاء ، ولعله سيؤدى كذلك إلى شيء ترقح له نفس الحجاج ، ويستطيع أن يتسلل به ، ويستدل منه على مقدار لباقة كل منهما وحسن تصرفه . وقد كان ؛ فإن ما فعله جرير يدل على حسن تخلص بديع ، وأحسن منه أن لم يسكت عن الفرزدق بل جعل مفاخره مساوياً . وعاب عليه وعلى آياته أن يتزينوا بزينة النساء في الجاهلية والإسلام .

صلى الشعراء بالحجاج :

لم تكن صلة الشعراء بالحجاج صلة مدح وإعجاب بسياسته من جانبهم ، ولا صلة تقدير وعطاء من جانبه دائماً ، بل كانت بينه وبين بعضهم أحقاد وضغائن ، فكثير منهم ذموا سياسته ، وناصروا أعداءه ، وقالوا فيه هجاء ودماء . وهو قد سمع بمقاومه وأهدر دماهم ، أو عاقبهم بالسجن أو الضرب ، أو حرّمهم

العطاء ، أو غفر لبعضهم غنونه وجعله من شعرانه ، أو أوفده إلى الخليفة مادحاً . فإذا كان جرير قد مدحه وأجاد ، وأصاب في وصف سياسته بالعراق واحتج احتجاجاً شديداً لسياسته الشديدة ، وحاول أن يبرر عنقه وقسوته على أهل العراق ، فإنه لم يفعل ذلك من أول الأمر ، وإنما وقد على الحجاج بعد أن آمنه . وكان أخافه أشد الخوف كما ذكر صاحبه ذيل الأمالى وإن لم يذكر سيئاً لذلك ، وليس في ديوان جرير شعر في هجم الحجاج ولا تعرض لسياسته ، فلعلة كان يهوى آل الزبير ، ولعل له شعراً في مدحهم لم أطلع عليه ، والذي كثر في ديوانه هو تعبير الفرزدق بأن قبيلته أسلمت الزبير بن العوام أو غدرت به . ولم أقف على نص في غير ذيل الأمالى يدل على أن الحجاج خوف جريراً خوفاً شديداً ثم آمنه . وكل ما ترويه السكتب الأخرى أنه وفد عليه مادحاً فأعجب به وأعطاه .

عمرانه بن مطهر :

ومن الشعراء الذين طلبهم الحجاج شاعر عظيم من شعراء الخوارج اسمه عمران بن حطان ، وكان يرى رأى الخوارج القسعد . وقد اقتصر على الدعوة إلى مذهب الخوارج ، والتحريض بلسانه ، وقتن بمذهب الشراة ؛ فطلبه الحجاج فهرب إلى الشام ، فكتب الحجاج فيه إلى عبد الملك :

« أما بعد ، فإن رجلاً من أهل الشقاق والنفاق كان قد أفسد على أهل العراق وخيهم بالشراة . ثم إني طلبته فلما ضاق عليه على تحول إلى الشام ، فهو يتنقل في مدائنها وهو رجل ضارب ضوال أفوه أزرق<sup>(١)</sup> . »

وقد نزل عمران على روح بن زنباع وانتسب له أزدياً . وفي ليلة قال روح لعبد الملك وهو يسمر عنده : يا أمير المؤمنين إن عندي رجلاً ما سمعت منك حديثاً قط إلا حدثني ، به وزادني ما ليس عندي . قال . بمن هو ؟ قال من الأزدي . قال إني لأسمعك تصف صفه عمران بن حطان ، لأنى

(١) العرب : الخفيف اللحم . الضوال : المتهوّل . الأفوه . واسع الفم .

سمعتك تذكر لغة نزارية ، بوضلة وزهدا ورواية وحفظا . وهذه صفته .  
فقال روح : وما أنا وعمران !

فلما عرف روح صفته من كتاب الحجاج قال : هذه والله صفة الرجل  
الذي عندي . فقال له عبد الملك : اتقني به فلما عرف ذلك عمران احتال  
وهرب ، ونزل على زفر بن الحارث بقرقيسيا بالجزيرة ، فجعل شباب بني عامر  
يتعجبون من صلاته وطولها ، وانتسب لزفر أوزاعيا ، ثم كاد أمره يتكشف  
، وهو عند زفر فهرب ، وقال قصيدته المشهورة .

إن التي أصبحت يعيا بها زفر أعت عياء على روح بن زنباع  
ثم خرج فزل يعمان بقوم يكثرون ذكر أبي بلال مرداس بن أدية ،  
ويثنون عليه ويذكرون فضله ، فأظهر فضله ، وسر أمره عندهم ، فبلغ  
الحجاج مكانه ، فطلبه فهرب ، ونزل قريبا من الكوفة وظل هناك حتى مات .  
وكان مما كتب به إلى الحجاج وهو هارب آيات فأما عندما دخلت  
غزاة الحرورية ، هي وشيب ، الكوفة على الحجاج ، فتحصن منها وأغلق عليه  
قصره ، وهذه هي الآيات :

أسد على وفي الحروب نعمة ربهاء تجفل من صغير الصافر (١)  
هلا برزت إلى غزاة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر  
وكان الحجاج يخنى خطره وشدة عارضته ، فقد كان شاعرا ممتازا  
شهد له بذلك الفرزدق إذ قال فيه : لو لا أن الله عز وجل شغل عنا هذا  
برأيه للقيننا منه شرا . ويروى أن الشعراء اجتمعوا عند عبد الملك بن  
مروان ، فقال لهم : أبقى أحد أشعر منكم ؟ قالوا : لا . قال الأختل : كذبوا  
بأمر المؤمنين فقد بقي من هو أشعر منهم . قال ومن هو ؟ قال عمران  
ابن حطان . قال وكيف صار أشعر منهم ؟ قال لأنه قال وهو صادق ففارقهم ،  
فكيف لو كذب كما كذبوا ؟

(١) الربداء : الغيبة : تجفل تغرع .

فشهادة الأخطل والفردزق ليعمران شهادة لها قيمتها ، فلو استخدم هذا الشعر في الدعوة إلى مذهب أقصد على الحجاج أمره ، والحجاج يعرف هذا ويقدره ، لهذا طلبه ولج في طلبه ولم ينقطع ، إلا أن بعد أن مات الرجل .

العديل بن الفرخ :

العديل بن الفرخ شاعر أموي مقل ولكنه مجيد طلبه الحجاج فهرب منه ثم جاء إليه فعفا عنه ووصله ؛ أما تفصيل ذلك ففيه خلاف ، فمن رواية تقول إنه لما قدم الحجاج البصرة قال العديل :

دعوا الجبن يا أهل العراق فإنما      يهان ويسبى كل من لا يقاقل  
لقد جرد الحجاج للحق سيفه      ألا فاستقيموا لا يميلن مائل  
وخافوه حتى القوم بين ضلوعهم      كنزوا القضا ضمت عليه الجبال  
وأصبح كالنازى يقلب طرفه      على مرّ قسيب والطير منه راحل  
فقال الحجاج - وقد بلغته - لأصحابه ما تقولون ؟ قالوا : نقول إنه مدحك فقال كلا ، ولكنه حرض على أهل العراق . وأمر بطلبه ، فهرب وقال :

أخزوف بالحجاج حتى كأنما      يحرك عظم في الفؤاد مهيض  
ودون يد الحجاج من أن تنالني      بساط لا يدي الناجحات عريض<sup>(١)</sup>  
مهامه أشباه كأن سراياهم      ملاء بأيد الغاسلات وحريض<sup>(٢)</sup>  
وجد الحجاج في طلبه حتى ضاقت عليه الأرض ، فأقى واسطاه وتنكر ، وأخذ رقعة يده ، ودخل إلى الحجاج في أصحاب المظالم ، فلما وقف بين يديه أنشأ يقول :

هأنذا ضاقت بي الأرض كلها      إليك وقد جولت كل مكان  
فلو كنت في شلان أو شعبي أجا      لخلتلك - إلا أن تصد - تراني

(١) الناجحات : التوق البيض الحريمة .

(٢) المهام مع مهمه . وهي المنازة قبيلة . والريضة : المغول .

وفي رواية يخشوني الخجاج ، الأبيات :

فقال له الخجاج : العديل أنت ؟ قال نعم أيها الأمير .

فلوى قصيت خيزران - كان في يده - في عنقه ، وجعل يقول : إليه :  
بساط لا يدي الناعجات عريض ، فقال : لا بساط إلا عفوك . قال اذهب  
حيث شئت .

وهناك روايات أخرى ترجع سبب طلب الخجاج له إلى جناية جناها ،  
وأنه هرب إلى فيصر الروم ، فهدد الخجاج قيصر بالغزو وأورد العديل ، فردده  
واعتذر الرجل إلى الخجاج فعفا عنه ، وتحمل دية جنايته .

وأخرى تقول إنه خرج يريد الخجاج فنعه الخاجب ، فتازعه العديل ،  
ثم ذهب إلى يزيد بن المهلب فلما وصل إليه قال :

لئن أرْتَجَّ الخجاج بالخل بابَه فبابُ الفتي الأزدي بالعُرف يفتح  
ففي لا يسالي الدهر ما قلَّ ماله إذا جعلت أيدى المكارم تسح  
إلى أن يقول معرضاً بالخجاج :

وليس كعلاج من ثمود ، يكفّه من الجود والمعروف حزم مُطَرَّح  
فقال له يزيد عرضت بنا وخاطرت بدمك ، وبالله لا يصل إليك  
وأنت في حيزي ، ثم أمر له بخمسين ألف درهم . وأمر له بأفراس . وقال له :  
الحق بعلياء نهد . واحذر أن تعلقك حبائل الخجاج ، أو تحتجك حاجته ،  
وابعث إلى في كل عام ، فلك على مثل هذا . فارتحل ، وبلغ الخجاج خبره  
فأحفظه ذلك على يزيد . وطلب العديل ففاته . ولما نجا قال .

ودون يد الخجاج من أن تنالني بساط لا يدي اليعملات عريض

ثم ظفر به الخجاج بعد ذلك ، فقال ، إليه ، أنشدني قولك : ودون يد

الخجاج من أن تنالني . فقال : لم أقل هذا أيها الأمير ، ولكني قلت :

إذا ذكر الخجاج أخبرت خيفة لها بين أحشاء الضلوع نفيض  
فتيم الخجاج ، وقال : أولى لك ، وعفا عنه ، وفرض له .

وفي رواية أخرى أنه لما هرب، وتبا به كل مكان هرب إليه، نزل في بكر بن وائل مستجيراً، فاجتمعت وجوههم وذهبوا إلى الحجاج فقالوا: أيها الأمير انا قد جئنا جميعاً عليك جناية لا يغفر مثلها، وهانحن قد استسلمنا، وألقينا بأيدينا إليك. فأما وهبت فأهل ذلك أنت، وإما عاقبت فكنت المسلط عليهم، فبسم الحجاج، وقال: قد عفوت عن كل جرم إلا جرم الفاسق العديل، فقاموا على أرجلهم، فقالوا: مثلك أيها الأمير لا يستثنى على أهل طاعته وأوليائه في شيء. فان رأيت ألا تكدر منك باستثناء، وأن تهب لنا العديل في أول من تهب. قال: قد فعلت فهاؤه قبحه الله، فأتوا به، فلما مثل بين يديه أنشأ يقول:

فلو كنت في سلسى أجراً وشعابها      لكان لحجاج على دليل  
بن قبة الاسلام حتى كأنما      هدى الناس من بعد الضلال رسول  
وذكر صلة الحجاج بالخليفة، وأن الله نصره به، وأنه جازى أصحاب البلاء ثم قال:

وما خفت شيئاً غير ربي وحده      إذا ما اتجيت النفس كيف أقول  
تري الثقلين الجن والإنس أصبحا      على طاعة الحجاج حين يصول  
فقال له الحجاج قد نجوت، وفرض له وأعطاه.

ومهما اختلفت الرواية وظهر في بعضها الضعف أو القوّة، ففائتنا من ذكرها واضحة، وهي أن الحجاج كان عاملاً مهماً من العوامل التي أثرت في الشعر، وبعبته قويا من صدور حانقة عليه، أو خائفة من عقابه، فهي تمدحه، أو تعتذر إليه، وهو يقبل المدح أو الاعتذار، ويجازى بالعطاء إذا رضى، وهو رجل يقظ حذر، حساس من جهة الشعر، يصل إليه كل ما يتعلق به، ويقدره، ويعرف موقعه من نفسه ونفوس الناس، فيخشى أمثال عمران لخطر مذهبه وقوّة شعره، ويطلبه في كل مكان لئلا يفسد الناس عليه بهذا الشعر السائر المشهود له، ويقيظه انتصار العديل عليه بالهروب، وفراره من يده. ولكنه لا يرى ذنبه أجل من العفو، فإذا اعتذر العديل فلا بأس من

قبول عذره ، لأن شعره لا خطر منه على السياسة العامة للدولة ، وإذا كان شعره تحريضا لأهل العراق ، فلم يفهم ذلك إلا الحجاج ، أما غيره عن سالم فقد فهموا أن العديل يمدحه ، ومثل هذا الشعر البعيد المرمى ليس من السهل أن يثير ؛ لأنه لا يفهم مرماه إلا الخواص فلا يخشى منه . بخلاف شعر عمران .

**غبرة الحجاج :**

وكان الحجاج رجلا حريصا على الأعراض ، لا يحب أن يعيث بها الشعراء ، وأدرك جرير هذا فقال :

أم من يغار على النساء حفيظة إذ لا يثقل بغيرة الأزواج ؟  
ويؤيد ذلك أن بنتا لعبد الملك حجت ، وكانت تحب أن يقول عمر بن أبي ربيعة شعرا يذكرها فيه ، فتوعده الحجاج بكل مكروه ، فلم يتعرض لها خوفا من الحجاج ، فسخطت ، ولكن ابن أبي ربيعة خاطر من أجلها ، فقال فيها شعرا مؤدبا هي وجواربها ، وجعلت هي لمن يأتيها بهذا الشعر عشرة دنانير عن كل بيت ، فجاءت إليها الآيات بعد انصرافها من الحج وبدون علم الحجاج :

**الغبري وزينب أمنت الحجاج :**

وكانت أخته زينب بنت يوسف عرضة للشعر كذلك ، ولكنه مع عفته وأدبه ، لم يمنع الحجاج من أن يهدد قائله . ولولا الخليفة عبد الملك لنال قائله من أذى الحجاج ما هو أهله :

أما صاحب هذا الشعر فهو محمد بن عبد الله الغبري الثقفي ، وكان يشبب بزینب هذه والحجاج صغير ، فكان يتوعده ويهدده ، فلما صار قائدا لجيش الخليفة في الحجاز في حرب ابن الزبير ، ذهب أبوه إلى عبد الملك ، وقال له : يا أمير المؤمنين : إن غلاما منا قال في ابنتي زينب ما لا يزال الرجل يقول مثله في بنت عمه ، وإن هذا — يعني ابنه الحجاج — لم يزل يتتوق إليه ويهم به ، وأنت الآن تبعته إلى ما هناك ، وما آمنه عليه ، فدعا بالحجاج فقال له : إن محمدا الغبري جارئ ، ولا سلطان لك عليه ، فلا تعرض له .

فلما قتل الحجاج ابن الزبير ، وجلس يدعو الناس لليعة تأخر الفيرى حتى  
كان في آخرهم ، فدعا به ثم قال له : إن مكانك لم يخف على : أدن فبايع .  
وسأله عن آياته في زينب ، فقال : أيها الأمير ما قلت إلا كرما وخيرا وطيبا .  
ومن قصائده فيها :

تضوع مسكا بطن نَعْمَانٍ إذ مشيت      به زينب في نسوة عطرات (١)  
تهادين ما بين المحصَّب من مَنَى      وأقبلن لاشعنا ولاغيرات (٢)  
أعان الذي فوق السموات عرشه      مواشى بالبطحاء مؤتمرات .  
مرون بفخ (٣) ثم رُحْن عَشِيَّة      يلين للرحمن معتمرات  
يخبئن أطراف البنان من التقي      ويخرجن جنح الليل مُستجرات (٤)  
تقسمن لى يوم نعمان أنفى      رأيت فؤادى عادم النظرات  
جلون وجوها لم تلحها سمام      حرور ولم يسفنن بالسَّبرات (٥)  
فقلت يعافير الأطباء تناولت      يناع غصون الورد مُهتصرات (٦)  
ولما رأيت ركب الفيرى راعها      وكن من أن يلقينه حذرات  
فكدت اشتياقا نحوها وصباية      تقطعُ نفسى إثرها حشرات  
ويقا إن الحجاج امتنشد الفيرى هذه القصيدة بعد أن أمنه ، فلما قال  
تضوع مسكا بطن نعان : البيت .

قال له الحجاج كذبت ، والله ما كانت تعطر إذا خرجت من منزلها ،  
ثم أنشده :

ولما رأيت ركب الفيرى راعها : قال له : حق لها أن ترتاع لأنها من نسوة  
خفريات صالحات ، فلما قال :

مرون بفخ راحات عشيّة . قال له صدقت : لقد كانت حجابة صوامة ،

(١) نعان بفتح النون اسم واد - (٢) المحصب مكان دوى الجرات في مَنَى .

(٣) موضع بكاء . (٤) يفتنن رومهن .

(٥) قد جاثم جمع موم دوى الريح الحادة . لم يسفنن . لم تعبرهن الريح الباردة .

(٦) اليعافير جمع يعفور وهو القليل لونه كلون الجراب . مهتصرات طوية أو مكسورة .



ثم أنشده :

يخين أطراف البنان من التقي . البيت

فقال له : صدقت ، هكذا كانت تفعل ، وهكذا المرأة لحرمة المسلمة .

ثم قال له : ويحك ، إني أرى ارتياحك ارتياح مريب ، وقولك قول برى !  
وقد أمنتك .

وكان الحجاج يقول : لولا أن يقول قائل صدق ، لقطعت لسانه ،  
ويروى أن محمداً النخعي هذا هرب من الحجاج إلى اليمن وركب بحر عدن ،  
وقال في هروبه أبيتاً منها :

أتيت عن الحجاج والبحر يبتسأ      عقارب تسرى والعيون هوأجم<sup>(١)</sup>  
فضقت بها ذرعاً وأجهشت خيفة      ولم آمن الحجاج والأمر قاطع  
وما أمنت نفسي الذي خفت شره      ولا طاب عما قد خشيت المضاجع  
ثم يقول :

رفى الأرض ذات عرض عنك ابن يوسف      إذا شئت متأذى لا أبالك واسع  
فإن نلتني حجاج فاشتف جاهداً      فإن الذي لا يحفظ الله ضائع  
ثم اشتد به الشوق إلى وطنه ، فجاء حتى وقف على رأس الحجاج ، فقال  
له : إيه يا نخعي ، أنت القاتل :  
فإن نلتني حجاج فاشتف جاهداً .  
فقال : بل أنا الذي أقول :

أخاف من الحجاج ما لست خائفاً      من الأسد العرباض لم يثنه دُعر<sup>(٢)</sup>  
أخاف يديه أن تنالا مقاتلي      بأبيض تحضب ليس من دونه ستر<sup>(٣)</sup>  
ثم آمنه الحجاج وخطى سبيله . وأراد أن يتندر به فقال له : أخبرني  
عن قولك :

(١) العقارب : الغامم والوشابات .

(٢) الأسد العرباض : النجل العظيم .

(٣) الحطب القاطع

ولما رأت ركب النخري أعرضت      وكن من أن يلقينه حضرات  
ما كنتم ؟ قال : كنت على حمار هزيل ومعى صاحب لى على أتان مثله .  
وبروى أن هربه كان إلى عبد الملك ، وأنه هو الذى سأله : وما كان  
ركبك يا نخري ؟ قال أربعة أحمره لى كنت أجلب عليها القطران ، وثلاثة  
أحمره صحتى تحمل البعر ، فضحك عبد الملك حتى استغرب ضحكا ، ثم قال :  
لقد عظمت أمرك وأمر ركبك !

نستطيع أن نخلص من هذه الروايات إلى حقائق نهىنا فى هذا الموضوع ،  
فالنخري قد شهب بزئب بنت يوسف أخت الحجاج ، ما فى ذلك خلاف ،  
والحجاج قد غضب لذلك ، وخاف النخري غضبته . وقال شعراً يترضى به  
الحجاج فرضى عنه ، فالشعر قد أغار الحجاج وأثاره ، والشعر وحده أومع  
شفاعة أخرى . قد ترضى الحجاج وجعله يعفو . ولا يثور الحجاج للشعر  
إلا لأنه يعلم سير ورتة ، ويعلم خطره على سمعة أخته ، ولا يرضى الحجاج إلا  
لأن الشعر قد أرضاه لما فيه من اعتذار . ولما هو عليه من رقة وعفة ولطف  
تعبير ، وقوة أثر فى نفس الحجاج .

مع كعب الأشقرى :

ومن خاف سطوته من الشعراء كعب الأشقرى ، وكان من شعراء  
المهلب ، واستبطن الحجاج المهلب ، وأرسل إليه رسولا يستحثه على مناجزة  
الآزارقة ، فغضب المهلب وكتب إليه يستعفيه ، وكتب إلى عبد الملك بما كان  
من الحجاج إليه ، فكتب عبد الملك إلى الحجاج ألا يعارضه فيما يراه ،  
وأشدد كعب الأشقرى أماناً بحضرة رسول الحجاج يقول فيها :

إن ابن يوسف غره من غزوكم      خفض المقام بجانب الأمصار<sup>(١)</sup>  
لو شاهد الصفين حين تلاقيا      ضاقت عليه رحبة الأقطار

ورأى معاودة الرباع غنيمته أزمان كان محالف الإقنار (١) فبلغت آياته الحجاج ، فكتب إلى المطلب يأمره بأشخاص كعب إليه ، فأعلم المطلب كعباً بذلك ، وأوفده إلى عبد الملك يثويه منه ، فجاء ومدحه فأعجب به . ثم أوفده إلى الحجاج ، وكتب إليه يقسم عليه أن يعفو عنه ، ويعرض عما بلغه من شعره ، فلما وصل إليه ودخل عليه قال : إيه يا كعب :

ورأى معاودة الرباع غنيمته .

فقال له : أيها الأمير ، والله لقد وددت في بعض ما شاهدته في تلك الحروب وأزمانها ، وما يوردنا المطلب من خطرها ، أن أنجو منها وأكون حجاجاً أو حائكاً . فقال له الحجاج : أولى لك ، لولا قسم أمير المؤمنين لما تفعلك ما أسمع .

ولقي البلاء من الحجاج شعراء آخرون بعضهم سجن ، وبعضهم هرب ، ومن الغريب أن الحجاج كان سبياً في أن جاءت قرائعهم بأرق الأشعار في الاعتذار أو الشكوى ، أو أن انطلق لسانهم بهجاء الحجاج .

مع مالك بن الربيع ومحمد :

ومن هؤلاء مالك بن الربيع المازني أحد بني مازن بن مالك بن عمرو بن تميم . وقد تقدمت آياته في هجاء الحجاج ونحن نتحدث عن ترجمته ، وأنه كان معلم صبيان بالطائف .

ومنهم كذلك شاعر آخر يقال له سوار بن المضرب . وهو أحد من هرب من الحجاج وفي ذلك يقول :

أقَاتِلِ الحجاج أن لم أُرْ كُلهُ دَرَّابٍ وأترك عند هندی فؤاديا

( ١ ) معاودة الرباع : العدة التي دعى إليها في التجمع : واحداً ربح كمره . ويروى الإقنار : الإقنار : الخبيث والفقر .

فإن كان لا يرضيك حتى تردني ثم إلى قطري لا إخالك راضيا  
أرجو بنو مروان سمعي وطاعني فما وقوى تميم والقلاة ورائيا ؟  
ومهم جحدر العكلي ، وكان لصا خبسه الحجاج ، فقال في ذلك قصيدة من  
أرق الشعر وأمته وآخذة بالقلوب . يقول فيها

أليس الله يعلم أن قلبي لا يحبك أيها البرق البماني  
وأمرى أن أرد إليك طرفي على عدوّ من شُغلي وشاني<sup>(١)</sup>

وبما حاجتي فازددت شوقا بكاء حمامتين تجاوبان  
تجاوبتا بلحن أعجمي على غصنين من غرب وبان<sup>(٢)</sup>  
فكان البان أن يانت سليمي وفي الغرب اغتراب غير دان  
أليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فـذاك لنا تداني  
نعم وترى الخلال كما أراه ويعلوها النهار كما علاني

فيا أخوي من كعب بن عمرو أقلا اللوم إن لم تنفعاني  
إذا جاوزتما سعفات حخير وأودية البمامة فانعاني<sup>(٣)</sup>  
وقولا جحدر أمي رهينا يحاذر وقع مصقول يمانى  
يحاذر صولة الحجاج ظلماً وما الحجاج ظلام جمانى  
إلى قسوم إذا سمعوا بقتلي بكى شباتهم وبكى الغواني  
وإن أهلك قرب قتي سبيكي على مخضب رخص البنان  
ولم أك قد قصيت حقوق قومي ولا حق المهند والسنان

وكانت أسجون الحجاج ثقات يرسلها الشعراء ، فتسير في الأفاق والعصور ؛  
فقد حبس عبيدة بن خارجة بن حصن الفزاري في جبايات كانت له ، وكتب  
إلى أخيه مالك بن أسماه يعلمه بذلك ، وهو يظن أنه يسره ، لأن مالكا كان

(١) الهدوء : تشغل يصفك عن شيء : أى مع وجود ما يشغلي .

(٢) العرب تسمي شائك وبان نجر متعلّقان وفروع تشبه به النساء في اعتدال القامة ولينها .

(٣) السعفات جمع سفة وهي الجريدة وحجر اسم مدينة بالبحيرة .

واجداً على غيبته، فلما قرأ مالك كتاب الحجاج قال:

ذهب الرقاد فما يحسُّ رقاد      ما شجاك ومَلَّتِ العُورادُ  
خبرأتاني عن غيبته مُوجعٌ      كادت تقطّع عنده الأكبادُ  
بلغ النفوسَ بلاؤه فكأنتنا      موتى، وفي الروح والأجساد  
يرجون غرة جدنا ولو أنهم      لا يدفعون بنا المكاره بادوا<sup>(١)</sup>  
لما أتاني عن غيبته أنه      أمست عليه تظاهرة الأقياد<sup>(٢)</sup>  
نخلت له<sup>(٣)</sup> نفسى النصيحة إنه      عند الشدائد تذهب الأحقاد  
وعلى أنى إن فقدت مكانه      ذهب البعادُ فكان فيه بعادُ  
ورأيت في وجه العدو شكاسة<sup>(٤)</sup>      وتغيرت لي أوجه وبلاد

ومن ذاق مرارة السجن على يد الحجاج مالك بن أسماء هذا - أخو عينة -  
وكان الحجاج زوج أختها، وقد وصى ألا يشرب مالك في سجنه الماء  
إلا بمزج بالرماد والملح، ومع هذا فقد كان الحجاج يشتاق إلى حديثه.  
فأرسل إليه يوماً فأحضر؛ فبينا هو يتحدث إذ امتلئ ماء، فأقى به، فلما نظر  
إليه الحجاج قال: لا، هات ماء السجن فأقى به، وقد خلط بالملح والرماد فسقيه.  
وقد هرب مالك من سجنه، وكتب إلى أبيه أسماء بن خارجة أن يدخل  
على الحجاج ويسأله في أمره، فقال أسماء في ذلك:

أبني فزارة لا تعشوا شيخكم      ما لي وما لزيارة الحجاج  
شبهته شبلاً غداة لقيته      بلى الزمرى شواحب الأوداج<sup>(٥)</sup>  
تجري الدماء على التطوع كأنها      راح شمول غير ذات مزاج<sup>(٦)</sup>  
لا تطلبوا حاجاً إليه فإنه      بنس المؤهل في طلاب الحاج  
بألت هنداً أصبحت مرموسة<sup>(٧)</sup>      أوليتها جلست عن الأزواج

(١) يرجون غرة خطاً.

(٢) نخلت النصيحة: قدتها حادثة.

(٣) شواحب الأوداج: عروق رقبته فطردها.

(٤) التطوع جمع تمنع وهو الأيمن من الجسد ونحوه يقتل عليه الميت لئلا يفرق دمه. والراح الحمر.

(٥) المزاج الخلط بالماء.

(٦) سبة مدفوعة.

وقد طلب مالك بن أسماء فعاتبه عتاباً طويلاً ، ثم قال له : أنت كما قال :  
أخو بني جعدة :

إذا ما سوءة غراء ماتت      آتيت بسوءة أخرى بهم (١)  
وما تنفك ترخص كل يوم      من السوءات كالطفل النهم (٢)  
أكل الدهر سعيك في تباب      تنافى كل مومسة أثيم (٣)

فقال له : لست كما قال الجعدي ، ولكني كما قلت .

لكل جواد عثرة يستقبلها      وعثرة مثلي لا تقال مدى الدهر  
فهيئ يا حجاج أخطأت مرة      وجئرت عن المثلى وغنيت بالشعر  
فهل لي إذا ما تبث عندك نوبة      تدارك ما قد فات في سالف العمر ؟  
فقال له الحجاج : بلى والله ، إن تبث لأقبلن توبتك ، ولأعفين على  
ما كان من ذنبك ، ومن لي بذلك يا مالك ؟ قال له : لك الله به . قال :  
حسبي الله ونعم الوكيل ، فانظر ما تقول . قال : الحق أصلحك الله لا يخفى  
على أحد . ثم ترك الشراب وأظهر النسك ووفى بعهده مدة ، ثم طعما به الشعر ،  
وطال عليه ترك اللذات فعاودها ، وبلغ الحجاج خبره وشعره في ذلك ، فقال :  
لا يأتي مالك بخير .

وهذا غريب من الحجاج . فهو يعامل أصحابه معاملة قاسية ، ويشتد عليهم  
شدة مؤلمة ، ولا يرعى للصبر حقاً ولا يعرف له واجباً . فقد أساء إلى يزيد  
ابن المهلب أعظم إساءة وعذبه أشد العذاب ، وكان زوجاً لأخت يزيد ،  
وتحزن ترى الآن شدته على مالك بن أسماء . ونرى رأى أسماء بن خارجة كذلك  
فيه ، فهو يراه ضارباً سفاكاً تلذ له رؤية الدماء ، ولا يرضى أن يستشفع  
لابنه مالك عنده ، وهو زوج هند بنت أسماء هذا . وأخت مالك وعيينة .

( ١ ) السوءة : العيب ، والفراء الواضحة ، والبهيم : الجوداء .

( ٢ ) المقصود بالرخس هنا الشرب . والهم : كثرة .

( ٣ ) التاب تخلف ، والخسار : والمومسة : ففاجرة .

لعل هذا الزواج من نوع الزواج السياسي الذي لا يبنى على حب ولا عاطفة، ولكن تدفع إليه المصلحة، لهذا هانت حقوق الأصهار فيه، وضعفت الصلات بين الحجاج وأصهاره عند الضرورة، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

### الشعر في أمزانه :

كان الحجاج رأى في منامه أن عيفيه قلعتا، فطلق هند بنت اسماء بن خارجة وهندا بنت الملهب<sup>(١)</sup>. وظن ذلك يفسر حله. ولكنه لم يلبث أن جاءه نعي أخيه محمد من اليمن، في اليوم الذي مات فيه ابنه محمد، فقال: هذا والله تأويل رقيبى. ثم قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون» محمد ومحمد في يوم واحد.

حسبي بقاء الله من كل ميت      وحسبي رجاء الله من كل هالك  
إذا كان رب العرش عني راضياً      فإن شفاء النفس فيما هنالك  
ثم طلب من يقول شعراً يسليه به، فقال الفرزدق:

إن الرزية لازية مثلها      فقدان مثل محمد ومحمد  
تمسكنا قد خلت المنابر منهما      أخذ الحكام عليهما بالمرصد  
فقال: لو زدتنى! فقال الفرزدق:

إني لباك على ابنى يوسف جزعاً      ومثل فقدما للدين يسكنى  
ماسداً حياً ولا ميتاً مسدماً      إلا الخلائف من بعد النبيين  
فقال له: ما صنعت شيئاً. إنما زدت في حزنى. فقال الفرزدق:

لئن جزع الحجاج مامن مصيبة      تكون لحزون أجل وأوجعا  
من المصطفى والمصطفى من خيارهم      جناحيه لما فارقاه فودعا  
أخ كان أغنى أئمن الأرض كله      وأغنى ابنه أهل العراقين أجمعاً  
جناحاً عقاب فارقاه كلاهما      ولو ثرعا من غيره لتضعضاً

(١) سق أن أطلقها لما جاحت وهو ينبغي أنما يزيد: ولا مانع من تظاهر النبيين.

فقال : الآن ١

ومات له ابن آخر من هند بنت النعمان بن بشير واسمه أبان ، فوقف على قبره فتمثل بقول زياد الأعجم :

الآن لما كنت أكل من مشي وأفرث ترك عن شبابة القارح<sup>(١)</sup>

وتكاملت فيك المروءة كلها وأعنت ذلك بالفعال الصالح !

فلما انصرف إلى منزله ، قال : أرسلوا خلف ثابت بن قيس الأنصاري ، فأناه فقال : أنشدني مرثيتك في ابنك الحسن ، فأنشده ، فقال له الحجاج : ارث ابني أبان . فقال له : إني لأجده بما كنت أجده بابني . قال : وما كنت تجده به ؟ قال : ما رأيته قط فشبت من رؤيته . ولا غاب عني قط إلا اشتقت إليه . فقال الحجاج : كذلك كنت أجده بأبان !

رغبته في المرمع :

وكان الحجاج يحب المدح ويتوقعه من أوليائه وعماله ، وبخاصة الشعراء منهم : روى الأغاني بسنده قال : دعا الحجاج بن يوسف يزيد بن الحكم الثقفي ، فوله كورة فارس ، ودفع إليه عهده بها . فلما دخل عليه ليودعه قال له الحجاج : أنشدني بعض شعرك ، وإنما أراد أن ينشده مدحاً له ، فأنشده قصيدة يفخر فيها ويقول :

وأبي الذي سلب ابن كسرى راية يبيضه نخفق كالعقاب الطائر .

فما سمع الحجاج نغمة نهض مغضباً ، وخرج يزيد من غير أن يودعه . فقال الحجاج لحاجبه : ارجع منه العهد ، فإذا رده فقل له : أيهما خير لك ، ما ورثك أبوك أم هذا ؟ فرد يزيد على الحاجب العهد ، وقال : قل له : وورثت جدى مجده وفعله<sup>(٢)</sup> وورثت جدك أعز<sup>(٣)</sup> بالطاقف وخرج عنه مغضباً فلحق بإسمان بن عبد الملك ومدحه بقصيدة أوها أمسى بأسماء هذا القلب معموداً .

(١) الشبابة المجد ، وقفاوح المن . والمقصود . وبليت طيتك علامات النجابة .



يقول فيها :

سميت باسم امرئ أشبهت شيمته : عدلا وفضلا سليمان بن داود  
فليس أتمها قال له سليمان : ومم كان أجرى لك لعمالة فارس ؟ قال :  
عشرين ألفا . قال : فهي لك على ما دمت حيا . والعلاق بين سليمان  
والحجاج كانت منقطعة ، فلهذا أكرم يزيد بن الحكم كما آوى يزيد بن المهلب ،  
وشفع له عند أخيه الوليد . وغضب الحجاج هذا يذكرنا بغضب سليمان  
ابن عبد الملك على الفرزدق في وفادته عليه ، وقد توقع سليمان أن يمدحه  
الفرزدق ففخر بآبائه . وقال :

وركب كأن الريح تطلب عندهم لها رة من جذبهما بالعصائب  
إذا استوضحوا نارا يقولون : ليها - وقد خصرت أيديهم نار غالب  
فغضب سليمان من غره . وكان النصيب حاضرا فأنتد سليمان :

أقول لركب قافلين لقيتهم قففا ذات أوشال ومولاك فكرب  
فقا خبروني عن سليمان إنني لمعروفه من أهل ودان طالب  
فعاجوا فأثبوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أنتت عليك الحقايب  
فقال سليمان : يا غلام : أعط النصيب ، وألحق الفرزدق بنار أبيه ، فخرج  
الفرزدق وهو يقول :

وخير الشعر أشرفه رجالا وشر الشعر ما قال العبيد

والحق أن حب الثناء طبيعة ، فما بالك بالخلفاء والولاة ، وخصوصا  
إذا كان لهم فضل يرتجى ، أو معروف يشكر ! لقد أساء يزيد إذ لم يمدح ،  
وكذلك الفرزدق . ولعل من الناس من يرى في عملهما احتفاظا بالكرامة ،  
وترفعا عن التلق ، والقول الذي لا يرضاه الضمير . وهذا نبل حقا ، ولكن  
يزيد قد ولي عملا ، أفلا يشكر موليه ؟ ولم وفد الفرزدق على سليمان ؟  
أليخبره بنار أبيه وشهرتها ، وأنها موئل المقرور ، وقد خصرت يدها من  
شدة البرد ؟ لقد أخطأ كل من يزيد بن الحكم والفرزدق ما في ذلك شك ،

وكان يمكن أن يمدحاً أو يشكراً ، بما لا يؤخذ عليهما ، وكان يمكن أن يقولوا للمحسن المتفضل : شكراً لك ، في عزة واحتفاظ بالكرامة .

معرفة الحاج بالرجال :

قدمنا أن الحاج قد أساء إلى كثير من رجالات بني أمية عمالاً وقواداً وولاء وأهل علم وفقه . كالمهلب ويزيد ابنه ، وابن الأشعث وسعيد بن جبير ؛ لأنه كان يرى لهم - مع فضلهم - من الذنوب ما يبرر إساءته إليهم كما تقدم ، ولكنه إذا بعد عن دائرة السياسة ، واتصل بالناس خارجاً عن محيطها قدرهم حق قدرهم ولو كانوا من أبناء المعجم ؛ فإنه عندما جرى إليه ابن جبير بعد هزيمة ابن الأشعث . بين له سابق إكرامه له ، كما ذكرناه .

والقصة التالية شبيهة بقصة ابن جبير ؛ فإتت ابن عبد ربه يروي<sup>(١)</sup> أن الحاج أمر ألا يؤم بالكوفة إلا عربي . وكان يحيى بن وثاب يؤم قومه بني أسد ، وهو مولى لهم . فقالوا : اعتزل . فقال : ليس عن مثل نبي ؛ أنا لاحق بالعرب . فأبوا . فأتى الحاج فقراً ، فقال : من هذا ؟ فقالوا يحيى بن وثاب . قال : ماله ؟ قالوا أمرت ألا يؤم إلا عربي ، فنحاه قومه . فقال ليس عن مثل هذا نبي ، يصلي بهم . قال : فصلي بهم يحيى يوماً . ثم قال : اطلبوا إماماً غيري ، إنما أردت ألا تستذلوني ؛ فأما إذ صار الأمر إلى قاتنا أوكم ؟ لا ، ولا كرامة !

وطلب الشعبي بعد غير الخناجم — وكان الشعبي فيمن خرج ، فلما اعتذر عن خروجه مع ابن الأشعث اصطفاه لنفسه ، وكان مستشاره في المسائل الفقهية ، ثم طلب عبد الملك من الحاج أن يبعث إليه رجلاً يصلح للدين والدنيا ليتخذه سميراً وجليساً وخلياً . فقال الحاج : ماله إلا عامر الشعبي ،

حقها وفد على عبد الملك وجد عنده ما أراد ، فكان اختيار الحجاج موقفاً ، ورأيه في الشعبي صواباً <sup>(١)</sup> .

واختياره لرجل يولي شريعته ، والصفات التي أرادها متوفرة فيه دليل كذلك على حسن تقديره <sup>(٢)</sup> .

وكانه <sup>(٣)</sup> وكان له كاتب اسمه يزيد بن أبي مسلم من الموالي ، كان مولى الحجاج وكان فيه كفاية ونهضة ، قدمه الحجاج بسببهما . ولما حضرته الوفاة استخلفه على الخراج بالعراق ، فلما مات أقره الوليد ولم يغير عليه شيئاً . وقالوا إن الوليد قال يوماً : مثلي ومثل الحجاج وابن أبي مسلم كرجل ضاع منه درهم فوجد ديناراً

وتلك شهادة من الوليد تؤيد أن الحجاج كان يحسن اختيار رجاله ، وكانت له معرفة بالرجال ، لا يختارهم لحسن هيبته ولا لسكرم أصلهم ، وإنما يختارهم لغنائهم وكفايتهم .

وقد كان يزيد هذا يعرف قدر نفسه كذلك ، على الرغم من قبح منظره . يروى ابن خلكان أن سليمان بن عبد الملك عزله ، وأمر أن يرسل إليه في جامعة ، وكان رجلاً قصيراً دميماً قبيح الوجه عظيم البطن ، تحقره العين ، فلما نظر إليه سليمان قال : أنت يزيد بن أبي مسلم ؟ قال نعم ، أصلح الله أمير المؤمنين ، قال : لعن الله من أشركك في أماته ، وحكمك في دينه . قال : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، فإني رأيتني والأمور عني مدبرة ، ولو رأيتني والأمور مقبلة لاستعظمت ما استصغرت ، ولا استجلت ما استحققت .

فقال سليمان : قاتله الله ! ما أشد عقله وأعصب لسانه !

(١) عقد ١٦ من ٩٨ . - (٢) من ٢٦ ، من هذا الكتاب . - (٣) ابن خلكان ٢٦٥ ٢٦٦

## رأى الناس فيه

كثر الكلام في الحجاج ومصره يوم القيامة ، بسبب ما قدم في هذه الدنيا من أعمال . وما يأخذه عليه أعداؤه ، وأصحاب الآراء السيئة فيه هو أنه أسرف في القتل ، ولم يعرف حدا يقف عنده في تأييد سلطان عبد الملك وابنه الوليد ، فقتل ابن الزبير وهو صحابي جليل ، واعتدى في الشهر الحرام ، والبلد الحرام ، ورى الكعبة حتى تصدعت . وأساء الأدب في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمن يطوفون بقبره ، « إنما يطوفون برمة وأعواد » . وجعله بعضهم فاسقا ، وبعضهم كفره ، وحكم عليه بالخروج عن الإسلام بهذه الأفعال .

فقد روى عن عمر بن عبد العزيز <sup>(١)</sup> أنه قال : لو جاءت كل أمة بمناقبها وجئنا بالحجاج لفضلناهم .

وحلف رجل بطلاق امرأته أن الحجاج في النار ، فأق امرأته فنتعت نفسها . فسأل الحسن بن أبي الحسن البصرى . فقال : لا عليك يا بن أخي ، فإنه إن لم يكن الحجاج في النار ، فاعليك أن تكون مع امرأتك على زنا . وقيل للشعمي : يزعم الناس أن الحجاج مؤمن . قال مؤمن بالجبت والطاغوت ، كافر بالله .

وذهب قوم إلى مجاهد <sup>(٢)</sup> فقالوا : إنا قد اختلفنا في الحجاج ، فقال : أجتبتم تسالوني عن الشيخ الكافر ؟

وقال القاسم بن محمد : كان الحجاج ينقض عرى الإسلام عروة عروة . وعن عطاء بن السائب : قال : كنت جالسا مع أبي البختري والحجاج يخطب ، فقال في خطبته : إن مثل عثمان عند الله كمثل عيسى بن مريم ، قال الله فيه : إني متوفيك ورافعك إلى منطهرتك من الذين كفروا ، وجاعل

الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، فقال أبو البختري :  
كفر ورب السكية = ولب إليه أنه كتب إلى عبد الملك يعظم أمر الخلافة ،  
ويزعم أنه ما قامت السموات والأرض إلا بها ، وأن الخليفة عند الله أفضل  
من الملائكة المقربين ، والأنبياء والمرسلين . وأنه احتج لذلك بأن الله خلق  
آدم بيده ، وأسجد له الملائكة ، وأسكنه جنته ، ثم أهبطه إلى الأرض وجعله  
خليفة ، وجعل الملائكة رسلا إليه ، وأن عبد الملك أعجب بذلك .

ويرى أن عمر بن عبد العزيز تكلم يوما فقال : الوليد بالشام ،  
والحجاج بالعراق ، وقررة بن شريك بمصر ، وعثمان بن حيان بالحجاز .  
ومحمد بن يوسف باليمن امتلأت الأرض والله جورا .

ولكن هذه الروايات والأحاديث فيها من الغموض أو الضعف  
مالا بد من الإشارة إليه ، فإن قصة تفضيله الخليفة على الرسول ، لأن آدم  
أفضل من الملائكة . وقد جمعه الله خليفة ، قصة سخيفة لا يقول بها الحجاج ،  
ولا يتلقاها عبد الملك بالإعجاب كما تقول الرواية ، ولم يكن عبد الملك من  
الجهل أو الحماقة ، بحيث يعرض نفسه لسخط الأمة ، فيقبل تفضيل نفسه على  
الرسول ، وليس من البله بحيث يقبل هذا المنطق السخيف الذي ساقه الحجاج ،  
ولكنه تشويه تاريخ الحجاج ، إذ كان مقصودا بهذا - كما قصد بغيره من  
الحوادث أحيانا - أن تنسب إليه الكبائر والصغائر . حتى مثل هذه المفتريات  
التي لا تليق بعبد الملك الفقيه الحازم الأريب ، الذي اشتد على الحجاج من  
أجل أنس بن مالك رضوان الله عليه ، فكيف يمكن أن يعجب بمثل هذه  
الفساسف من الحجاج أو غيره ، أو يسكت عنها ؟

والأحكام الأخرى أحكام فردية ، لم يبين لنا أصحابها سبب تكفيرهم  
للحجاج إلا بأفعاله في الحروب . ولهم وجهة نظرهم ، ولعل له وجهة أخرى ؛  
فقد كان الحجاج عاملا لخليفة يعترف بإمامته أكثر الأمة ، وهؤلاء قد  
شدوا عن السلطان ، وأرادوا زوال سلطانه ، وخرجوا عن طاعته ، وهم في  
نظر الخلافة الأموية بغاة ، واللبغاة حكم مقرر في القرآن .

«أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافِ أَوْ تُنْفَخُوا مِنَ الْأَرْضِ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ، وَهَؤُلَاءِ يَرَوْنَ الْإِمَامَ جَائِرًا، وَعَمَالَهُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَاخْرُوجْ عَلَيْهِ فَرَضَ لَازِمٍ، وَلَا طَاعَةَ تُخَفِّقُ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ. وَلَكِنْ أَيْ عَصِيَانٍ يُؤْخَذُ عَلَى الْحِجَاجِ؟ الْقَتْلُ؟ إِنَّهُ لَمْ يَقْتُلْ ظَنًّا فِيمَا يَرَى. السَّجْنُ؟ إِنَّهُ كَذَلِكَ لَمْ يُحْبَسْ بِرَيْنًا، وَلَكِنَّهُ حَبَسَ أَقْوَامًا وَجْهَتْ إِلَيْهِ تَهْمٌ، وَلَعَلَّهُ لَمْ يَثْبُتْ مِنْ صَحَّتِهَا، وَاكْتَفَى بِالشَّبَهَاتِ. وَكَانَ أَوَّلَى لَهُ أَنْ يَدْرَأَ بِهَا الْخُدُودَ، وَلَعَلَّ هَذَا بِمَا دَعَا عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى أَنْ يُسَمَّى الرَّأْيُ فِيهِ. وَلَكِنْ مَنْ قَالَ إِنَّ الْحِجَاجَ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ مُتَعَمِّدًا الْخُرُوجَ عَلَى الدِّينِ، وَأَنَّهُ كَانَ يَتَحَدَّى بِهِ قَوَانِينَ الْإِسْلَامِ وَأَصُولَهُ؟

وقد رويت عنه أحاديث وأخبار تدل على أنه كان يؤمن بالله واليوم الآخر، وكان يرى محمداً أفضل الخلق، وأن العمل الصالح في الدنيا ينفع في الآخرة، وكان يرجو الله واليوم الآخر. وله خطب وعظية ومن ذلك قوله في الخوض على محاربة النفس والامتناع عن الشهوات<sup>(١)</sup>

أيها الناس : ائذعوا<sup>(٢)</sup> هذه الأنفس : فإنها أسألُ شيء إذا أعطيت، وأمنع شيء إذا سئلت، فرحم الله امرأ جعل لنفسه خطأ ما وزامها<sup>(٣)</sup> ففادها بخطأها إلى طاعة الله، وعطفها بزمها عن معصية الله، فإن رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه.

وكان يقول<sup>(٤)</sup> : إن امرأ أتت عليه ساعة من عمره، لم يذكر فيها ربه، أو يستغفر من ذنبه، أو يشكر في معاده، الجدير أن تطول حسرته يوم القيامة. ومرض الحجاج<sup>(٥)</sup> ففرح أهل العراق. وقالوا مات الحجاج، مات الحجاج فلما أفاق صعد المنبر وخطب الناس فقال :

(١) ائذعوا : ائذروا

(٢) كامل ١ ص ١٠٩

(٣) الخطأ : بكل ما وضع في أنه جدير ببقائه، والوفاً بما يقدر من أجل دفعه

(٤) عند ٢٠ ص ٢٥٢

(٥) كامل ١ ص ١٠٩

يا أهل العراق . يا أهل الشقاق والنفاق . مرضت فقلتم مات الحجاج ،  
أما والله لأحبُّ إلى أن أموت من أن لا أموت ، وهل أرجو الخير كله  
إلا بعد الموت ؟ وما رأيبت الله رضى بالخلود في الدنيا لأحد من خلقه إلا  
لأنقض خلقه إليه ، وأهونهم عليه ؛ إبليس ، ولقد رأيبت العبد الصالح<sup>(١)</sup> يسأل  
ربه ، فقال : « رب اغفر لي وهب لي مئلكا لا ينبغي لأحد من بعدي »  
ففعل . ثم اضحل بعد ذلك فكأنه لم يكن .

ومات ابنه محمد ، ثم جاءه نبي أخيه محمد من اليمن . ففرح أهل العراق  
وقالوا : انقطع ظهر الحجاج وهبط جناحه . فخرج فصعد المنبر ، ثم خطب  
الناس فقال :

أيها الناس . محمدان في يوم واحد ؛ أما والله ما كنت أحب أنهما معي في  
الحياة الدنيا ، لما أرجو من ثواب الله لهما في الآخرة ؛ وأيم الله ؛  
ليوشكن الباقي مني ومنكم أن يفنى . والجديد أن يبلى ، والحي مني ومنكم  
أن يموت . وأن تبال الأرض منا كما أدلنا منها<sup>(٢)</sup> . فتأكل من لحومنا  
وتشرب من دماننا ، كما مشينا على ظهرها ، وأكلتنا من ثمارها ، وشربنا من  
مائتها ، ثم تكون كما قال الله تعالى : « ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث  
إلى ربهم ينذسلون » . ثم تمثل بهذين البيتين :

عزائي نبي الله عن كل ميت وحسبي ثواب الله من كل هالك  
إذا ما لقيت الله عني راضياً فإن شفاء النفس فيما هنالك  
ثم نزل :

وقيل للحجاج<sup>(٣)</sup> : كيف وجدت منزلك بالعراق ؟ قال خير منزل ، لو  
أدركت بها أربعة لتقربت إلى الله بدمائهم ؛ قيل ومن هم ؟ قال : مقاتل ابن  
مسلم ؛ بطالناس له أرديتهم فقال : « لمثل هذا فليعمسِلِ العاملون » . وعيد

( ١ ) سيدنا سليمان .

( ٢ ) أن تأخذ منا كما أخذنا منها ، أو تأكلنا كما أكلنا منها .

( ٣ ) عند ٣ - ص ٣٥٥ .

الله بن ظيان : قام فخطب خطبة أوجز فيها ، فتأدى الناس من أعراض المسجد : أكثر الله فينا أمثالك . قال : لقد سألت الله شططا<sup>(١)</sup> . وسعيد بن زرارة : كان جالسا على الطريق فمرت به امرأة فقالت : يا عبدالله ، أين الطريق إلى مكان كذا ؟ فغضب وقال : ألمثلني يقال يا عبد الله ؟ وأبو سمالك الحنفي ، أضل ناقته فقال : لئن لم يردها على لأصليت أبدأ . فلما وجدها قال : علم أن يميني كانت برّة<sup>(٢)</sup> .

أيقال في مثل هذا الرجل الحريص على حقوق الله وعلى أموال الأمة وعلى الأدب في حق الله ، والتواضع لله ، إنه كان كافرا ؟  
إنه لم يرخص من مقاتل بن مسلم أن يتخذ مال الله وسيلة إلى استعباد الناس ؛ ولا لهذا الجلف المتكبر . عبيد الله بن ظيان ، أن يُصَحِّزَ الله عن خلق مثله ؛ ولا لسعيد بن زرارة أن يستكشف أن يكون عبدا لله كما دعت المرأة ، ولا لسمالك الحنفي أن ينسب إلى الله خوفا من تهديده بترك الصلاة إذا لم يرد عليه ناقته . وأراد أن يتقرب إلى الله بدمائهم لسوء أديهم .

لا شك أنه كان مسرفا في القتل ، ولكنه قد يعذر إذا عرفنا الظروف التي كان يمش فيها ، وهو والخليفة يريدان رد الناس إلى طاعته ، أو إبادة من خرج عليه ، واستباح الأموال والدماء والأعراض والأطفال كالخوارج .

وما للشعبي يشهد عليه بالكفر . وقد أتاه تائبا مباحيا لعبد الملك بعد قتل ابن الأشعث ؟ وما للناس يلومونه على قتل سعيد بن جبير بعد أن نقض بيعته كانت للخليفة في عنقه ، وخرج محاربا له ولو ظفربه لقتله ؟

لقد كان للعصية على بني أمية وشيعتهم ، زمن تدوين التاريخ والأخبار ، أثر في نسبة كثير من العيوب إلى الأمويين وولاتهم . ولعل هذه العيوب أصلا

( ١ ) شيئا عظيما فوق القدرة .

( ٢ ) خاف لأنه علم عزمي على تفتيته ما حلفت عليه . وهو ترك الصلاة .



ولكن هذا الأصل لا يكفي على كل حال للحكم بالكفر . بل يجب أن يترك أمرهم لله ، ويحكم على أعمالهم بنون عصية ، ولا شك أن التاريخ يعترف للحجاج بالحزم والمضاء ، والقُدرة على تسكين الفتن ، ورد العصاة إلى طاعة السلطان ، والاستعانة بكبار الرجال في ذلك .

وأمره بعد ذلك متروك إلى الله إن شاء الله عقابته ، وتجاوز عن سيئاته ، وإن شاء عذبه بما خرج على حدود الله وحرماته .

مرمه موء وما وقع بينه وبين يحيى بن محمد المباحي :

يروى القالي <sup>(١)</sup> عن الرواة : أنه لما حضرت الحجاج الوفاة ، وأيقن بالموت قال : استدوني ، وأذن للناس فدخلوا عليه ، فذكر الموت وكرهه ، واللحد ووحشيته ، والدنيا وزواها ، والآخرة وأهواها ، وكثرة ذنوبه . وأثراً يقول :

إن ذنبي وزن السموات والأر ض وظني بخالقي أن يحابي  
فلن من بالرضا فهو ظني ولئن مرراً بالكتاب عذابي  
لم يكن ذاك منه ظلي ، وهل يظلم رب يرعى لحسن المآب ؟  
ثم بكى وبكى جلساؤه . ثم أمر الكاتب أن يكتب إلى الوليد :

أما بعد فلقد كنت أرفعى غنمك ، أحوطها حياطة الناصح الشفيق برعية مولاه ، فجاء الأسد فيطش بالراعي ، ومزق المرعى كل ممزق . وقد نزل بمولايك منازل بأيوب الصابر ، وأرجو أن يكون الجبار أراد بعبد غفرانا لخطاياهم ، وتكفيرا لما حمل من ذنوبه . ثم كتب في آخر الكتاب :

إذا ما لقيت الله عني راضيا فإن شفاه النفس فيما هنالك  
فحسبي بقاء الله من كل ميت وحسبي ثواب الله من كل هالك  
لقد ذاق هذا الموت من كان قبلنا ونحن ندوق الموت من بعد ذلك  
فإن مت فاذا كرتي بذكر محب فقد كان جفا في رضاك مسالكي

والأفنى دبر الصلاة بدعوة ﴿يُلَاقِيهَا الْمُسْجُونَ فِي نَارِ مَا لَكَ عَلَيْكَ سَلَامٌ اللَّهُ حَيًّا وَمَيِّتًا﴾ ومن بعد ماتحيا عتيقاً لما لك ثم دخل عليه أبو المنذر يعلى بن مخلد الجاشعي وقال : كيف ترى ما بك يا حجاج من غمرات الموت وسكراته ؟ فقال : يا يعلى غمراً شديداً وجهداً جهيداً ، وألماً مضيضاً <sup>(١)</sup> ، وزعاً جريضاً <sup>(٢)</sup> وسفرأ طويلاً ، وزاداً قليلاً ، فويلي ويلي إن لم يرحمني الجبار . فقال له : يا حجاج : إنما يرحم الله من عباده الرحماء السكرماء ، أولى الرحمة والرأفة والتحنن ، والتعطف على عباده وخلقه . أشهد أنك قرين فرعون وهامان ؛ لسوء سيرتك ، وترك ملكك ، وتنكيبك عن قصد الحق <sup>(٣)</sup> ، وسنن الحجّة <sup>(٤)</sup> وآثار الصالحين . قتلت صالحى الناس فأفنتهم ، وأبترت عترة التابعين فبترتهم <sup>(٥)</sup> ، وأطعت المخلوق فى معصية الخالق وهرقت الدماء ، وضربت الأبرار ، وهتكت الأستار ، وسأت سياسة متكبر جبار . لا الدين أبقيت ، ولا الدنيا أدركت ، أعززت بنى مروان ، وأذلت نفسك ، وعمرت دورهم وأخرت دارك . فالיום لا ينجونك ولا يغثونك ؛ إذ لم يكن لك فى هذا اليوم ولا لما بعده نظر ، لقد كنت لهذه الأمة اهتماماً واعتماً ، وعناء وبلاء . فالحمد لله الذى أراحها بموتك ، وأعطاهما منهاها بخزيك .

قال : فكأنما قطع لسانه عنه ، فلم يُجِرْ جواباً وتنفس الصعداء ، وخنفته العبرة ، ثم رفع رأسه فنظر إليه فأثأ يقول :

رب إن العباد قد أياسوا  
ورجائى لك الغداة عظيم

وفاة الحجاج :

مات الحجاج فى الرابعة والخمسين من عمره بمدينة واسط سنة ٩٥ هـ .

(١) ألماً شديداً محرّفاً محرّفاً .

(٢) الزع خروج الروح من الجسد . والجريض الذى يخفف الريق .

(٣) التنكب الانحراف والميل . (٤) طريق الصواب .

(٥) أبر : قتل باطمام الآية ، ولعنة . سكرام ، وبتر : أمك .

وأما سبب موته فقد اختلف فيه ، فقليل إنه مات عما أصابه من أمراض معوية نشأت من حبه للطعام وإسرافه فيه .

وإذا استعنا بالأدب رأينا الخبر السابق عن أبي علي القالي يشير إلى أنه كان مريضاً مرضاً طويلاً قبل موته . وليس من الحتم أن يكون هذا المرض أقعده عن تصريف الأمور . إنه يقول : « وقد نزل بمولايك مازل بأيوب الصابر » وفي هذا ما يشير إلى معاناته للمرض زمناً قبل وفاته .

ويرى أنه دفن حياً ، وهي رواية طريفة ، فلم يخل موته من خبر يستحق القراءة لغرابته : قالوا إنه أغشى عليه إغماء شديداً فظن أهله أنه مات حقاً ، فدفنوه . ثم سمع الناس صياحاً في قبره ، فأتوا إلى يزيد بن أبي مسلم كاتبه — وكان يبغض الحجاج ويرى رأى الخوارج ويكتمه — فلما سمع يزيد بالخبر ذهب إلى القبر ومعه جماعة من أهل الشام . فوقفوا على قبره فسمعوا صياحه فقال يزيد : يرحمك الله أيا محمد ، فما تدع القراءة حتى ميتاً . ولعل يزيد قد قال ذلك تمويهاً لئلا يظن أهله أنه حي فيخرجوه من قبره .

وعلى كل فقد مات الحجاج بعد أن ثبت ملك آل مروان ، وأذل كثيراً من النفوس وقضى على المعارضين . وأخاف كثيراً من الأمنين ، وترك لنفسه ذكراً سبياً في الآخرين .

وترك لرجال الأدب والمؤرخين مادة تشغل نقدهم وتعليقهم ، وتقوم ألسنتهم ويانهم ، وترك لرجال الورع والفساك أديماً يمزقونه بعد موته كما أساء إلى أسلافهم في حياته .

ولسكنه كان يعمل بوحى من إرادته ورأيه ، وكان يحاول الإصلاح ما استطاع فبنى مدينة ، وحفر نهراً ، وقوم دعائم إمبراطورية وأصلح كتابة ، وفتح بلاداً ما زالت إلى اليوم تشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأخرجت رجالاً كان لهم في تاريخ الفقه واللغة والفلسفة والعلوم الإسلامية بوجه عام ، فضل عظيم .

# دار الفكر العربي

للطباعة والنشر

شارع القصر قديمي المترة ، بالقاهرة - تليفون ٥٦٤٦٧

## أصدرت

- |    |  |
|----|--|
| ٥٠ | الحركة الفكرية : للدكتور عبد اللطيف حمزة             |
| ٣٥ | فن القول : للأستاذ أمين الخولي                       |
| ٢٥ | أدب مصر الإسلامية : {                                |
| ٢٥ | المجالس المستنصرية : }                               |
| ٢٠ | الرد على النحاه : للدكتور شوقي ضيف                   |
| ٢٥ | اللهجات العربية : للدكتور إبراهيم أنيس               |
| ٢٠ | نشأة اللغة : للدكتور علي عبد الواحد وافي             |
| ٢٠ | الكميت : {   |
| ٢٠ | الأستاذ عبد المتعال الصعيدي                          |
| ٢٠ | أطفال بلا أسر : للأستاذ محمد بدران وزمري يس          |
|    | من قصص الأولين : صور من فجر النبوة وفجر الإسلام      |
| ١٥ | للأستاذة علي الجاوي ، محمد أبو الفضل ، سيد شحاته     |
| ٢٠ | التعب : للأستاذ أبو مدين الشافعي                     |
| ٣٠ | ديبا الجنس اللطيف : للرحالة المصري الأستاذ محمد ثابت |
| ٢٢ | رحلاتي في مشارق الأرض ومغاربها : الأستاذ محمد ثابت   |





LIBRARY  
OF  
PRINCETON UNIVERSITY



32101 072539941

(NEC)  
DS38  
.4  
.H25  
H36  
1947

2271.264.381

$\frac{p}{20}$